

EGYPT AND ISRAEL SIGN FORMAL TREATY
ENDING A STATE OF WAR AFTER 30 YEARS
SADAT AND BEGIN PRAISE CARTER'S ROLE

...Bare Hydrogen Bomb Article
...Magazine Rejects Mediation

Palestinians, Pushing to the Front,
Cover Soldiers and Demands Egypt

SPECTACULAR BOMB
TOKYO 1972 DID
KIDNAP 2000

...Carter's Role
...Sadat and Begin
...Praise Carter's Role

Treaty Impact
Said Unknown

...Sadat and Begin
...Praise Carter's Role

Palestinians, Pushing to the Front,
Cover Soldiers and Demands Egypt

نارا ال غطت بيروت وكل المناطق
ضحايا ١٢٠٠ جريحاً • التفجير الكبير ٢٢ قتيلًا و ١٨٣ جريحاً

أه لو تدري بلادي أسامة غريب

رواية

آه لو تدري بحالي

أسامة غريب

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

إهداء

إلى روح الفنان رياض السنباطي

طاب مقامًا ومستقرًا

حملت الصحف العربية الصادرة بتاريخ 28 يونيو 1978 خبرًا عن الفريق سعد الدين الشاذلي، وقد تعددت الصياغات، لكن جوهر الخبر كان كالتالي:

غادر لشبونة عاصمة البرتغال، صباح أمس، الفريق أول سعد الدين الشاذلي سفير مصر السابق في البرتغال، والرئيس السابق لأركان القوات المسلحة المصرية، بعد أن ترك منصبه في السلك الدبلوماسي المصري. وامتنع الفريق الشاذلي عن تحديد المكان الذي سيتوجه إليه. كان برفقته زوجته وسفير العراق بباريس ودبلوماسيون من السفارة السورية في لندن والسفارة الليبية في مدريد. وأبلغ الصحفيين في مطار لشبونة قوله: إنني ذاهب إلى بلد قَدِّم لي الحماية الشخصية التي لم تستطع البرتغال تقديمها، وأضاف أنه سيتوجه أولاً إلى مدريد لأسباب أمنية شخصية، وأشار إلى أنه يحمل جواز سفر من الجماهيرية العربية الليبية ما زال صالحًا. وأوضح أن أربع دول عربية هي: الجزائر، وليبيا، وسوريا، والعراق عرضت عليه الإقامة فيها، وكرر أنه لا يستطيع الإفصاح عن وجهته النهائية؛ لأسباب أمنية، وقال إنه سيقوم بجولة في عدد من العواصم العربية لشرح وجهة نظره تجاه سياسة الرئيس السادات.

أولاً

(1)

هبطت الطائرة التي كانت تمتلئ بالطلبة في مطار فيينا. لم تستمر الإجراءات بالمطار طويلاً، وكان هذا مما يدعو للدهشة؛ ففي العادة يتوقف رجال الجوازات طويلاً بالفحص والتدقيق أمام الطلبة الذين يحملون جوازات سفر مؤقتة قادمين من بلاد العالم الثالث، ولكن يبدو أن النمسا كانت تعرف مسبقاً أن هؤلاء الذين يأتون في الصيف إنما يكون وجودهم مؤقتاً، ويُقدّمون للمجتمع خدمة ببيع الجرائد عند إشارات المرور بالشوارع، ثم يعودون إلى بلادهم عند بدء العام الدراسي.

سرعان ما وجد نفسه على الرصيف ينتظر الأتوبيس ومعه جمع من الشباب الذين يستعدون لإظهار المهارة في بيع الجرائد بالعاصمة النمساوية! لم يكن يعرف أحداً منهم، لكن العيون كانت تتلاقى تُعرب عن الرغبة في التجمع معاً حتى لو كان الكبرياء يمنع كلاً منهم من البوح بأنه خائف من الغربة!

كانت الأجواء التي تركها عادل بمصر ضبابية وغير مطمئنة، فالسادات الذي يبدو أنه يئس من مواجهة إسرائيل قرر مهادنتها؛ فقام بمبادرته العجيبة، وسافر إلى القدس للقاء قادة إسرائيل، وأعلن أن تاريخاً من العداة والحروب بين العرب وإسرائيل ما هو إلا حاجز نفسي يمكن كسره بالاقتراب ومد اليد بالسلام إليهم. لم تكن حركات السادات المدرسية تدهش عادل أو رفاقه بالجامعة، فالسادات لم يكن بالنسبة لهم أكثر من أراجوز مهرج منذ حدّتهم عن عام الحسم وقصة الضباب وهم بعد أطفال صغار، إلى أن خرج عليهم بمبادرته المسرحية وهم في الجامعة، ثم شرع في لقاء صديقه بيجن في الإسماعيلية.. تلك الزيارة التي استغلها رئيس وزراء إسرائيل في تكريس ادعاءاته عن حق إسرائيل في الأراضي

التي احتلتها بعد خوضها حروبًا دفاعية كانت مهددة فيها بالزوال من جانب العرب الأشرار! ليس هذا فقط، لكن الملعون هزأ بوزير الخارجية المصري محمد إبراهيم كامل، وقال له: لقد كنتَ عيالاً صغيراً عندما وقعت الأحداث التي أروىها الآن!

ترك عادل القاهرة وهي تختنق بالإجراءات القاسية الهادفة لردع المعارضين، وغارات الأمن على الجامعات تحصد الأصدقاء، وقد كانت مجلة الحائط التي يكتبها عادل وسماها «ثوار ولآخر مدى» قد نالت شهرة كبيرة في الجامعة بما حوته من أشعار ومقالات نارية.. وقد نجا عادل من إحدى هذه الغارات عندما نزل بالصدفة من شقة شارع الصناديلي ليشتري علبة سجائر، ثم أبصر من موقعه على الناصية عند كشك عم سليمان تاجر الحشيش رجال البوليس وهم يصعدون ثم يهبطون، وبين أيديهم رفاقه وزملاؤه بالجامعة الذين لم يفعلوا سوى أنهم عبّروا عن رأيهم داخل الجامعة وفي أوساط الطلاب. والحقيقة أن عادل كان من ضمن هؤلاء الذين أطلق عليهم السادات لقب الأفنديات الأرازل، وقد شمل هذا اللقب الكُتّاب والصحفيين والطلبة وسائر أصحاب الياقات البيضاء من المعارضين، الذين يختلفون عن العمال أصحاب الأفرولات الزرقاء.. وقد كانوا خصوصاً للسادات أيضًا.

تذكّر عادل شقة شارع الصناديلي التي استأجرها ونفر من أصدقائه وكان لهم بها أيام مجيدة حفلت بالشعر والرسم والغناء وبالتأليف الموسيقي، مع تعاطي الحشيش أحيانًا.

في السابق وقبل مبادرة السادات وسفره للقدس ولقائه بصديقه بيجن لم يسلم عادل من رجال الأمن والطلبة المخبرين الذين انتشروا بجامعة القاهرة في أثناء مظاهرات 18 و19 يناير 1977، وبفضلهم قضى بسجن القلعة ثلاث ليال عندما أخذوه بينما كان يجلس بكافيتريا الكلية مع أصدقائه ينشدون قصيدة «عزة» للشاعر أحمد فؤاد نجم، ثم أفرجوا عنه بعد أن تدخّل أحد أقربائه الذي كان عضوًا بمجلس الشعب.. ولم ينسَ هذا العضو أن يقول له إنها المرة الأولى والأخيرة التي يتدخل فيها لأجله إكرامًا لوالدته.

أما في الحملة الأخيرة التي حصدوا فيها معظم أصدقائه؛ فإنه بعد أن نزل من الشقة لم يستطع أن يعود إليها مرة أخرى، كما لم يقدر أن يرجع لبيت الأسرة في حي الظاهر الذي

تركه منذ أول العام الدراسي؛ خشية أن يأتي البوليس للقبض عليه فيقلب الشقة رأسًا على عقب ويهين أهله. كان عادل يشعر بغرابة موقفه إزاء السلطة.. إنه غير منتمٍ لحزب أو لجماعة أو نقابة عمالية أو حركة سرية، وهذه الكيانات -على أي حال- تضمن لأعضائها شيئًا من الرعاية إذا اعتقلتهم السلطة، فهم يتكفلون بتدبير المحامين ومتابعة الزوجات والأبناء، وتزويد المسجون بالطعام والكتب، فضلًا عن شد أزره وإشعاره بأنه جزء من كيان محترم يستحق التضحية، أما عادل عبد العزيز فهو على خلاف هذا كله، فلقد كان متمردًا منفردًا لا ينضوي تحت أي علم.. كان يجلس مع الناصريين والشيوعيين والليبراليين ومع كل من يقول «لا» دون أن يكون ملتزمًا بقواعدهم أو منظمًا بضوابطهم، وكان كل نشاطه هو مجالات الحائط والسهر أحيانًا في «خوش قدم» عند نجم والشيخ إمام، مع دعوتهم للحضور إلى الجامعة من وقت لآخر؛ لهذا فقد خشي إذا دخل السجن ألا يجد من يتبنى قضيته أو يسعى لإخراجه!

طاف كل ذلك بخيال عادل وهو يخطو خطواته الأولى خارج مطار فيينا، وتذكّر أنه نجح في الخروج من مصر بمعجزة بعد أن علم أن مصلحة الجوازات لن تستخرج له جواز السفر المؤقت الذي يمنحونه للطلبة الراغبين للسفر في الصيف، والأنكى أنهم ألقوا القبض على بعض أصدقائه الذين تقدموا بطلب الجواز. افتر وجهه عن ابتسامة وهو يشعل سيجارة ويستنشق مع دخانها هواء فيينا المنعش.. كانت ابتسامة سخرية وهزه عندما استدعى في خياله إجراءات عمل الجواز المزور.. في الحقيقة لم يكن الجواز مزورًا.. كان جوازًا حقيقيًا؛ باستثناء أن صورته هو وُضعت مكان صورة صديقه عادل عبد الرحمن! ما المشكلة في عادل عبد الرحمن بدلًا من عادل عبد العزيز؟ الحقيقة أن صديقه السكندري عادل عبد الرحمن الذي التقاه في رحلة الأقصر وأسوان منذ عامين وتبادل معه اللقمة والسيجارة كان رجلًا بمعنى الكلمة.. لم يكتفِ بمنحه اسمه وجواز سفره فقط، لكن آواه وأسكنه معه في بدروم البيت في العصابة، ثم قدّم له خمسين دولارًا أخذها من أبيه تاجر العملة. لقد ظن عادل أنه بابتعاده عن بيت الأسرة قد جُتّبها هجمات البوليس، ولكن حساباته كانت خطأ؛ إذ علم وهو يطمئن على أمه بالتليفون أن أثاث المنزل قد تحطم بعد أن قلبوه رأسًا على عقب،

وأن أباه قد عاد إلى البيت بعد أن اصطحبوه معهم إلى أحد المقرات واستجوبوه معصوب العينين؛ عسى أن يظفروا منه بمعلومات، فلما أيقنوا من عدم ارتباطه بنشاط ابنه أطلقوا سراحه فعاد إلى البيت وهو لا يكاد يقوى على السير!

في تلك الفترة كانت النمسا أرحم من غيرها، فلم ترض بتأشيرتها على الطلبة المصريين، وإليها شد عادل الرحال ومعه خليط من شباب مصر، فمنهم الطلبة ومنهم الحرفيون ومنهم العواطلية. نظر عادل إلى الواقفين معه على الرصيف وتساءل: كم واحدًا من هؤلاء سيعود بعد انتهاء الصيف ليلحق بالجامعة، وكم منهم سيبقون معه بلا عودة بعد أن ضاعت عليه السنة ورسب نتيجة عجزه عن الذهاب لامتحان السنة الأخيرة خشية القبض عليه.. من الواضح أن البقاء بالنمسا سيطول حتى تتغير الظروف أو يرحل السادات.. كل ما عليه ألا يستفز السلطات النمساوية ولا يُشعرها بوجوده؛ حتى يتركوه في حاله ولا يعيدوه إلى مصر.

وقف على الرصيف يتطلع إلى الباصات عندما تقدّم منه شاب مصري كان معه بالطائرة، قدّم له سيجارة وقال: أنا سيد.. من ميت بدر حلاوة. سلم عليه وقال: أنا عادل من القاهرة. بدت على وجه سيد الدهشة، لكن قبل أن ينطق جاء الأوتوبيس الذي يتوجه إلى وسط المدينة فصعد إليه الجميع بحقائبهم. طوال الطريق كانت عينا عادل مفتوحة على اتساعها متأملًا المدينة البديعة.. سحر فترة الباروك مرتسمًا على مبانيها حتى لكأنها متحف مفتوح. سار الأتوبيس طويلاً حتى توقف في منطقة «فين ميتا» بجوار فندق هيلتون، وأعلن السائق في الميكروفون عن نهاية الخط. نزل عادل يجر حقيبته ثم مال بها إلى نهاية الرصيف وجلس فوقها ثم أشعل سيجارة. اقترب منه سيد الذي كان محتارًا بينه وبين مجموعة من الطلبة المصريين كانوا على بينة من أمرهم يعلمون جيدًا إلى أين يتجهون، ويبدو أنهم لم يرحبوا بسيد؛ فتوجه من فوره إلى عادل الذي ضحك وقال: زحلقوك يا أبو السيد؟

قال سيد: هذه أول مرة أسافر في حياتي. صمت قليلاً ثم توجه إلى عادل بالسؤال: هل سافرت من قبل؟ أجاب: لا.

ساد بينهما الصمت، ثم قطعه سيد: قل لي أين يمكننا أن نسكن؟ ثم أردف موضحاً: أنا أحتاج لليلة واحدة فقط حتى يأتي أقاربي من ميت بدر حلوة غداً أو بعد غد؛ ذلك أنهم سافروا إلى مصر لقضاء إجازة بالبلد ثم يعودون إلى عملهم بالنمسا. قال عادل: ما حكاية ميت بدر حلوة هذه؟ رد سيد: عدد كبير من سكان بلدتنا يعملون بالخارج، وغالبيتهم استقروا في العراق، إلى جانب عدد معتبر منهم يعيش هنا في النمسا يبيعون الجرائد.. قال سيد هذا، ثم أضاف متسائلاً: هل أنت طالب؟ أجاب عادل: وهل أبدو شيئاً آخر؟ رد سيد: تبدو أكبر قليلاً من الطلبة، لكن شكلك فعلاً طالب ويداك ناعمتان. قال عادل في ضيق: وماذا عن يديك أنت يا أبا الفوارس؟ فأراه سيد يدين كبيرتين معروقتين يميل لونهما للحمرة، وأظافرهما مصبوغة بلون بني. قال عادل متهكماً: هل كانت ليلة الحنة خاصتك أمس؟ أجاب سيد: أنا إستورجي يا أستاذ، أقوم بدهان الموبيليا. شعر عادل بالخجل من تهكمه على رفيق السفر، لكنه مد يده إلى أبو السيد وقام الاثنان متوجهين إلى أحد الفنادق الصغيرة القريبة في «لاند شتراسه» وأخذوا غرفة بسريرين. احتل كل منهما سريره، ثم جلسا يشاهدان التلفزيون الذي كان يبث باللغة الألمانية.

قال سيد في حسرة: يا بختك يا عم، طبعاً تفهم ما يقولون؟ ضحك عادل بشدة: أنا لا فهم أي كلمة مثلك تماماً. أبدى سيد ملحوظة بصوت خفيض عن خيبة المدارس والجامعات التي تقوم بتخريج «كواحيل» لا يفترقون عنه هو الذي لم يدخل مدرسة!

قام سيد بتغيير القناة فلم يجد شيئاً يعجبه؛ فقال في تشاؤب: هل قلت لك إنني من ميت بدر حلوة؟ رد عادل ضجراً: قلت هذا حوالي ستة عشر مرة. مد سيد رأسه من تحت الغطاء وألقى بسؤال: ومن أي بلد أنت يا أستاذ يا متعلم يا من تشاهد التلفزيون يتحدث بالأفرنجي ولا تفهم ما يقول؟ رد عادل وقد بدأ يستاء من هذا الرفيق المزعج: سبق أن قلت لك إنني من القاهرة. ضحك سيد: وهل هناك في الدنيا أحد أصله من القاهرة؟ كل

واحد في النهاية له أصل من الأرياف سواء من الصعيد أو وجه بحري. قال عادل: ولماذا لا تتصور أن المنطقة من شبرا الخيمة حتى حلوان، ومن التحرير إلى مصر الجديدة والتي تضم أحياء كثيرة جدًا يمكن أن تكون موطنًا يعيش به البشر ويتناسلون جيلاً وراء جيل، ومن ثم ينتسبون إلى المكان؟ ضحك سيد في مكر قائلاً: أنت تريد أن تضحك عليّ وتظنني لا أعرف أن القاهرة ليست موطنًا أصليًا لأحد.. من أين أنت بحق يا رجل؟ شعر عادل باليأس فاستسلم قائلاً: برافو عليك يا عفريت، أنا فعلاً من خارج القاهرة.. صحيح أنا مولود في الظاهر، وكذلك أبي وجددي وجد جدي، لكننا في الأصل من بلدة أخرى بعيدة. بدت على وجه سيد ابتسامة المنتصر وسأل في تهكم: وما اسم بلدكم يا سيدي؟ قال عادل: أنت قلت لي إنك من ميت بدر حلاوة.. أما أنا فمن «ميت بدر كنافة». وجم سيد لثوان، ثم علا صوته مستنكراً: ماذا؟ بلدكم اسمها ميت بدر كنافة؟ رد عادل في هدوء: نعم، ميت بدر كنافة، ثم محذراً: هل رأيتني أبدي دهشة من ميت بدر حلاوة؟ إياك أن تتهكم على اسم بلدتنا التي ينحدر منها أكابر البلد، ومن جانبي لن أجيبك عن أي أسئلة أخرى. قال هذا ثم سحب اللحاف، وغطى وجهه وهو يخفي ضحكاته في الغطاء، ثم ما لبث أن سرح في هذه الرحلة، وفكّر فيما ينتظره فيها، وقرر أن يتخلص في الصباح من صحبة سيد الذي بدا له شخصاً ينتمي إلى دنيا بعيدة كل البعد عن دنياه. لم يكن عادل ينزعج من البسطاء أو غير المتعلمين، لكنه كان حساساً من الريفيين، وبالذات القادمين من قرى الدلتا، ويبدو أن تجربته في الجامعة والسييل الجارف من الطلبة المخبرين الذين كانوا يكتبون التقارير فيه وفي زملائه، ويقدمونها للأمن لقاء عشرة جنيهات شهرياً- طبعت آثارها عليه. هو لا يدري إذا كان الأمر من قبيل الصدفة أو إنه قاعدة، لكن جميع المخبرين بكليتهم والكليات المجاورة كانوا من سكان المدينة الجامعية المغتربين وكلهم من الأرياف، ومن الصدف أيضاً أنهم كانوا في غالبيتهم من وجه بحري، ولعل هذا قد أحدث داخل نفسه تقسيمة وتصنيفاً للناس؛ إذ كان يرحب بالصعايدة الذين يعدّون الوشاية عاراً يمس العزة والشرف، يرحب كذلك بالإسكندرانية الجدعان، وقبل هؤلاء جميعاً أهل القاهرة من سكان الظاهر وباب الشعرية والجمالية والوايلي والعباسية والزيتون والمطرية وعابدين والدرب الأحمر وغيرها من الأحياء التي لا يبيع الواحد من أهلها زملاءه أو يسلمهم للأمن.

طاف كل هذا بباله بينما يتأمل حاله مع صاحب السرير المجاور. لقد شعر بقدر من الإشفاق على سيد الذي قد يكون مظلومًا في التصنيفة المُعتمَدة لديه للبشر، ومع ذلك قرر الابتعاد عنه في أقرب فرصة!

(2)

في الصباح بعد أن تقاسم دفع حساب الغرفة مع سيد الإستورجي، عبّر الرصيف إلى الجهة المقابلة عند محطة قطار الضواحي، وتعجب عندما عرف أن فيينا ليس بها مترو أنفاق أسوة بلندن وباريس وبرلين، وأن الترام هو الوسيلة الأساسية للانتقال. ذهب بناءً على نصيحة موظف الفندق إلى مكتب الأمانات الذي تُوَصَّع به الحقائب مقابل ثلاثة شلنات في الليلة الواحدة، وسلمهم حقيبته فتخلص بهذا من عبء ثقيل، وشعر أنه أصبح خفيفًا يمكن أن يتنقل بسهولة. ركب الترام الأحمر على غير هدى، وجلس بجوار الشباك يتطلع إلى اللافئات والأسماء الألمانية، وتذكر سيد الإستورجي الذي سخر منه لأنه لم يفهم ما يقولون في التلفزيون. نزل في قلب ميدان كبير اسمه ميدان «أوروبا بلاتز»، وتنقّل من رصيف إلى رصيف حتى وجد محطة القطار الغربية تواجهه واسمها «وست بانهوف»، فدخل إلى المحطة واكتشف بالصدفة أنها المقر الرسمي للمصريين الذين بلا سكن وبلا عمل؛ حيث وجد منهم أعدادًا كبيرة تفترش الدكك والمقاعد الخشبية داخل المحطة المليئة بالمطاعم والحوانيت والأكشاك. لم تكن هذه المحطة تتوسط المدينة، ومع ذلك كانت لها شهرة تفوق المحطة الرئيسة المسماة «هوت بانهوف»، وذلك بسبب قربها من شارع ماريا هلف، الشارع التجاري الأشهر في فيينا.

اقترب من كشك يبيع سندوتشات عجيبية اسمها «هوت دوج» واشترى واحدًا. لم يكن له عهد بهذا النوع من الطعام في بلده.. كان يعرف السجق الذي يبيعه الجزار، كما كان يعرف الممبار البلدي الذي يبيعه المسمط، أما هذا فشيء آخر. أعجبه السندوتش بشدة؛ فاشترى واحدًا آخر وجلس يأكله بتلذذ. اقترب منه أحد الشباب محيياً، وجلس إلى جواره دون

استئذان، ثم باغته قائلاً: واضح أن سندوتشات «عضو هتلر» قد أعجبتك كما سبق أن أعجبتني. التفت إليه في دهشة: عضو هتلر؟ أجاب: نعم، هذا هو الاسم المصري لسندوتشات الكلاب الساخنة. ضحك عادل لاختراعات المصريين اللفظية التي يسخرون بها من كل شيء في الوجود. قال الشاب محدثاً عادل: أراك تأكل في استمتاع، لكن هل تراك تعلم أنه من لحم الخنزير أو أن أحداً لم يخبرك؟ ما كاد عادل يسمع اسم الخنزير؛ حتى ألقى بالسندوتش في فزع وقام فتقياً ما أكله عند سلة قمامة، وعاد محبباً فجلس بجوار الشاب، وقال له: لا أدري هل أشكرك لأنك بصرتني بطبيعة السندوتش أو ألعنك لأنك حرمتني من تكلمته وقد كان لذيذاً؟!

قال الشاب: عجيب أمركم معشر الشباب، كلكم تقريباً تشربون وتسكرون وتعربدون، وأول ما تبحثون عنه في الغربية هو محال السكس، لكن عندما يتعلق الأمر بالخنزير فإنكم تبدون التأفف والورع!

قال عادل: أعتقد أن المسألة بالنسبة للخنزير لا تتعلق فقط بالحلال والحرام قدر ارتباطها بالقرف من الخنزير، ذلك القرف الذي غرسه المجتمع منذ الصغر بالحديث عن قذارته واقتياته على الزبالة، فضلاً عن الدودة الشريطية التي تنغرس في أمعاء آكليها.

ضحك الشاب قائلاً: هل ما زلتم تصدقون حكاية الخنزير القذر والدودة الشريطية؟ إن الخنازير تعيش هنا يا عزيزي في حظائر واسعة نظيفة جيدة التهوية يتمنى الواحد منا أن يسكن مثلها، وهم يقدمون لها الطعام الطيب والشراب بوفرة يحسداهم عليها ثلاثة أرباع شعبنا الجائع، كما تحظى برعاية صحية لا يحلم أمثالنا بالحصول عليها، لا هنا في النمسا ولا في الوطن بمصر.. وبعد ذلك تتبجحون بالحديث عن الخنزير وقذارته.. جتنا ستين نيلة!

نظر عادل إليه ضاحكاً، فقدّم الشاب نفسه قائلاً: محمد أبو الفتوح.. من كلية الهندسة جامعة عين شمس. مد عادل يده مصافحاً: عادل عبد العزيز من كلية الإعلام جامعة القاهرة.

اعتدل محمد في جلسته قائلاً: وبمناسبة الحديث عن الخنزير؛ هل تعلم أن تحريم الخنزير والخمر وتحريم أي شيء آخر هو نفسه المعادل الموضوعي للتحذير الذي يقوم التلفزيون بإذاعته على أيامنا هذه.

هز عادل رأسه مستفهماً؛ فقال محمد: الإنسان العاقل المتنور يكفي أن تشرح له الأمر بكلام واضح حتى يعقل ويفهم، مثل أن تقول له إن إتيان المرأة وقت الدورة الشهرية ضار بالصحة؛ لأنه قد يحمل الجراثيم والبكتيريا الضارة إلى داخل جسم الرجل، وهذا الأمر يفهمه كل البشر، المتدين منهم والملحد على السواء، لكن الجاهلي الغشوم لم يكن في الإمكان حمله على الانصياع دون تخويله بدخول جهنم.. أنت تتحايل على جهله وتستعيب عن إفهامه بإخافته وترويعه! نظر إليه عادل في دهشة، فأكمل: والأمر نفسه بالنسبة للخنزير الذي كان يعيش حياة قذرة ويأكل الزبالة، وقد تبين للناس من خلال التجربة والخبرة أن من يأكلون لحمه يمرضون ويموتون، ومع ذلك لو أنك اكتفيت هنا بالتحذير لما استمع إليك أحد، لكن عندما يأتي التحذير من أكل الخنزير مشفوعاً بالتهديد بدخول النار فإن الأخ سوف يرتدع دون أن يهتم بالأسباب وحسبه أنه أمر إلهي.

قال عادل: يمكنني وأنا مغمض العينين أن أحدد أنك من أهل اليسار الشيوعي.. هذا يبدو من تنظيراتك المغلفة بالمنطق. أطلق محمد ضحكة عريضة، فأكمل عادل: لقد سمعت مثل هذا الكلام من مفكري اليسار الشيوعي الذين يرون أن الأوامر والنواهي والتكاليف؛ كالصلاة، والصيام، وغيرها هي للجهلاء وضعاف العقول فقط، أما المتعلمون والناهبون فهم يعرفون الصح والخطأ دون وعد بالجنة أو وعيد بالنار.

رد محمد: لست منضماً لحزب أو لحركة، لكن والذي كان من عمال المصانع الذين تأثروا بالفكر الماركسي، ولهذا فقد انضم لحركة حدثت وأصبح من زبائن الزنازين الدائمين؛ حتى إنه مات بالسجن وتركتني مع أمي وأختي نصارع الحياة. قال محمد هذا ثم قام مبتعداً دون استئذان، وأخذ جولة داخل المحطة. كان عادل يتابعه في فضول وهو يسير في بطء في أروقة المحطة حتى عاد وجلس بجانبه من جديد. ابتدره عادل: هل ينفع أن أسألك لماذا

كنت تتحدث معي ثم تركتني وقمت فجأة؟ قال محمد: لأنني لم أشأ أن أترك نفسي للحديث فأبوح عن حياتي بأكثر مما قلت.

شخص عادل ببصره إلى الأمام، وتفرد في محمد مليًا قبل أن يقول: لست بحاجة لقول المزيد، فنحن ندفع أثمانًا لحياة لا نفهمها، ولو فهمناها لفقدنا إنسانيتنا وملأنا البطون. قال محمد: أنا أريد أن أفقد إنسانيتي ولا أبيت جائعًا.. هل لديك طريقة، بل هل لديك طريق؟ صمت عادل ولم يجر جوابًا، أما محمد فأشعل سيجارة، ثم قدّم واحدة لعادل وهو يقول: يبدو أن حكايتك حكاية.. خذ سيجارة، لكن لا تتعود هذا.. هذه السيجارة تحية أول تعارف، لكن بعد ذلك كل واحد يدبر سجائره بنفسه.

رد عادل وهو يشعل السيجارة: تعجبني صراحتك يا أخ عفركوش، وسوف أرد لك السيجارة في أقرب فرصة؛ حتى لا أترك تقاسي الحسرة.

- ليس لدرجة الحسرة يا أخ عفركوش، لكن القرشينات قليلة، وبعض الكرم في الغربة شديد الضرر.
- يقول أبو فراس الحمداني: ولم يُثنني عن الكرم الفقر.
- قد لا أجاريك في الأشعار، لكن أبو فراس لم يبع جرائد في النمسا ولم يجرب شظف العيش في مصر.. أنا هنا منذ شهر ولم أعمل سوى يومين في بيع الصحف، أخذت مؤقتًا مكان أحد البائعين في أثناء إجازته، ثم عدت للبطالة من جديد.
- ربنا يستر فيما هو قادم.
- شكلك غلباوي يا عادل يا عبد العزيز، وتختلف عن العيال الذين يجلسون حولنا.. أراهن أنك شاركت في مظاهرات 18 و19 يناير.
- تقصد انتفاضة الحرامية؟

ضحك محمد: هكذا سماها الرئيس شحاتة المعسل. شاركه عادل الضحك مجيبًا: نعم، شاركت وأخذوني من الجامعة، وقضيت عدة أيام في ضيافتهم قبل أن يتركوني.

- أنا أيضًا كنت مع المتظاهرين وقد أخذوني من البيت؛ لأنهم يعرفون البيت جيدًا، ولطالما زارونا في مسكننا البائس لأجل والدي، لكن بعد أن تركوني تنبتهت إلى حماقتي وأخذت على نفسي عهدًا أن أدعهم لحالهم حتى يتركوني لحالي؛ لهذا فقد كنت في أثناء المظاهرات التي خرجت ضد زيارة السادات للقدس جالسًا في صفوف المتفرجين، وتوبة لو أظهرت اهتمامًا بالشأن العام مرة أخرى.. هناك أشياء أولى.. لقد مات أبي كمدًا وتشردت أسرته، ولم تكسب مصر شيئًا.
- من المؤسف أن تصل لهذه النتيجة مبكرًا هكذا، ومع ذلك فلست أصلح في دور الناصح.. إنني لا أتفق معك لكني لا ألومك ولا أعتب عليك.. فقط أدعو الله أن يكشف الغمة.
- لو كانت لديه النية لكشفها لكشفها، لكن يبدو أنه لا يريد.

لم يُعقَّب عادل، لكنه شعر بارتياح إلى محمد الذي بدا مثقفًا ودودًا مثقلًا بالآلام، وتذكَّر سيد الإستورجي الذي تركه هذا الصباح على رصيف الفندق، ولم ينجح في طرد فكرة أن سيد من الممكن أن يبيعه للأمن النمساوي!

شد عادل نفسًا عميقًا من سيجارته، وقال: تعرف يا أبو الفتوح إن كلامك عن الخنزير به وجهة، ومع ذلك لا أنصحك بترديده أمام أصحاب اللّحى الذين بدأت طلائعهم في الظهور بالجامعات، وأصبحوا يتخذون منا خصوصًا بعد أن كانت الحكومة هي خصمهم في السابق. قال محمد هازنًا: لا تخف، أنا أنتقي زبائني بعناية، أما أصحاب اللّحى فإن السلطة كانت خصمًا لهم عندما كانوا مناوئين، أما الآن فقد أصبحوا حلفاء، وهم في حقيقتهم وكلاء لجهات حجرية، لا تريد لنا الخير وتدفع بسخاء من أجل إهانة مصر وتركيعها، وللأسف السلطة لدينا ترحب بفلوسهم وأفكارهم، وهي التي أحيت الجماعات التي تراها الآن بالجامعة تستخدم السلاسل والجنازير في تكسير العروض المسرحية والغنائية ومعارض الفنون، وهي التي شجعتهم على الظهور ووفرت لهم الحماية وأوسعت لفكرهم التكفيري مساحات واسعة بالتلفزيون،

وجعلت من رجالهم نجومًا على الشاشة جُل اهتمامهم هو إقناع الناس أن الهزائم والوكسات التي وقعت على رءوسنا كانت بسبب البعد عن الله.

قال عادل: أنا أتصور أن البعد عن الله له يد في خيبتنا فعلاً، لكن البعد عن الله الذي أقصده هو معاداة الديمقراطية، وتجاهل البحث العلمي، والواسطة والمحسوبية، وعدم الأخذ بالأسباب، هذا هو البعد عن الله الذي يجلب الهزائم لأي أمة.

رد محمد: لكن هذا النوع من تفسير أسباب الخيبة لن يلقى آذانًا مصغية وسط الغوغاء؛ لأن البعد عن الله الذي يعنونه هو عدم ارتداء الجلباب الباكستاني، وعدم إطالة اللحية، زائد كلفتة النسوان في الأثواب والأقمشة السوداء، وكذلك الكف عن اقتضاء الجزية من المسيحيين، والتوقف عن سبي النساء وتوزيعهن على المؤمنين ليمارسوا معهن الجنس الحلال!

سرح عادل في كلام الصديق الجديد، ثم تمتم كأنه يُحدِّث نفسه: ربنا يستر مما سنراه في قابل الأيام.

ساد بينهما صمت قطعه محمد قائلاً: خلاص.. حصة الفلسفة انتهت.. هل نقوم لنبحث عن أكل العيش؟

قام عادل وصديقه الجديد محمد أبو الفتوح بالتوجه إلى مقر جريدة «الكوريير» الواقعة بالحي السادس من مدينة فيينا على مقربة من شارع «ماريا هلف»، وهو المشوار اليومي الذي يقطعه الطلبة المصريون للوقوف في طابور؛ حتى يتم الانتقال من بينهم للعمل في بيع الجرائد. للأسف لم يكن لهما حظ.. ربما في يوم آخر. لم يشأ محمد أن يمضي اليوم بلا فائدة؛ فأخذ رفيقه إلى الجريدة الأخرى المنافسة، واسمها «كرونن تسايونج» وتقع بالحي التاسع عشر، وكان المصريون -توخياً للراحة-

يسمونها «الكرونا». ركبا الترام فقطع بهما طريق الجيرتل حتى وصلا لمقر الجريدة، وفي الخلف من واجهتها يوجد مبنى خاص بالتوزيع هو الذي يؤمه المصريون العاملون ببيع الجرائد، وكذا الباحثون عن فرصة للعمل. كان المكان يغص بالمصريين من ذوي الجواكت الفسفورية المكتوب عليها اسم الجريدة، وبصحة كل منهم جرائده المرتجعة التي لم تجد زبائن. من الدروس التي فهمها عادل بالنسبة لآلية بيع الجرائد أن كل ناصية أو إشارة مرور تكون لها قوة محددة يعرفها المسئولون الإداريون الذين يُشرفون على باعة الصحف من خلال الأبحاث والإحصاءات، فمثلاً ناصية مهملة في ضاحية بعيدة لا تعبرها الكثير من السيارات قد يخصصون لصاحبها أربعين جريدة في اليوم، بينما مكان ثابت في قلب سوق الفاكهة والخضر قد يخصصون لصاحبه خمسمئة نسخة، وعرف عادل أيضًا أن هذه الأماكن المميزة كان يحتكرها زمرة من «المعلمين» المصريين الذين أتوا منذ سنوات واستقروا في فيينا وصاروا من أباطرة المهنة. لم يكن من الصعب على عادل ومحمد أبو الفتوح أن يتعرفا -وسط هذا الجمع الكبير- إلى الأسطوات الكبار.. كانت أشكالهم واضحة وسلوكهم يتسم بالوقاحة والصخب والتهريج المستمر. لم يكونوا يقفون في طابور تسليم المرتجع مثل غيرهم، وإنما لهم تجمّع خاص بهم، وقد ظهر واضحًا أن علاقتهم بالرؤساء النمساويين كانت وطيدة. ومن همسات البائعين الصغار فهم عادل أن هؤلاء المعلمين موضع حسد من جانب الصغار؛ لأن أماكنهم المميزة تجلب لهم المال الوفير، ومع ذلك كانت الملحوظة الواضحة بشأنهم هي الجهل.. كانوا من غير المتعلمين الذين غادروا الوطن بعد أن أحرقوا المراكب خلفهم دون نية للعودة، وكيف يعودون وجانب معتبر منهم هارب من أحكام جنائية؟ لفت نظر عادل من بين هؤلاء المخضرمين شخص ذو رأس كبير اسمه «عبده بيتا» أو هكذا كان أصدقاؤه ينادونه، ووجد أن البائعين الجدد يتوددون لهذا الشخص؛ أملًا في أن يسعى لدى الإدارة النمساوية لتقوم بتبديل أماكنهم البائسة إلى أماكن أرقى يستطيعون فيها أن يبيعوا جرائد أكثر، لكن المفارقة أن أصدقاء عبده بيتا لم يترددوا في السخرية منه، مع إفهام ذوي العشم الذين يأملون في عبده بيتا خيرًا أن هذا الرجل -رغم مرور سنوات

على وجوده بالنمسا- لا يعرف من اللغة الألمانية سوى كلمة «بيتا»، ومعناها: من فضلك، ولذلك فقد التصقت به وصارت ضمن اسمه!

رجع عادل مع محمد إلى محطة «ويست بانهورف» بعد أن أخفق كلاهما في الحصول على عمل؛ بالرغم من قضاء اليوم بأكمله في الطابور. العجيب أن الموظف النمساوي الذي تحدث معهما قال لهما بالعربية المصرية: «ما فيش مكان».

14 يونيو 1978 جريدة السفير اللبنانية:

- هجوم كتائبى اغتال طونى فرنجية وزوجته وطفلتها.
- 1500 مسلح اقتحموا أهدان وبشير الجميل يتهم أهالى بشرى وعناصر فردية.
- الانسحاب الإسرائيلي: 23 موقعاً للميليشيات و14 للقوات الدولية.

29 يونيو 1978:

- مع بدء تنفيذ الخطة الأمنية وانتشار الجيش فى كسروان والردع فى الشمال 26 قتيلاً فى البقاع.
- الردع: قوة مسلحة ارتكبت كارثة فى القاع ورأس بعلبك والهرمل وجديدة الفاكهة.

ثانياً

(1)

خرجت نادية من باب الجامعة، ووقفت على الرصيف ثم استدارت ورفعت رأسها إلى الالافنة الخضراء التي تزين المبنى: جامعة فيينا. داخلها شعور بالزهو ممزوج برعشة مَنْ حقق حلمه بدخول الجامعة بعد أن ضاعت ثلاث سنوات عقب الرحيل من بيروت، أو لنقل الهروب من بيروت وسط قصف الرشاشات وأصوات دانات القنابل التي انفجرت في كل مكان حتى طالت منطقة الوزان؛ حيث كانت تعيش مع أسرتها. لقد شنت الحرب الأهلية عائلة ضرغام كما فعلت بعائلات كثيرة انتشر أبناؤها في أرجاء الأرض. الآن تشعر أنها قدمت لأبيها هدية طالما حلم بها عندما أخبرها وهي طفلة بأهمية دخول الجامعة حتى تكتمل إنسانيتها. كان التوصيف غير مفهوم بالنسبة لطفلة صغيرة ولا يزال غامضاً؛ بالرغم من كونها أصبحت شابة تدرس وتعمل وتعيش مع والدتها وزوج أمها النمساوي اللعين.

لا بد أن والدها كان يحلم لها بالانعتاق من المصير الذي تلقاه بنات الوطن غير المتعلمات بعد أن غدا مصير صاحبات الشهادات أنفسهن مُعلَّقات بيد أمراء الحرب. نظرت إلى باب الجامعة مرة أخرى وهي تفكر في الكورس الصيفي الذي تتلقاه متسائلة: هل هذا المبنى وما أحصله داخله هو الذي سيكمل إنسانيتي؟ يمكن!

عبرت نادية الطريق وسارت متوجهة إلى الحديقة الصغيرة بميدان «كارلس بلاتز» وهي لا تزال سارحة في أفكارها. مر بخاطرها مشهد مقتل والدها وعمتها أمام عينيها وهو مشهد لم يفارق مخيلتها أبداً، وكان القاتل -يا للغرابة!- أونكل نبيل.. الجار الودود الذي حملها وهي صغيرة واشترى لها الشيكولاتة. لقد فقد الأستاذ نبيل نقولا زوجته على يد مجرمين طعنوها بالسكاكين، ولم يكن لوالدها المسالم دخل أو علاقة بالقتلة، إلا إذا اعتبرنا أن

شراءهم السجائر من كشك عم ضرغام هو علاقة تجيز إدخاله في دائرة الانتقام! كانت نادية تحلم بيوم لا يمر بها هذا المشهد.. هي لا تريد أن تنسى أباه، لكن تأمل في أن يتوقف مشهد القتل عن القفز أمامها دون أسباب أو مقدمات ساعة يشاء!

توجهت إلى مقعد خشبي كبير تجلس عليه صديقتها مادلين وتونيا، فأفسحت بيديها مكاناً بينهما، ثم ألقت نفسها في حضنيهما. كانت الفتيات يدرسن معاً الأثرولوجيا الحضارية بالجامعة، وقد جمع بينهن حب القراءة والميل للصمت. من العجيب أن الأرواح يمكن أن تتصادق على وقع الصمت مثلما يمكن لها أن تتألف وسط الصخب والهتاف. شيء آخر جمع بينهن هو عدم الاندماج في العلاقات الجنسية المفتوحة بلا حدود بين الطلبة والطالبات في الجامعة. نادية هي الوحيدة بينهن الآتية من بعيد.. من لبنان، أما تونيا ومادلين فنمساويتان حتى النخاع، وكانت تجمعهما المدرسة الثانوية في السابق قبل أن تلتقيا بالجامعة وتضمن إيهما اللبنانية الهادئة التي أتقنت الألمانية في سنوات قلائل، حتى ليظن السامع أنها من منطقة «التيروول»، وهي منطقة تلاصق جبال الألب؛ حيث أتت منها الأستاذ الذي تلقت على يديه دروس الألمانية.. وكان تعليم اللغة من أولويات وكالة الإغاثة والهجرة التي تولت نقل نادية وأمها من بيروت المشتعلة، وبهذا فقد أضيفت الألمانية إلى العقد الذي جمعت فيه نادية بين الفرنسية والإنجليزية والعربية التي أتت بها من بيروت.

قالت تونيا: ما قولكم لو نأكل سندوتشات «شنيترز» ونشرب البيرة في أي مطعم مجاور. ردت نادية: أنا بصراحة لا أفهم غرامكم يا نمساويين بهذه الأكلة، حتى إنكم تتخذونها رمزاً للطعام النمساوي وتملؤون الشوارع بإعلاناتها، بينما هي مجرد شرائح لحم مغموسة في البقسماط اسمها عندنا في لبنان سكالوب وفي مصر يسمونها بفتيك. بادرتها تونيا: هل زرت مصر يا نادية؟ أعتقد أنكم تتحدثون نفس اللغة.. لكم أود أن أكمل دراستي في مصر وأحظى بفرصة الغوص في التاريخ الفرعوني! نظرت نادية ناحية مادلين قائلة: وعندك هنا واحدة عبيطة تظن أنها ستلتقي بإخانتون في مطار القاهرة وستجد المصريين يتحركون بالعجلات الحربية وينحتون المعابد بعد مسلسل الساعة التاسعة كل يوم! ضحكت

صديقتها، فأكملت: نفس ما يتصوره البعض عن لبنان الفينيقية التي ستسحرهم، بينما يلتقطون الصور بجوار صخرة الرّوضة. قالت مادلين: لقد استغرقنا في السفسطة وبعُدنا عن الطعام.. ماذا تأكلون؟ ردت نادية: بصراحة يا جماعة أنتم مطبخكم فقير للغاية، وخياراتكم محدودة وتأكلون البطاطس كل يوم بمظنة أن هذا هو الطعام؟

انبرت تونيا معترضة: هل تسجيلين شجبك للبطاطس وتتحملين رد فعل المجتمع النمساوي الذي هو شعب الكارتوفيل العظيم؟ قالت نادية: إني أسحب تعليقي ضد الكارتوفيل (البطاطس بالألمانية)؛ حيث إن شعب الكارتوفيل هو كل ما أملك الآن بعد أن فقدت وطني. قالت مادلين: لا، لا.. هذا حديث عن الطعام لا عن الأوطان، لا تقبلوها دراما بالله عليكم. قالت هذا وأردفت: تعالي هنا يا أميرة الشرق، أنت تسخرين من طعامنا، وتمتدحين مطبخكم اللبناني العامر، بينما لم تدعينا للأكل في بيتكم بعد.. ماذا تنتظرين؟

طال انتظار الإجابة، لكن نادية بدلاً من أن ترد غرقت في الصمت، ثم تبعتها صديقتها لما يقرب من ربع ساعة. من الواضح أن الثلاثي يستكملن الحوارات في داخلهن بعد أن يحل الصمت، ثم يعدن إلى الحديث بعد أن ينتهي حوار الداخل!

(2)

تساءل عادل: هل سنقضي الليل هنا بالمحطة أو أن لديك خططًا أخرى؟ أجاب محمد: المحلات والأكشاك بمحطة القطار تغلق قبل منتصف الليل ويصير صعبًا المبيت داخل المحطة، لكن من الممكن أن نجمع بعض صناديق الكرتون ونفترشها في الحديقة المجاورة.

قضى عادل الليالي الثلاث التالية بصحبة صديقه الجديد.. بالنهار يقفان بالطابور في مقر الجريدة في انتظار فرصة للعمل ببيع الجرائد، وفي الليل يهجع إلى جواره على فرشة كرتون في الحديقة خلف محطة القطار. لم تكن الحديقة خالصة لهما وحدهما، وإنما كانت تعج بوطاويط الليل من المشردين الذين كان جوارهم لا يبعث على أي طمأنينة.

في الليلة الثالثة كانا نائمين في أمان الله داخل دغل صغير يحجب رؤيتهما من خارجه عندما جلس على دكة قريبة من رأسيهما مجموعة من الشباب الأتراك يلعبون الورق، وكان من الواضح أنهم يقامرون. صحا عادل على أصواتهم الصاخبة واللاعنة فوجدهم يلعبون الثلاث ورقات. الغريب أنه على الدكة المقابلة على بعد أمتار قليلة كان يجلس فريق آخر هادئ رزين وقور من الأتراك أيضًا، لكن هؤلاء لم يكونوا صاخبين، إنما جلسوا في خشوع يتابعون مباراة في الشطرنج بين لاعبين انهمكا في التفكير. كان عادل من مكانه على الأرض يراقب الفريقين في صمت. بعد قليل صحا محمد وأخذ يفرك عينيه، ثم انضم للفرجة على البرتيتا المنصوبة في الحديقة. كان اللاعبون الأتراك يشربون ويصخبون دون أن يحفلوا بوجود شابين ينامان بجوار أقدامهم، ودون أن يهتموا بالبوليس الذي يمكن أن يعتقلهم بسبب إحداث جلبة في جوف الليل بالمدينة الهادئة. كان عادل يخشى البوليس خشيته للموت.. صحيح أن تأشيرته لا تزال سليمة ولم تنكسر بعد، إلا أنه خشي حضور البوليس؛ حتى لا تتعقد الأمور ويجد نفسه على طائرة تحمله إلى مصر. همس لمحمد طالبًا منه أن يرحل إلى مكان آخر بعيدًا عن هؤلاء المشبوهين، لكن الأخير كان قد انشغل بمتابعة اللعب، ثم تحمس للمشاركة في لعب الورق. قال له عادل: هل جُننت؟ هؤلاء مجرمون ولن يسمحوا لك بالفوز أبدًا. من الواضح أن حالة عناد داهمت محمد؛ فلم يستمع لأي اعتراض وأصر على المشاركة. أسقط في يد عادل، فأخذ يتابع الموقف في قلق، وشهد صاحبه يلعب ستة أدوار متتالية وفي كل مرة يخسر عشرين شلًا، ولم يحدث في أي مرة أن عرف مكان السنيورة.

دعاه الأتراك للمشاركة واللعب معهم. تردد قليلاً ثم ارتسمت على وجهه علامات الجدية قبل أن يسألهم: هل تلعبون بشرف أو أرى منكم وجهًا آخر إذا فزت عليكم؟ لكزه محمد ساخرًا: وهل تريد كلمة شرف من وطاويط الليل؟ ردد شاب منهم حديثًا مفاده أننا لا نغش ولا نسرق، ثم أكمل آخر: نحن لن نخدعك؛ لأنه يبدو عليك أنك مثلنا.. مُسلمانيش! وسأله آخر: من أي بلد أنت؟ قال عادل: من مصر.. قالها بالإنجليزية؛ فلم يفهموا، فلما نطقها بالعربية صاحوا متهللين: مسر مسر، نعرفها طبعًا.

بعد التعارف أعادوا التأكيد على أنهم لا يسرقون أي مسلمانيش! سخر عادل في سره من هؤلاء المقامرين الذين يشبهون اليهود الذين قد يستحلون السرقة من الأغيار لأنها غير مؤثمة، لكن المؤثم فقط هو سرقة اليهودي! قال عادل: لن أعب الورق وإنما سأشارك في الشطرنج. قال هذا ثم قام من على الأرض وتوجه في هدوء إلى دكة الشطرنج؛ حيث كانت تُجرى مباراة قوية أوشكت على نهايتها. بمجرد أن نظر عادل إلى الرقعة أمكنه أن يتخيل النقلات الأربع التالية التي تفصل لاعب اللون الأسود عن الفوز.

كان عادل من الموهوبين في الشطرنج منذ الصغر وله بمقاهي القاهرة صولات وجولات، ورغم أنه لم يشارك في بطولات الجمهورية؛ فقد هزم العديد من الأبطال في المنازل الليلية التي كانت تُجرى في قهوة قشتمر بالظاهر أو قهوة الشلق بالحسين.

في هذه الأثناء كان محمد قد استسلم وكف عن اللعب بعد أن زادت خسائره حتى أوشك على البكاء من سوء الحظ. انتقل محمد إلى الجهة المقابلة وجلس إلى جوار صديقه يشاهدان الشطرنج. انتهت المباراة، وعندها نظر الأتراك نحوهما في دعوة للعب.

بكم الدور؟ تساءل عادل. قال أحد الأتراك: الخاسر يدفع مئة شلن غير عشرة شلنات يدفعها اللاعبان ثمن تأجير الرقعة وقطع الشطرنج. لم يكن عادل يتمرن منذ فترة، لكن ذلك لم يمنع أنه ما زال يعرف الافتتاحيات كلها، فضلًا عن التكتيكات الدفاعية والهجومية.

سأل عادل رفيقه: هل تعرف كيف تكتب دور الشطرنج وتسجله على الورق؟ قال محمد: أعرف كيفية اللعب، لكن كتابة الأدوار أمر غريب عليّ. نظر عادل إلى الأتراك فوجدهم يقومون بكتابة الأدوار بالتركي، فصرف النظر وبدأ في المباراة مع أحد اللاعبين. لم يستغرق الأمر كثيرًا؛ فقد سجل عادل الانتصار بعد واحد وعشرين نقلة وحصل على المئة شلن. هنا برز له لاعب جديد وضح من دخلته ومعه اللون الأبيض أنه أشد مراسًا من سابقه، لكنه مُني هو أيضًا بالهزيمة. هنا بدأ الأتراك يأخذون عادل بجدية وقد أدركوا أنهم أمام لاعب خطير. أربع مباريات أخرى تناوبوا فيها اللعب مع المصري المسلمانيش فلم يخسر مباراة واحدة. اكتفى عادل من اللعب وقام ساحبًا صديقه، وبدأ على الأتراك المأخوذون

بالمفاجأة أنهم سعدوا بانسحابه، ثم قاموا وانصرفوا هم أيضًا بعيدًا عن هذا الشيطان الذي لا يخسر!

ما كادوا يبتعدون حتى سمح محمد لفرحته أن تنطلق وعانق عادل وهو يتلقى منه مبلغ مئة وعشرين شلنًا بالتمام والكمال.. قال لعادل: لنقتسم المبلغ فلم أكن أحلم باسترداد أي شيء منه. رد: ماذا نقتسم؟ لقد كسبتُ منهم ما يزيد على خمسمئة شلن.. لم أكن أنوي اللعب لكن عز عليّ أن أراهم يستغفلونك في الكوتشينة.

• لم تكن تنوي اللعب؟ لقد شخرمتهم يا رجل.. إنك تستطيع أن تجني ثروة في هذه المدينة، ثم تمادي في مدحه ومال على يد عادل فأشبعها تقبيلًا وهو يقول دعني أحب على يدك الكريمة التي أعادت لي فلوسي. قال عادل: أنا أرى أن نتوجه لمكان آخر ولا نبني في هذه الحديقة؛ لأن الأتراك بعد أن تعميهم الخمر قد يُغيرون علينا في الليل ويسرقوننا دون أن يلقوا بالأل لكوننا من فصيلة المسلمين!

خرجنا من الحديقة وسارا على الرصيف، وكانت الليلة خريفية باردة ورذاذ المطر الخفيف يتساقط فوقهما. كان امتنان محمد لصديقه الجديد لا حدود له؛ لأن خسارة الفلوس أوجعته وهو الذي يلعب في آخر نقود معه ويحتاج للشغل بشدة حتى لا يموت من الجوع أو يضطر للعودة خالي الوفاض. سأله محمد: لكن قل لي: ما كل هذه البراعة حتى كأنك وُلدت على رقعة شطرنج؟!

• لقد تعلمت الشطرنج باكراً ودرست مباريات أبطال العالم من أول «بول مورفي» في القرن التاسع عشر حتى فيشر وسباسكي، ولقد اعتدت مع أصحابي أن نسهر طول الليل نلعب ونتناول «المشاريب» ببلاش في القهوة على جس الانتصارات التي كنا نحققها كل ليلة.

• مشاريب فقط أم فلوس أيضًا؟

• لا، هذه أول فلوس أكسبها من الشطرنج في حياتي.. في مصر كنا نكسب شاي وسحلب وكاكاو فقط، وكانت لنا مقولة شهيرة سجلناها باسمنا وهي: إن اللعب على

المشاريب هو أعظم اختراع عرفته البشرية بعد البنسلين! انفجر محمد ضاحكًا من التعبير الخزعبلي الطريف.

قادتها أقدامهما إلى حديقة ليست بعيدة تجاور مسرح «شتات هالي»، وهناك كرر محمد عرضه بأن يُقدّم لعادل نصف المبلغ وصارحه بأن أي أحد آخر لم يكن ليعيد له شلنًا واحدًا.. هذا سلوك نبيل لا وجود له في الغربية. نظر إليه عادل وقد بدت عليه مظاهر التعب والرغبة في النوم قائلاً: إذا أردت أن تُقدّم لي معروفًا بحق؛ فاترك البطانية التي تشلحها عني طول الليل وتتركني في العراء.. ليس معنى أنها بطانيتك أن تستأثر بها وحدك في ليل فيينا البارد.. قال هذا ثم سحب البطانية ولف نفسه بها واستلقى على الأرض.

(3)

غادرت نادية البيت في «تابور شتراسه»، وتابور هي كلمة تركية عرفتها النمسا قبل خمسمئة عام عندما دقت الجيوش العثمانية أبواب فيينا، ثم فشلت في اقتحامها.

كانت نادية ترتجف والغضب العارم يجتاح كل جزء من كيائها بعد أن أتى «أورليش الملعون» نفس تصرفاته التي لا يريد أن يكف عنها في وجود صديقتها عندهم بالبيت.

كانت نادية قد تغلبت على التردد ودعت تونيا ومادلين للغداء معها في البيت، ثم أوصت أمها بعمل الكبيبة والملوخية اللبنانية التي تُطبخ بأوراقها. هذه هي المرة الأولى التي تزورانها في البيت، بينما ذهبت هي إلى بيتيها مرات عديدة. كانت دائمًا تخشى من هذا السكير الذي تزوجته أمها دون أن تعرف أنه متحرش غريب الأطوار.. لقد كانت ماجدة تظن أنها ستحمي ابنتها نادية من خلال الزواج برجل نمساوي عقب وصولها من بيروت، وكانت تأمل أن يساعد هذا على إدماج البنت في المجتمع

الأوروبي؛ لكي تنسى ويلات المكان الذي أتيا منه، لكن يبدو أن تعجلها أوقعها في يد هذا السياسي السابق الذي سعى لدخول البرلمان عدة مرات، فلما أخفق في نيل رضا الناخبين يئس وتبدلت أحواله؛ فعاقر الخمر، وتم ضبطه أكثر من مرة في أوضاع مخلة مع بعض الشباب بالحدائق! في البداية كان تعامله مع نادبة معقولاً، وهي من جانبها حرصت على مداراة نفورها منه؛ حتى لا تُغضب أمها. بعد فترة تبدلت أحواله وأسفر عن حيوان لا يتورع عن الدخول على نادبة في مخدعها وإزاحة الثوب عنها في أثناء نومها لتصحو فجأة؛ فتجد رجلاً محمر العينين يحملق في جسدها العاري، ولعابه يسيل على فمه؛ فتصرخ وتحضر أمها على صوت الصرخة، إلى آخر بقية الليلة البائسة التي اكتملت بحضور البوليس ثم ما كان من تنازل أمها عن البلاغ وإرغامها هي أيضاً على التنازل حتى لا يقذف بهما أورليش إلى الشارع ولا تجدان من ينفق عليهما.

الغريب في الأمر أن هانز أورليش هذا الذي انضم لعضوية حزب الشعب كان مسرفاً في يمينيته وكراهيته للأجانب ومناهضاً شرساً للاجئين والمهاجرين، حتى إن قادة حزبه قد أبدوا تخوفهم من تطرفه، الأغرب أنه ذهب ذات يوم لملاقة فوج من اللاجئين القادمين من الشرق الأوسط وفي يده هو وأنصاره لافتات تحمل السباب وتدعوهم للعودة من حيث أتوا. في هذا اليوم التقى ماجدة توتونجي وابنتها نادبة ضرغام، وكانتا ضمن فوج اللاجئين.. رأهما قبل أن يتم فرز المجموعة وتصنيف القادمين وتوزيعهم على أماكن الإقامة. لفتت ماجدة انتباهه بجمالها الواضح رغم العناء والألم البادي عليها، فتدخل لدى السلطات وكان ذا نفوذ وأخذها من المعسكر وعرض عليها الزواج.. كانت نفسها في حالة ضعف وقد لعب أورليش على هذا الوتر؛ فأثار في نفسها الذعر من حياة المعسكر المؤقت الذي قد يتم فيه اغتصاب ابنتها بواسطة جنود الأمم المتحدة. قال لها: انظري إلى هؤلاء الجنود السود القادمين من الأدغال.. إنهم سوف يلتهمون لحمك الأبيض قبل أن يفترسوا ابنتك! أغراها بالأمان الذي سيحققه لها، وشعرت أن نجاة ابنتها تستحق التضحية والزواج بشخص لا

تعرفه. تزوجها ثم أسكنها وابنتها نادية معه في شقته بالدور الرابع في شارع تابور أو «طابور» بالحي الثاني من فيينا.

كانت كل وعود زوج أمها بالإقلاع عن الشراب والتخلي باللياقة قد ضاعت هباءً؛ فقد كان يتربص بالبنت ويتعمد لمسها كلما مرت إلى جواره. في البداية كان يفعل هذا خفية، وبعد ذلك خرج عن السيطرة وصار لا يبالي بوجود زوجته.

لقد كانت هذه الزيجة التي مُنيت بها ماجدة تحمل الخسارة من كل جانب، ولقد كان وضعها -كونها لاجئة- يكفل لها ولابنتها جُعلًا شهريًا يكفيهما الحاجة، أما وقد صارت زوجة لنمساوي فقد فقدت مواصفات اللاجئة ودخلت إلى تصنيف جديد فقدت معه الإعانة، وبذا أصبحت لقمة سائغة تحت ضرس هذا اليميني الشعبوي المريض.

عندما طلبت تونيا ومادلين أن يتذوقا الأكل اللبناني عند نادية في البيت فإنها ترددت، ثم وافقت بعد أن أكدت لها أمها أنها ستبعده عن المنزل في أثناء الزيارة. كانت نادية مترددة في أن تحكي لرفيقتها حقيقة زوج أمها، وأرجأت هذه المكاشفة أملًا في أن ينصلح حال الرجل ولا تضطر لفضح حياتها. الأم ماجدة كانت لديها نفس المخاوف وخشيت مثل ابنتها من أن يقوم زوجها المختل بإتيان فعل غير لائق في وجود الضيفتين؛ لهذا فإنها انتهزت فرصة خروجه للصيد في مشوار أسبوعي اعتاد أن يقضي فيه النهار كل سبت في منطقة الدانوب القديم حيث تكثر الأسماك. قامت الأم بدعوة الصديقتين، وطبخت لهما ما لذ وطاب، غير أن هانز فاجأ الجميع بعودته المبكرة في أثناء جلوسهم إلى طاولة الطعام. عندما سمعت نادية صوت المفتاح في الباب نظرت نحو أمها مستفهمة، لكن الأم أغضت في انكسار وأشاحت بوجهها. دخل هانز مترنحًا فأبصر الضيفتين ففتح عينيه على اتساعهما وحملق فيهما بوقاحة قائلاً: النهار اليوم يخلو من الأسماك.. لم أصطد سمكة واحدة، ثم علا صوته: يبدو أن اللاجئيين اللبنانيين قد استولوا على سمك الدانوب كما استولوا على كل شيء في فيينا.. هاهاهاهاهاها. كانت البنتان قد رسمتا على وجهيهما ابتسامة تستعد للترحيب

وتبادل كلمات المجاملة لدى دخول الرجل، غير أن نظراته وحديثه الغريب أحالت ابتسامتهما دهشةً، ثم بدأ الخوف يتسلل إليهما. هنا تدخلت الأم فنهضت متجهة إلى زوجها قائلة: هذا هانز زوجي.. يبدو أنه أفرط في الشراب.. سأخذه إلى السرير حتى ينام ويرتاح. قالت هذا ثم أحكمت قبضتها على ذراع الرجل الذي أخذ في الضحك بينما ينظر للضيفتين ويقول: الجنس الجماعي هو ما تحتاج إليه البشرية.. صدقوني.. أنا أعرف أكثر منكم. أخذت الأم تدفعه حتى أدخلته إلى السرير، ولم تخرج إلا بعد أن سمعت صوت شخيرته، واطمأنت إلى استغراقه في النوم.

حاولت الأم بعد أن عادت وجلست إلى المائدة من جديد أن تتحدث حديثًا مرحًا، لكن أحدًا لم يتجاوب معها، وخاصة نادية التي ظهر على محياها شبح ابتسامته بلاستيكية يائسة، ولم تكن تتبادل حديثًا مع صاحبتيها. قامت الأم فأحضرت الكنافة النابلسية المسقية بالعسل وأخذت في تقطيع محتويات الصينية وتوزيعها في الأطباق، عندما فوجئ الجميع بزواج الأم يخرج إليهن من جديد شبه عارٍ؛ إذ لا يرتدي سوى سروال داخلي نسائي من الواضح أنه أخرجه من دُرج ماجدة زوجته!

صرخت ماجدة في الرجل الذي أخذ يتجول في الصالة ممسكًا وسطه بكلتا يديه مثل عارضات الأزياء، وقامت إليه تدفعه بقوة؛ فأوقعته على الأرض في الوقت الذي تحركت الصديقتان نحو باب الشقة، أما نادية فلم تتحرك لإثناهما عن الرحيل ولم ترد التحية أو توصلهما للأسفل، وإنما غرقت في الصمت.

سارت نادية في الشارع مشتتة الفكر. إن عملها في بار «دولفين» يبدأ بعد ساعتين من الآن؛ أي في السادسة مساءً، لكنها لم تستطع البقاء في البيت بعد نزول صديقتها على إثر عرض السروال البيكيني الذي قدّمه السيد هانز أورليش زوج والدتها.

لا يكفل لها العمل بالبار سوى نفقاتها الخاصة من كتب وملابس، وأحياناً تذاكر السينما والأوبرا، أما إيجار المسكن فلا تقدر عليه.. ليتها كانت تستطيع أن تخرج بأمها من منزل هذا المأفون الذي ظنوه الأمان فإذا هو الخطر ذاته. لقد هدد أمها بالقتل إذا فكرت في تركه، والأم أخذت تهديده بجدية؛ فاستسلمت للبقاء معه رغم شذوذه. مشكلة نادية أنها حتى لو استطاعت تدبير ثمن مسكن مشترك مع طالبة أو أكثر؛ فإنها ستضطر لترك أمها تواجه هذا الوحش منفردة، بينما أمها هي كل عائلتها. ركبت الترام وأطلت من النافذة المضربة بقطرات المطر فأحست أن الصورة الغائمة التي تراها تُعبّر عن حياتها. إن المضحك في الأمر هو أنها ومعها والدتها لم تكونا على علم بمن يكون هذا الرجل الذي التقطهما من معسكر اللاجئين.. كانا يعتقدان أنه أحد الناشطين في جمعيات حقوق الإنسان وأن رغبته في الزواج من والدتها تتسق مع الدور الإغاثي الذي يقوم به! ولعل الجهل باللغة الألمانية في ذلك الوقت هو الذي حال بينهما وبين فهم ما كتبه الجرائد وقتئذ عن الفاشي المتطرف الذي أعجب بمهاجرة عربية وقرر أن يتزوجها.. لقد تساءلت الصحف عما إذا كان قد تاب عن مواقفه العنصرية أم إنه يكمل مسيرته في الحصول لنفسه على فرائس لذيدة! بعد ذلك توالى المعلومات عنه من جيران المنزل والجزار أسفل البناية والبقال على الناصية.. هؤلاء الناس معروفون بأنهم ليسوا مثل العرب وفي العادة لا يدسون أنوفهم في شؤون الآخرين، كما يحرصون على إبقاء مسافة مع الآخرين، ومع ذلك فقد تطوعوا بإخبار الأم عن الزوجتين السابقتين لهذا الرجل.. واحدة منهما قتلت نفسها من فرط التعاسة، والأخرى تطلقت وهاجرت إلى أمريكا.

ماذا تفعل مع هذا الرجل؟ إن خطره لا يتمثل فقط في إمكان الاعتداء البدني والجنسي عليها وعلى أمها، إنما يكمن في أن واحدة منهن قد تقتله ردًا على بعض نوبات اختلاله؛ فتضيع الحياة وينتهي المستقبل.

نزلت من الترام في شارع ماريا هلف وجلست في مقهى مجاور للبار الذي تعمل فيه وطلبت شيئاً ثم أخرجت كتاباً ظلت تقرأ به حتى اقتربت الساعة من السادسة، موعد

بداية نوبتها التي تستمر حتى منتصف الليل، ثم قامت فدخلت البار ووجدته نصف ممتلئ. حيّت راينر صاحب المكان بإيماءة من رأسها، ثم سلمت على زميلتها إيفا زوجة راينر، وزميلها هانسن، قبل أن تتخذ مكانها خلف البار وتفسح الطريق لإيفا التي حان موعد انصرافها. هي تحب إيفا التي تكبرها في السن وتدين لها بالفضل في العمل هنا؛ فقد استقبلتها استقبالاً حسناً هي وزوجها راينر، وهي التي علّمتها عمل الكوكتييلات ومعاملة الزبائن، وعلّمتها كذلك فن التفاوضي عن السخافات. وعلى الرغم من اعتياد رؤيتها السكارى الذين تتعامل معهم يوميًا؛ فإن أحدًا منهم لم يخلع ملابسه ويسير أمام الناس بكيلوت حريمي!

(4)

في الصباح كان المزاج السيئ مسيطرًا على الرفيقين، فلم يتبادلا الكلام في أثناء قيام محمد بطيّ البطانية والتوجه نحو حديقة ليغسل وجهه.

تساءل عادل في ضيق: هل هذا هو الخيار الوحيد للنوم؟

لمعت عينا محمد وقال في حماس وكأنه كسب رهانًا: أنا سعيد أنك سألت هذا السؤال الآن؛ لأنه يعزز نظريتي الخاصة بأن قدرة الإنسان على احتمال النوم بالحديقة لا تتعدى ثلاث ليالٍ.. بعدها تنخفض معنوياته وتغزو الأفكار السيئة رأسه فتطيش قراراته وتتوالى أخطاؤه.

- هل عندك أفكار أخرى يا صاحب النظريات؟
- طبعًا عندي.. أنا أعرف فندقًا قريبًا ثمن الليلة الواحدة فيه 160 شلنًا يمكننا أن نقتسمها؛ شريطة ألا نعلن لهم أننا معًا، بمعنى أن يقوم أحدنا باستئجار الغرفة ويقوم الآخر بالتسلل إليها دون أن يراه أحد.. لقد نزلت هناك بضع ليالٍ، لكن شق عليّ الإيجار؛ فهجرت الفندق وأتيت إلى الحديقة. وجد عادل الفكرة طيبة؛ فرحب بها.

تكرر المشوار إلى مقر الجريدتين بحثًا عن عمل دون طائل. كان اعتقاد محمد أن السكن والاستقرار ينبغي أن يسبق البحث عن عمل؛ لأن الذين ينخرطون في العمل اليومي ثم يبيتون في الحدائق آخر الليل سرعان ما يفقدون صحتهم وتصيبهم الأمراض وينوء جهازهم العصبي بأحماله.. السكن يجلب السكينة، ومن ثم يكون الشغل نعمة.

في المساء أسرع الشابان إلى الفندق وولجا من الباب. في ردهة الفندق فوجئ عادل برفيقه يمسكه من يده ويدفع به للمصعد، ثم يخرج في الدور الثاني ويتجه ممسكًا به إلى صالون يضم أنترية للجلوس وتلفزيون. همس محمد في أذنه وهما يجلسان بأن كل طابق به غرفة للتلفزيون مخصصة لنزلاء الطابق كله، وأكد أن بإمكانهما البقاء وسط النزلاء لأطول فترة ممكنة دون أن يأخذا غرفة. شعر بامتعاض من الفكرة وقد كان يُمَيِّ النفس بغرفة وسرير دافئ. كان محمد يقرأ أفكاره، فقال مطمئنًا: وحياة غلاوتك سنستقر ونسكن ونشتغل ونجمع الكثير من المال، لكن لا يجب أن نبدد الآن قروشنا القليلة في الفنادق!

بعد منتصف الليل خلا الصالون إلا منهما بعد أن آوى كل النزلاء إلى غرفهم. قام محمد إلى التلفزيون فأطفأه وإلى الستائر فأسدلها، وأغلق الباب ثم خلع حذاءه وأظلم الغرفة وتمدد على إحدى الأرائك. شعر عادل بالقلق وخشي أن يقوم أحد بفتح الغرفة، ولكي يتغلب على مخاوفه وجد نفسه يرفع صوته بالغناء. فتح محمد عينيه قائلاً: صوتك حلو يا ابن اللذين.. إن الأجدر بك أن تحترف الغناء، لكن يحسن أن تغني بالنهار حتى لا يسمعنا أحد فيأتي ويطررنا.. قال محمد هذا ثم أعطى وجهه للوسادة وراح في النوم قبل أن يعلو شخيره. نظر إليه عادل مبتسمًا ثم استلقى هو الآخر وسرعان ما غلبه النعاس.

قام في الصباح يسعل من النوم دون غطاء فوجد محمد مستيقظًا يدخن سيجارة، وأشار هذا إلى الحمام قائلاً: يمكنك أن تأخذ دُشًا إذا أردت قبل أن نتوكل على الله.

أسعدته فكرة الدش فأخذ حمامًا سريعًا وعاد إلى محمد، فركبا المصعد إلى الردهة، وأدهشه أن رفيقه الذي لا تنتهي مفاجآته بدلًا من الخروج إلى الشارع اتجه به صوب المطعم حيث كان النزلاء الذين ملأوا الموائد يتناولون إفطارهم. جلسا إلى مائدة فأقبلت عليهما حسناء نمساوية متسائلة: شاي أم قهوة؟ بعد ذلك قاما إلى البوفيه المفتوح فعمل كل منهما لنفسه طبقًا محترمًا من الأجبان واللحوم الباردة وجلسا يحتسيان الشاي والقهوة وسط ترحيب الحسناء التي عادت اليهما أكثر من مرة تملأ الأكواب الفارغة وتغمرهما بابتسامات الترحيب. طاف بباله ماذا يكون موقف الفتاة إذا علمت بأمرهما وأدركت أنهما متسللان؟ لم يشأ أن يحتفظ بالسؤال لنفسه فأشرك محمد في الأمر فضحك هذا بشدة قائلًا: الناس هنا طيبون ولا يتصورون أبدًا وجود أناس يفطرون بالمطعم دون أن يكونوا نزلاء! لهذا تجد النادل لا يسألن حتى عن رقم الغرفة. قال عادل: وماذا إذا سألن؟ رد ضاحكًا: بسيطة يا صاحبي.. نحن لسنا نزلاء هنا، لكننا نحب إفطاركم وقد أتينا لنفطر وندفع الحساب! كان محمد بسيطًا في منطقته، ولديه إجابة عن كل سؤال؛ لهذا فقد وجد نفسه متحمسًا لصحبته، على العكس من إستورجي ميت بدر حلاوة العجيب الذي نعت أمثاله من الطلبة بالكواحيل! وأحس أن الأيام مع محمد ستكون حافلة بالمفاجآت!

منذ الصباح الباكر وقف عادل في الطابور مع محمد بجريدة «الكرونا»؛ أملًا في العثور على فرصة عمل. في الحقيقة كانت هناك عدة طوابير كل منها ينتهي عند شباك يجلس خلفه موظف، وكانت التقسيمة جغرافية بحتة، فكل حي من أحياء فيينا يتولاه شيف نمساوي وله خريطة تضم إشارات المرور الموجودة بالحي، والتي يقف بكل منها بائع للجرائد عليه أن يهرع إلى الشارع بين السيارات عندما تحمر الإشارة وتتوقف السيارات، يبيع الصحف بسرعة ثم يكر عائداً إلى الرصيف قبل أن يظهر اللون الأخضر وتنطلق السيارات مسرعة. كان يضحك في سره للمفارقة

المتعلقة بكونه كان في السابق طالبًا بكلية الإعلام، اختارها بمحض إرادته؛ لأنه حلم بأن يكون صحفيًا، وهنا يجد نفسه يقف في الطابور يتمنى أن ينعموا عليه بوظيفة بائع جرائد! لا بأس، هكذا حدّث نفسه، كل العظماء مروا بهذه المراحل وعملوا بمهن متواضعة قبل أن تتفجر مواهبهم ويعرفهم الناس.. نجيب الريحاني، بيرنارد شو، دوستويفسكي، عبده فرج، وغيرهم من الأكابر.

أفاق من أفكاره على أصوات ضجيج وصيحات بالطابور، ثم رأى أحد الشيفات النمساويين يستدير ويغادر شبابه ويخرج مندفعًا، وكل قسمات وجهه تنطق بالشر ليلاقى شابًا مصريًا وينفجر فيه من عند الباب بثتائم مصرية مقذعة قبل أن يصل إليه ويسدد في وجهه فاصلاً من اللكمات المتوالية دون أن يحرك الشاب المصري ساكنًا ليدافع عن نفسه، ودون أن يتدخل أحد للفصل بينهما! بُهت عادل للمنظر، ثم وجد أنفاسه تتسارع والدم يندفع في رأسه فنسي الشغل وخرج من الطابور صارخًا في البلطجي النمساوي الذي بدا عليه عدم الفهم، ووضح أنه لا يعرف من العربية سوى الشتائم فقط، فأعاد عليه عادل الكلام بالإنجليزية وسأله بأي حق يسمح لنفسه بضرب هذا الشاب. نظر إليه الشيف النمساوي بعظيم الامتعاظ والقرف، وكان طويلاً عريضاً ذا لحية بُنية، وقال: وما شأنك أنت يابن ال...؟ رد عادل إليه التحية بأحسن منها، ولعن أحياء وميتين الذين أنجبوه ولم يأبه لطوله وعرضه، ثم هدده صارخًا بأعلى صوته بأنه سيطلب البوليس ويتصل بجمعيات حقوق الإنسان، ولديه عشرات الشهود على جريمة ضرب الشاب، وسوف لا يتركه قبل أن يزج به في السجن. فوجئ الشيف النمساوي الغادر بالجسارة والتهديد الواضح فأمسك عن الكلام، ووقف صامتًا يتلقى الشتائم وقد عقد ذراعيه أمام صدره. لم يتوقف عادل أو يمنح الرجل فرصة بعدما لمح التراجع في عينيه، فزاد وأمعن في أوصاف العهر والتهتك والقوادة والدعارة التي وصف بها الرجل والسيدة والدته! وقد ألهمت جرأة عادل حماس الواقفين في الطابور فهجر بعضهم الحرص مؤقتًا وعلت أصواتهم بالاعتراض، الأمر

الذي خشي معه النمساويون أن يتطور الأمر إلى ما لا يُحمَد عقباه، فأعلنوا أنه لا توجد فرص عمل وقاموا بإغلاق جميع الشبائيك.

غادر المكان وبصحبته محمد وكل جزء في جسمه يرتعش، ووجد أنفه ينزف كعادته عندما يتعرض لانفعال شديد؛ فرفع رأسه لأعلى ليوقف الدم، وسمع الشباب في أثناء انفضاضهم ما بين مؤيد مناصر له وبين ساخط يصب غضبه عليه ويُحمّله مسؤولية إغلاق الشبائيك وحرمانهم من فرصة عمل. والحق أن أكثرهم كانوا من الفريق الثاني، وسمع بأذنيه تعليقات من عينة: مبسوط يا عم البطل؟ خربتھا وقعدت على تلهاء.. يا عم كانت علقة تفوت ولا حد يموت.

شعر بحزن شديد مما سمعه ووجد نفسه يهّب في محمد معاتبًا بينما يغادران المكان: لقد رأيتني في مواجهة مع النمساوي القذر ووقفت تتفرج شأنك شأن غيرك، وكنت أتوقع أن تساندني حتى لا أكون الوحيد الذي يعترض على ما حدث.

رد محمد بهدوء: لقد رأيتك تبلي بلاءً حسنًا ولا أظنك كنت تحتاج لسئيد، وأنا عن تجربة لا أستطيع أن أترك نفسي للغضب في مواقف كهذه؛ لأن غضبي من الممكن أن يسفر عن مقتل الرجل!

- ما هذا الهراء الذي تقوله؟ إما أن تقتل الرجل أو تتركني أواجهه وحدي.. ألا يوجد في عالمك شيء وسط اسمه التعنيف أو الشتم والسب والاشتباك المحدود؟
- أنا آسف يا صديقي، لكنك لا تعرفني.
- أنا فعلاً لا أعرفك.. قالها عادل بغضب وانفعال.
- اسمع يا عادل، لقد اشتبكت ذات مرة مع أحد الجيران؛ لأنه تشاجر مع أمي، وقد حكى لي الناس أنني أطبقت على رقبتة حتى كادت روحه تُزهق، وقد قامت عصابة منهم برفعي من فوقه فنجنا من الموت بأعجوبة.. أقول لك حكوا لي؛ لأنني لا أذكر شيئاً مما حدث.. كل ما أذكره أن أمي كانت تصرخ في هلع خوفاً من أن يموت الرجل فيضيع مستقبلي.. من يومها لا أشتبك في أي خناقات.. لعلك لا تصدقني، لكن تأكد أن

محبتتي هي سبب تفسيري الأمر لك، ولو تعلّق الأمر بأحدٍ سواك ما فسرت له ولا بررت، ومع ذلك أعتقد أنني في مرحلة قادمة سأفضّل أن يساء فهمي على أن أقدم إجابة طويلة أشرح فيها موقفي لأي أحد!

مضى عادل مبتعدًا وركب الترام وحده عائدًا إلى محطة «ويست بانهوف»؛ حيث جلس هناك يفكر فيما حدث، وكان رأسه يemor بالانفعال مما جدد نزيف الأنف مرة أخرى. استرجع المشهد من جديد وعجب للغضبة المصّرية التي صدرت عنه قبل قليل فأدهشته هو نفسه؛ إذ لم يكن يتصور أن يغضب كل هذا الغضب لأمر لا يعنيه شخصيًا، وشعر بخيبة أمل لأنه أغلق بيديه باب العمل في هذه الجريدة، ولن يكون في استطاعته أن يذهب إلى هناك مرة أخرى. لم يتبقّ إذن سوى المحاولة مع الجريدة الأخرى. كان تأثيره باديًا وهو يتذكر الشاب الذي تلقى اللطمات على وجهه فلم يرد، في الوقت الذي تظاهر ببقية الواقفين بأن شيئًا لم يحدث، فلما خرج عن شعوره وهبّ لنصرة المضروب تعرض للوم من بعضهم على ما قام به. وكان أكثر ما أزعجه هو هذا النمساوي الفظ الذي حفظ قاموس الشتائم المصرية دون بقية اللغة ليجعل من هذا القاموس وسيلة للتفاهم مع المصريين! ومما زاد في حزنه أن هؤلاء الذين ملأ الخوف والحذر قلوبهم هم من الطلبة الذين لا يحملون مسؤوليات عائلية، وليس في رقابهم أسر وأكوام من اللحم ينفقون عليها (وهي حجة الآباء في الاستكانة للظلم)، وتذكّر أصدقاءه في الجامعة الذين ثاروا في وجه السلطة وتظاهروا رافضين مبادرة السادات ومفاوضاته مع الإسرائيليين غير مباينين بما يصيبهم من رجال أمنه. أضحكته -رغم الألم- فكرة أنه كان على استعداد لطلب البوليس للنمساوي البلطجي، وسبب الضحك أن البوليس عندما يأتي ربما لم يكن ليجد أحدًا يشهد ضد المجرم!

أخرج من جيبه دفترًا صغيرًا وشرع يكتب مذكراته عن هذا اليوم الكئيب، وكانت تحت عنوان: الدفاع عن صاحب الحق.. الخسيس!

في المساء أقبل محمد الذي غاب طوال اليوم، ولم يتطرق أحدهما إلى ما حدث عند الجريدة. توجهنا معاً إلى الفندق واشترط عادل أن يبيتا في حجرة مثل الآدميين وليس تسلاً في غرفة التلفزيون كالأمس. وافق محمد على مضض فسبقه عادل إلى الاستقبال، وقدم جواز سفره، وحصل على المفتاح، ثم صعد إلى الحجرة التي كانت صغيرة لكن نظيفة تضم سريرًا واحدًا وطاولة صغيرة للطعام، مع وجود مجمّع لدورات المياه بالردهة الخارجية تخص الطابق بأكمله. نزل ليحضر محمد فقابله صاعدًا إليه واتفقا أن يتناوبا النوم على السرير كل واحد ليلة.

بعد عدة أيام نجح في الحصول على عمل مؤقت في جريدة الكوريير مكان شخص ذهب في إجازة. ركب الترام قاصدًا المكان المحدد وهو إشارة مرور بطريق «الجيرتل» في الساعة الخامسة صباحًا، وهناك وجد سيارة التوزيع قد ألقته له بحصته من الجرائد على الرصيف. وقد كان من حظ عادل أو من سوء حظه أن إشارته هذه كانت رديئة للغاية لا تكاد تحمر فيندفع بين السيارات محاولاً عرض الصحيفة حتى تخضر بعد عشرين ثانية لا تسمح له بعمل أي شيء! كان بائع الجرائد في فيينا يعتمد في دخله على ثلاثة أشياء.. الأول: هو اليومية التي يتقاضاها من الجريدة وكانت لا تزيد على 60 شلنًا، والثانية: هي العمولة عن كل نسخة مباعة، والثالثة: هي البقشيش الذي ينفحه الزبائن للبائعين. ويبدو أن هذا النظام لبيع الجرائد غير موجود في أي دولة أوروبية أخرى، ففي معظم العواصم توجد أكشاك تباع الصحف إلى جانب المرطبات والتبغ، أما النمسا فكانت لا يطيب لها قراءة الصحف إلا من يد المصري الواقف في عز البرد بين السيارات مرتديًا الجاكيت الفسفوري الشهير الذي يجعله يبين في الظلام حتى لا يتم دهسه! عند الساعة الثانية عشرة ظهرًا كانت نوبة العمل قد انتهت وكان عليه أن يحمل المرتجع ويقوم بتخزينه حتى يوم الثلاثاء وهو يوم إعادة المرتجعات. ركب الترام حاملاً جرائده وهو يمئي

النفس بالحصول على مكان في الوردية الليلية الخاصة بالطبعة المسائية من الجريدة، وقام بخلع الجاكيت قبل أن يدخل إلى الفندق وهناك وجد محمد يجلس بالغرفة ومعه شخص آخر قدّمه له قائلاً: رفعت، صديقي ورفيقنا الجديد في الغرفة! بُهت عادل وهو يضع حملة من الصحف على الأرض متسائلاً: وأين يمكن أن ينام صديقك في هذه الغرفة؟ فأسرع رفعت قائلاً: لا تقلق، يكفيني أي مكان على الأرض، وسنقوم بتقسيم إيجار الغرفة على ثلاثة. عندما اختلى بمحمد بعد ذلك عاتبه على هذا التصرف، فرد هذا قائلاً: أنت لم يمضِ على وجودك في البلد سوى بضعة أيام، وربما كانت قروشك لم تفرغ بعد، أما أنا يا صديقي فالريح أوشكت على الصفير في جيوبي، وقد وصلتُ لمرحلة الخطر. سكت عادل وهو غير راضٍ وغير قادر على المجادلة في الوقت نفسه، لكن الأمر العجيب أنه كان يلتقي بمحمد ورفعت في الصباح داخل المطعم، وكان ثلاثتهم يتناولون الإفطار بكل هدوء؛ باعتبارهم نزلاء محترمين لكل منهم غرفة مدفوعة الأجر شاملة الإفطار! والأعجب أنه صادف عند عودته للغرفة بعد يومين شريكاً رابعاً استلقطه محمد من محطة القطار ليتم اقتسام الإيجار على أربعة. شعر عادل أن الأمر لن يستقيم؛ خاصة وأن الزبون الجديد كان يعمل صباحاً ومساءً، ويضطر لحمل كمية كبيرة من الصحف المرتجعة والدخول بها عبر باب الفندق مرتين في اليوم مرتدياً الجاكيت الفسفوري الشهير الدال على مهنة صاحبه، وكان عادل يلمح نظرات الدهشة في عيون العاملين بالفندق سواء بالمكاتب الأمامية أو عاملات التنظيف اللاتي كن يدخلن حجرة مفردة لشخص واحد ليجدن أربعة من الشباب تحيطهم ربطات الجرائد من كل جانب.. وطبعاً من غير الضروري أن نذكر أن الزبون الجديد كان ينزل إلى المطعم في الصباح ليأخذ حقه في الإفطار!

مضت الأيام التي وقف عادل فيها يبيع الجرائد كبديل لصاحب المكان الأصلي سريعاً، ثم عاد إلى البطالة من جديد، لكنه حصل على بضعة مئات من الشلنات أمكنها أن تمد في أجل إقامته قليلاً، وكانت الغرفة قد صارت بالنسبة له مصدر إزعاج خصوصاً بعد حلول الرفيق الخامس، ولم يدرٍ متي يمكن أن يتوقف محمد عن

إحضار المزيد من الرفاق، لكن الرد جاء سريعًا بعد أن تورط اثنان من زملاء الحجرة في مشاجرة كبيرة وعلا صوتهما بالسباب، ثم اشتبكا في عراك حارٍ انتقلت تفاصيل لكلماته وركلاته وروسياته عبر الجدران إلى الخارج، ثم ما كان من طرُق عنيف على الباب وحضور مجموعة من العاملين بالفندق، ثم المواجهة والقرار الذي تأخر كثيرًا وهم يطلقون كلامًا بدا أنه شديد القسوة بالألمانية في وجه عادل صاحب الغرفة الأصلي عندما فتح لهم الباب. وعلى الرغم من ضعف معرفته بالألمانية؛ فقد أجاب عن سؤال محمد حين سأله وهو يجلس مضطجعًا على السرير عما يريد هؤلاء الناس الواقفون بالباب وماذا يقولون.

قال عادل: أبدًا يا صديقي، إنهم يقرؤونكم التحية ويقولون لكم: برة يا ولاد الكلب!

(5)

خرجت نادية من الجامعة يلاحقها كارل كيسلر، وهو زميل لها، ويبدو أنها كانت شاردة الذهن فلم تسمعه يناديها أكثر من مرة ليعطيها أوراقًا تساقطت منها دون أن تشعر:

- رأيت الأوراق تقع من بين يدك ووطنتك سوف تلتقطينها، لكنك مضيت بعيدًا وكأنك تفرين من شبح.
- آسفة يا كارل، لم أسمعك، ولم أفر من شبح، لكنني ذاهبة للقاء أمي عند كارتر ستراشه ولا أريد أن أتركها وحيدة بالشارع.
- ولماذا لا تلقينها بالبيت؟ قال هذا ثم بادر بالاعتذار: آسف، لم أقصد التطفل، فهذا ليس شأني. سارعت نادية: لا عليك، إنني وعدتها اليوم أن آخذها إلى الأوبرا؛ حيث إنها تلح عليّ منذ فترة لحضور عرض موسيقي، غير أن ظروفي لم تسمح لي باصطحابها قبل اليوم، وقد حجزت تذكرتين ولا أريد أن أتأخر عليها.

- نادية، هل تسمحين لي بدعوتك في يوم تختارينه هذا الأسبوع لحضور مسرحية جديدة لـ«دورنيما» تُعرض لأول مرة في فيينا؟
- شكرًا يا كارل، لكن لا أظن وقتي يسمح، فأنا بين الدراسة والعمل كما تعرف.
- أوكى، دعك من المسرح.. ما قولك في الذهاب للديسكو ليلة السبت، ولا بأس لو حضرت معنا مادلين وتونيا إذا كنت لا تفضلين صحبتي المملة وحدي؟!
- أنا لم أقل إن صحبتك مملة، لكن لي ظروف، وعندما أجد نفسي في ظرف مناسب يسعدني أن أربي دعوتك.

قال كارل محاولاً التغلب على ارتباكها: سأقول لك شيئاً: لا تُعدي خروجنا نوعاً من المواعدة إذا كان هذا ما تخشيه.

ردت نادية في حدة: ولماذا أخشى المواعدة؟ قال كارل: أنا لا أقصد شيئاً.. فقط أردت أن أكسر الجليد بيننا وأطمئنك إلى أن أي شكل من أشكال العلاقة معك يرضيني. قالت ولم يذهب عنها انفعالها: عن إذنك.. ليس لدي وقت الآن للكلام.

مضت في الطريق إلى دار الأوبرا القريبة، وكانت الأفكار تدور في رأسها: لماذا يا نادية يا زفتة لا تستجيبين لهذا الفتى كارل؟ إنه لن يعضك كما قالت تونيا.. منذ بداية الدراسة وهو يحاول التقرب منك وأنت لا تعيرينه التفاتاً.. ألا تريدين أن تندمجي في المجتمع وتصبحين مثل الأخريات ولديك بوي فريند؟ هاهو موجود ورهن الإشارة، أم تراك ستتشغلين بأفكار المجتمع الذي يقطر دمًا الذي أتيت منه فتحرصين على العذرية وتحنطين غشاء البكارة لأجل العربي صاحب الحظ السعيد الذي سيخرج يحكي لأصحابه كيف اعتلاك وفتح عكا ليلة الزفاف؟

كان الارتباك والتشتت هما ما يحكمان سلوكها، وكانت تشعر بهذا وتدركه، وتريد أن تنفك منه وتصير عادية.. إنها لا تريد أن تكون متميزة.. فقط أن تكون مثل غيرها بعد أن صار التميز بالنسبة لها مرتبطاً بالتمزق النفسي والوحدة اللذين شبعتهما. كانت متميزة في بيروت وقد وثقت في أبيها عندما أنبأها بأنها ستصير شيئاً كبيراً جداً،

واليوم أصبحت ترتجف كثيرًا دون سبب.. ترتجف في أثناء النوم وترتجف عند الصحو، وكأنما تخشى أن تنقضَّ عليها قذيفة فتبتتر قدميها أو تبقر بطنها. لا توجد قذائف في فيينا، لكنها تحملها في داخلها كتذكار من الوطن المحروس.

عند محطة الترام المواجهة للأوبرا وجدت أمها في انتظارها.. تلقتها بالأحضان. هما ملاذ إحداهما للأخرى.

- هل هناك وقت لناكل شيئًا قبل الدخول يا نادية.
- لدينا نصف ساعة يا ست ماجدة ونستطيع أن نلتقط سندوتشين من مطعم نورد سي الذي تحببينه.
- يا سلام عليك يا بنت بطني.. أنت تفهمين أمك جيدًا، ويا سلام لو قهوة تركي أيضًا.
- طلباتك زادت كثيرًا يا ماجدة ولا أستبعد قبل أن تنقضي الليلة أن تطلبي آيس كريم أيضًا.

قالت الأم في لهفة: لو كان كثيرًا عليك لا بأس.. لا أريد شيئًا. ردت نادية وقد تفاجأت بهشاشة أمها: ماذا بك يا ماجدة؟ أنا أضحك يا ست أم نادية.. هل تصورتني أن قهوة وآيس كريم بالشيء الكثير؟ إننا لم نعد لاجئتين.. نحن مواطنتان ولنا كرامة.. إنني رفضت أن نسجل أسماءنا في سجل العاطلين فنحصل على إعانة من الحكومة حتى لا نظل نتذكر أننا في حاجة إلى الغوث.. ابترسمي يا زوجة هانز الملعون، فنحن نقضي وقتنا بعيدًا عنه الآن، وفي يوم قريب لن نضطر للعودة إلى بيته.. ابتهجي.. لا شيء يدعو للأسى.. لا شيء يدعو للأسى.

قالت ماجدة لابنتها: أوكي سأبتهج، لكن لماذا نزلت دموعك يا نادية إذا كان لا شيء يدعو للأسى؟

أخذتها نادية من ذراعها فمضيتا إلى مطعم نورد سي المتخصص في الأكلات البحرية بشارع كارتنر وأخذتا سندوتشين من الرنجة بالبصل التي تعشقها ماجدة وسارا في الشارع متشابكي الأيدي تلتهمان الطعام بهدوء. من مزايا هذا الشارع

المبلط بحجارة البازلت أنه -على اتساعه وطوله- كان مخصصًا للمشاة فقط، والمحلات والمطاعم تحفُّه من الجانبين، دار الأوبرا النمساوية العريقة تقع على ناصيته من جهة طريق الرينج الدائري.

قالت نادية: من شان الله بدي أسألك سؤال يا ست الحبايب. ردت ماجدة: اتدلي يا قلبي.

• هل هناك أحد غيرنا يذهب إلى الأوبرا لحضور عرض موسيقي ورائحة الرنجة والبصل تفوح منه؟

ارتبكت ماجدة وارتج عليها فعاجلتها ابنتها وهي تُقبِّل رأسها: هذا مزاح.. مزاح والله.

لم تكن ماجدة توتونجي امرأة ضعيفة، لقد كانت ملكة جمال الشاطئ في بيروت عام 1959 وكانت صاحبة أحلى وجه وأجمل ساقين على امتداد الساحل اللبناني، ولعل هذا ما جعل والدها يعجل بتزويجها خشية أن يتعلق بها أحد الرأسماليين الذين فرضوا نفوذهم على الدولة واستولوا -إلى جانب الأموال والبيزنس- على النساء الجميلات. كان يخشى أيضًا أن يجتذبها الفن الذي تعلقت به بنات جيلها، حتى إن الكشافين والمنتجين كانوا يجوبون البلاجات بحثًا عن الفتيات الجميلات لتشغيلهن بالسينما والملاهي الليلية، وانزعج الرجل عندما حكّت له ماجدة عن لقائها بالفنان عبد السلام النابلسي الذي امتدح جمالها وأعطاهها بطاقته وبها رقم تليفونه لتطلبه إذا ما فكرت في العمل بالسينما. أما أخشى ما كان أبوها يخشاه أن تتعلق ابنته برجل مسيحي من الموارنة أو غيرهم فتنزوجه زواجًا مدنيًا وتُلجق العار بالعائلة. لقد بدأ هذا الزواج ينتشر في ذلك الوقت، وبقدر ما كان يراه الشباب ملمحًا طيبًا من ملامح المدنية والوقوف في وجه التراث المنغلق، كان الكبار يخشون وقوع بناتهم كبطلات لزيجات من هذا النوع؛ لهذا فقد سارع أبوها بالموافقة على تزويجها من مصطفى

ضرغام ابن أحد أصدقائه الذي كان يمتلك محلاً للهدايا ولعب الأطفال بمنطقة الأشرافية. كان الزوج طيباً حنوناً، ومثلها لم يكن قد أكمل تعليمه، لكن تولى الشغل بالمحل مع والده قبل أن ينهي امتحان الثانوية. لم تتأثر ماجدة كثيراً بحديث صديقاتها اللاتي أبدين الحسرة لأنها لم تتزوج ابن أحد وجهاء بيروت، وقنعت بهذا الشاب العادي، مع أن جمالها كان يؤهلها لأن تفتح المزاد وترسي العطاء على صاحب أكبر ثروة وأعلى ممتلكات، ومع ذلك كانت أحياناً تجنح لتصديق أن بختها لا يوازي جمالها.

كل هذا تلاشى بعد أن حملت وأنجبت نادية. نسيت الطموح وأحلام الصبا وتذكرت أن مصطفى هو الذي أولدها أعلى جوهرة؛ فأحبته وعاشت في خدمته.

مع اندلاع الحرب الأهلية قامت قوات الكتائب بإحراق المحل المملوك لمصطفى ضرغام والواقع في منطقة يغلب عليها الموارنة؛ ردّاً على اعتداء وقع ضد أحد المسيحيين في منطقتهم. بعد ذلك ساءت الأحوال المادية واضطر مصطفى لأن يفتح كشكاً صغيراً مجاوراً للبيت؛ حتى يوفر الطعام لأسرته الصغيرة المكونة من زوجته وابنته نادية الطالبة بالمدرسة.

مع اشتعال الحرب امتدت نيرانها لتصل إلى كل مكان، حتى إنها قسمت بيروت إلى شطرين غربي وشرقي، سرت البغضاء في النفوس وتقطعت روابط الجيرة، وأصبح لا يمضي يوم دون أن تحل نكبة أو أخرى بالعائلات التي كانت آمنة، حتى جاء اليوم الذي اضطرت ماجدة فيه ومعها ابنتها إلى مطالعة مقتل زوجها وأخته على يد أقرب الجيران.

بعد أن اختطفت اليد السوداء رب العائلة عاشت الأم مع ابنتها أياماً صعبة، واستطاعت -بمساعدة جمعيات الإغاثة- الوصول لمرفاً بيروت والانحسار داخل مركب أبحرت بهم مع مئات النساء والأطفال، ثم رست على السواحل الإيطالية.. ولا تنسى ماجدة البرد والألم داخل معسكر الإيواء لمدة أسبوعين قبل أن تقلهم الحافلة

وتدخل بهم الحدود النمساوية؛ حيث أعلنت حكومة المستشار برونو كرايسكي رئيس الوزراء الاشتراكي استعدادها لاستقبالهم.

لا تزال ماجدة تضحك على الحال كلما تذكرت أن ما عاش أبوها خائفًا منه، وهو أن تتزوج مسيحيًا قد حدث، ولم يكن مليونيرًا بيرونيًا أو وجيهاً من الجبل، بل أجنبيًا منحطًا ومن أرخص أنواع البشر، حتى إن المسيحية تتبرأ من أخلاقه.

(6)

كانت الأضواء خافتة في حديقة «شتات بارك» القريبة من دار الأوبرا، وقد هجرها معظم روادها إلا من بعض العشاق الذين كانوا يتهامون ويتبادلون القبلات غير عابئين بالعيون. في الحقيقة لم تكن هناك من عيون تتلصص على العشاق في مدينة فيينا إلا عيون العرب والأتراك الذين كان يطيب لهم التسكع في الحدائق على أمل أن تغمز السنارة ويخرجوا بصيد من أي نوع!

أسند عادل ظهره إلى شجرة وفتح دفتر مذكراته أو ذكرياته.. توقف عند صفحة وظل أمامها طويلًا.. يقرأ ثم يعاود القراءة، ولم يبذل جهدًا في منع جيشان مشاعره. من الجيد أن يستسلم الإنسان أحيانًا للنوبات العاطفية؛ حتى لا تجف مآقيه وتتبدل مشاعره.

قرأ ما كتبه وكان يعتزم نشره في مجلة الحائط التي كان يصدرها.. هذا كلام لا علاقة له بالسياسة، لكن من ذا الذي يسمح بالنشر؟! على أي الأحوال سأعود وسأكتب وأنشر لأن هذه حتمية تاريخية أو سنة الله في خلقه أو سمها ما شئت.. المهم أن دوام الحال من المحال.. هكذا كانت أفكار عادل وحديثه إلى نفسه وهو يفتح مفكرته ويقرأ:

«حلم الإنسان منذ الأزل هو السعادة، والسعادة في حقيقتها ليست سوى حالة كيميائية يبلغها المخ. وقد سعى الإنسان منذ بدء الخليقة إلى الوصول لهذه الحالة الكيميائية العزيزة، وفي هذا السبيل قام بطرق كل باب واتجه لتجريب كل شيء وكان على استعداد دائم لبذل كل غالٍ لأجل هذه الغاية. وفي الحقيقة إن كيمياء الدماغ هي إحدى معجزات الله في خلقه، وإنه لشيء عجيب حقًا هذا الذي يحدث داخل المخ البشري من تفاعلات تنقل الإنسان من حال إلى حال، وأعجب منه ما يحدث لدى أبسط خلل في النسب أو اضطراب في التفاعلات.. هنا يسقط الإنسان فريسة للاكتئاب وغيره من الأمراض النفسية.

جرب الإنسان الزواج والتناسل وتكوين أسرة فزادت مخاوفه على الأبناء من الطبيعة، ومن وحوش الحيوان والبشر. جرب الحرب والعدوان لحماية الأسرة فقتل وقتل، وسبى نساء العدو كما تم استباحة نسائه، وكانت النتيجة تعاظم جراحه دون أن يبلغ الطمأنينة المنشودة. ازدادت مطامعه بظن أن الامتلاك قد يكفل له السعادة، فراكم الأشياء وسعى للاستحواذ على ما لدى الآخرين، ولكن لم يزدده الشره إلا تعاسة.

أدرك الإنسان أن السعادة هي حالة روحية تأتي من الرضا فأقبل على الأديان يلتمس فيها الراحة والخلاص، لكن برز له الكهنة والوسطاء فأفسدوا صفاءه الروحي عندما تدخلوا بينه وبين ربه وأقاموا من أنفسهم جسورًا يتعين عبورها لدخول الجنة، ووضعوا للعبور رسومًا لا بد أن يدفعها المؤمن ليُسمح له بالمرور. المشكلة أن كل المحاولات التي جرت لنزع القداسة والعصمة عن الوسطاء باءت بالفشل؛ نتيجة شدة تغلغلهم في النفوس واستعداد الأتباع للدفاع بالروح عن أشد الناس فجورًا وبُعدًا عن الله. وهكذا استمر الأئنين إما تحت وطأة الأحبار والكهنة القادمين من عمق الآبار الجافة الذين يملكون أرصدة بالملايين ويحتلون عقول الناس ووسائل تثقيفهم وإعلامهم.. وقد ضاع مع هؤلاء وانقطع كل أمل في السعادة. ما الحل إذن لتعديل النسب الكيميائية في الدماغ من أجل جلب الراحة والسكينة؟

لجأ الناس إلى استخدام المخدرات الطبيعية من أجل تسكين الآلام والجراح، فلما لم تعد كافية قاموا بتخليق مواد جديدة لها على المخ تأثير كبير؛ إذ تمنح السعادة في غياب أسبابها! وهذا لعمرى أمر رهيب.. الحصول على السعادة في غياب أسبابها هو الخراب بكل معناه.. فما معنى أن يشعر الإنسان الذي رسب في الامتحان بنفس شعور الناجح؟ وما معنى أن يشعر المكلم في عزيز بشعور مَنْ رُزِقَ مولودًا؟ وما قيمة الفرح في دنيا لا وجود لها؟ لكن يبدو أن هذا هو كل ما بقي للإنسان الذي يريد أن يبتعد عن الانتحار هربًا من الملل أو من تحريض الكهّان!

ولكن أليس هذا أيضًا شكلاً مفاجئاً من أشكال القضاء على الحياة؟».

أغلق المفكرة وسرح في أمه الطيبة وأبيه الموظف المكافح وأخويه الصغيرين، ثم سرعان ما انتقل بتفكيره إلى الشطرنج الذي يمكن أن يكسب منه عيشه في هذه البلاد.

لعب الشطرنج لذيذ وملهم، لكن فكرة اتخاذه وسيلة لكسب الرزق فكرة غريبة، ولئن كان محمد يراه مصدرًا عاديًا للمال كغيره من المصادر؛ فإن عادل كان يشعر بوخز الضمير؛ نتيجة لعب القمار.. وهذا يختلف في رأيه عن الكسب في مسابقة تديرها الدولة أو المقاطعة، وهو يختلف حتى عن اللعب في كازينو القمار؛ حيث إن المكسب إذا حدث فإنه لا يكون على حساب تعاسة أحد يعرفه، بينما المقامرة المباشرة مع لاعبين آخرين تعني أن الفائز يكسر قلب المهزوم وقد يحرمه من مال كان مخصصًا لإطعام أسرة أو شراء الدواء للمريض.

كان عادل يُؤثر البقاء وحده بعض الوقت بعيدًا عن مشاحنات هذه الفرقة التي يقودها محمد أبو الفتوح والتي لا يجمع بينها أي شيء سوى الرغبة في الونس، ومن الغريب قدرة البشر على الشعور بالونس مع مَنْ لا يربطنا بهم شيء!

بعد أن تم طردهم من الفندق على إثر اكتشاف الإدارة أن الغرفة المفردة أصبحت تعج بفريق من بائعي الجرائد المشاغبيين، وجدوا أنفسهم يتجهون إلى محطة القطار التي تشكل المأوى النهاري للعاطلين. لمدة أسبوع كامل كانوا يبيتون في الحديقة المجاورة بعد أن يجلبوا صناديق الكرتون الملقاة خلف المحلات ويقومون بفرشها داخل أدغال الحديقة، وفي الصباح يغتسلون في المحطة ثم يشق كل منهم طريقه طلبًا للرزق، ثم يجتمعون في المساء قبل أن يهجعوا إلى الحديقة. ساءت نفسية عادل بشدة لأن النوم كانت مؤلمة للغاية ولم يكن معهم غطاء كافٍ، وكان من يملك بطانية يضع نفسه في النصف ليضمن الدفء، وكان عادل يفضل النوم على الأطراف فلا يصيبه من البطانية شيء. ثم حدث أن ساقته لهم الصدفة -بينما كانوا يتسكعون داخل أروقة المحطة- رجلًا باكستانيًا أخذ يتفحصهم عن بُعد كأنما يزنهم ويُقيّمهم، ثم اقترب وخاطبهم قائلاً: هل تبحثون عن سكن؟ رد عادل من فوره: نعم، نبحث عن سكن رخيص. كان عادل يحلم بغرفة تقيه حياة التشرذم التي فُرضت عليه، لكن شلناته القليلة كانت تمنعه من الحصول على غرفة بالإيجار وحده. التفتوا جميعًا حول أحمد الباكستاني وعرفوا منه أنه يمتلك عدة شقق في بناية قريبة يقوم بتأجيرها بالسرير، وأجرة السرير ثلاثون شلنًا في الليلة. وافقوا جميعًا عدا واحدًا استهول المبلغ وقرر أن يظل بالحديقة وينام بين أحضان الطبيعة على حد قوله (بعد فترة عاد إلى مصر مريضًا بعد أن لقنته الطبيعة درسًا قاسيًا).

طاف بهم الباكستاني على شققه الثلاث الموجودة ببناية في طريق «الجيرتل» بالحي الخامس عشر، وكانت أغلب الأسرة مشغولة.. قام بتسكين البعض ثم أخذ من تبقوا ونزل بهم إلى قبو تحت الأرض فتحة على ضوء شمعة، ثم خطا وهم خلفه إلى الداخل. وعدهم بأن يحضر كهربائيًا لإصلاح النور أو نقلهم إلى فوق فور أن تشغّر بعض الأسرة.

وجد عادل نفسه في غرفة لا حدود لحقارتها وقذارتها، ومع هذا فقد فرد جسمه على السرير في راحة، وكان قد اتفق مع الباكستاني على دفع الإيجار مقدمًا كل ثلاثة أيام

رغم محاولة الأخير الحصول عليه شهريًا. لم يكن وجوده مع هذه الشلة يسعده، لكنهم -على الأقل- يُحدثون ضجيجًا بدلًا من الوحدة والصمت. قنع بهم بدلًا من مواجهة صقيع الغربة وحده، فضلًا عن الكوميديا التي كانوا يُحدثونها عندما ينفجر بينهم الشجار بسبب سيجارة استأثر أحدهم منها بأنفاس أكثر من غيره، أو بسبب علبة بلوييف اجتاحتها واحد منهم ونقم عليه آخر؛ لأنه ما فتى يُذكّره بألا «يحف» وكان محمد أبو الفتوح هو صاحب الشعار المعروف في حالة الأكل الجماعي: «ماحدث يحف».

كان الرفاق الذين تناثروا في الشقق الثلاث المملوكة للباكستاني بالبناية من مقتنيات محمد أبو الفتوح وهو الذي جلبهم وعرفهم إلى بعضهم البعض، وكانوا عبارة عن خليط متنافر لا يجمع بينهم سوى الرغبة في عمل قرشين، منهم الفلاح الذي هجر الحقل وأتى سعيًا وراء الرزق ومنهم الصنایعي الذي ضاق به الوطن، ومنهم الطالب الطموح والخريج الذي يئس من فرصة عمل بمصر. وبقدر ما كانت صحبتهم صاخبة فقد كانت دافعة للتأمل؛ فهذا سامي أو سامي المعفن كما كانوا يسمونه، هذا الشاب حالة فريدة.. يُوجد معهم وكأنه يعيش وحده، سرحان على الدوام وكأنه يُحلّق في عوالم خاصة به، لا يتكلم كثيرًا ولا يستحم أو يغتسل أبدًا. الذين يعرفونه قالوا بأن بشرته في الأصل كانت بيضاء، لكن تراكم الهباب والأوساخ، ومخاصمة المياه منحتة «تان» وجعلته أسمر وسخ! وهذا مسعد أو مسعد الحرامي وهو اللقب الذي اكتسبه عن جدارة بعد أن شاع أمر سرقاته اليومية من محال الملابس والأدوات الكهربائية وغيرها، وقد اعتاد تصريف البضاعة المسروقة بين الرفاق بأسعار تشجيعية. الغريب بالنسبة لمسعد الحرامي أنه كان يتحرى وهو يشتري الطعام أن يشتريه من البقالات التي تزينها لافتة «حلال».. ولم يدر أحد من رفاقه ما إذا كان يغافل صاحب البقالة ويسرق من البضاعة أم كان يدفع ثمنها!

وهناك عزت السمكري ذو العضلات المنفوخة الذي كان يلاكم بالساحات الشعبية في قرى الدقهلية، والذي ترك لحام السيارات بالمنصورة وقدم على جناح الرياح إلى

فبينما يحلم بليالي الأُنس، كان مزهواً بعضلاته وحاول أن يفرض سطوته على المكان من خلال تهديد زملاء السكن، لكن عادل ومحمد أبو الفتوح كانا له بالمرصاد.. أخذاه إلى خارج المسكن، وعلى رصيف الشارع تناوبا شتمته وإهانته وأفهماه أنهما يعلمان أنه ابن حلال وغلبان، ولكن محاولات ظهوره بدور الشَّبِيح لن يترتب عليها سوى أن يضربوه بالجزمة، ثم يطردوه من الشقة لينام في الشارع! من وقتها عاد إلى صوابه وفهم مركزه وسط المجموعة، فانكمش وصرف النظر عن البلطجة، لكن ظهر منه وجهٌ جديد.. كان في حالة شبق دائم، ولم يكن يصمت عن الحديث في الجنس؛ لهذا فقد استمرت صولاته وجولاته في المدينة بحثًا عن أي أنثى من هؤلاء اللواتي سمع عنهن كثير من أصدقائه في الورشة بالمنصورة وفهم أنهن ينتظرن الفحل البلدي الذي يستطيع أن يشبعهن بعد أن ملوا من رجالهن الخائرين الذين ينقصهم المرق والدسم!

اكتشف عزت في واحدة من تلك الجولات عند محطة ترام (نيودوناو) الواقعة على نهر الدانوب.. اكتشف جسرًا يعلو النهر وحديقته الجانبية، ومن أجل ارتقاء الجسر والوقوف على رصيف المحطة كان يتعين صعود سلم ذي درجات معدنية واسعة، والمسافة بين كل درجة ودرجة تسمح للواقف على الأرض أسفل السلم أن يراقب السيقان والأفخاذ الصاعدة والهابطة. تسمرَّ عزت أسفل السلم وانتابته حالة من الهوس وهو يستعرض كل هذه المساحات من اللحم الأبيض التي لم يرها من قبل سوى في المجلات. عندما عاد عزت في المساء إلى الشقة العلوية استدعى سكان الشقق الثلاث ليحكي لهم عن اكتشافه الهائل.. قال في سعادة: اليوم قمت بكشف أعظم مما فعل كولومبو الذي اكتشف أمريكا. سأله محمد أبو الفتوح: اسمه كولومبو يا أسطى عزت؟ نظر إليه ولم يرد، ثم عاود: لقد اكتشفتُ سلماً مباركاً ترى من خلاله ما لا يمكنك أن تراه في مصر إلا إذا تزوجت على سنة الله ورسوله! تقف أسفله فتتفرج على مجموعة من الكلوات لا مثيل لها.. لقد غزت الأسواق مجموعة كلوات جديدة لا عهد لي بها.. ولاد الإيه لهم في الكلوات موزات مثل باقي الملابس.. لقد

طار صوابي مما رأيت.. مَنْ يعزمني منكم على العشاء الآن سأصطحبه غدًا ليشهد
معي ثورة الأفخاذ والمؤخرات!

منذ تلك الليلة صار الاسم الرسمي للأسطى عزت السمكري هو: عزت كلوت، ولقد
وفى بوعدده وقاد معظم الرفاق فعلاً إلى أسفل الكوبري وأراهم كنزه الثمين، فكان
منهم مَنْ يذهب للمكان من وقت لآخر يتسلى برؤية اللحم الأبيض العزيز، لكن عزت
الذي لم يكن يعمل استمراراً العيش على قفا زملائه، ولم تكن له شغلانة سوى أن يذهب
كل يوم منذ الصباح حتى غروب الشمس إلى الكوبري ذي السلم المكشوف، وكان
يحتقن ويستمني طوال الوقت!

لا ينكر عادل الذي ذهب في صحبة المجموعة أن هذا السلم بمثابة تسلية مجانية
بدلاً من دفع المال في مشاهدة فيلم سكس بالسينما، لكنه خشي من التعلق به
فيصبح مثل عزت المهووس الذي كان يود النوم هناك حتى لا يفوته أي مشهد بعد
شروق الشمس! لقد كان مما منح هذا السلم قيمته وأهميته لدى الشباب موضة
الميني والميكروجيب التي سيطرت على العالم تلك السنوات؛ لهذا فإن عزت أُصيب
بانزعاج حقيقي عندما أخبره محمد أن الموضة هذا الموسم ستكون البنطلونات
الشارلستون بدلاً من الجونلات القصيرة! وقد لاحظ عادل أيضاً أن شاطئ النهر أسفل
الكوبري على امتداد الحدائق المفتوحة يمتلئ بالطاولات الصغيرة التي يتحلق حولها
لاعبو الشطرنج؛ فلم يتردد في ترك جمهور الأفخاذ من رفاقه والدخول والمشاركة
في اللعب، وقد أمكنه أن يكسب مئة شلن بسهولة. عندما عاد إليهم طلب منه عزت
أن يدعوه على سندوتش هوت دوج. رحّب عادل لكنه رأى أن يُعلمه بطبيعة
السندوتش مثلما فعل معه أبو الفتوح في السابق. لم يتأثر عزت وأفتى بأن الخنزير
النساوي لا غبار عليه!

أما طه وهو زميل آخر بالسكن فقد كان رجلاً تبدو عليه سيماء الاحترام والوقار، له
شارب متميز، وقد أتى من طنطا بعد أن حصل على إجازة دون مرتب من وظيفته

كمفتش تموين.. كان أكبر الموجودين سنًا، ويمكن لمن يطالع الصورة من الخارج أن يتصوره بمثابة أب لهؤلاء الشباب الطائش، غير أن الحقيقة كانت خلاف ذلك تمامًا.. لقد كان طه الرجل المتزوج صاحب الخمسة وثلاثين عامًا، الأب لطفلتين جميلتين قد تفرَّغ في مدينة فيينا لعمل واحد لا شريك له.. البحث عن الرجال الشوان.. نعم، كان طه منذ مجيئه وإدراكه لصعوبة فرص العمل قد أخذ قرارًا بأن يبيع نفسه للرجال الذين تحفل بهم محطات القطار والأسواق المزدهمة.. عرف طه كذلك مقهى خاصًا بهم في الحي السادس عشر بمنطقة «أوتاكرينج» فكان يذهب إليهم في هذا المكان الذي يجلسون فيه على راحتهم، فمنهم من يرتدي فستانًا، ومنهم من يضع الماكياج النسائي، ومنهم من يضع مشدًا للصدر فوق قميصه! اجتذبتة دنيا الشذوذ فغاص فيها بكليته، وكان يأتي آخر اليوم مكدودًا ليحكى للمجموعة عن حصيلة اليوم.

الغريب أن الأخ طه كانت له تقسيمة لطيفة لأصحابه من المثليين.. فهذا مولدر العجوز، وقد تم تخصيصه لسداد السكن والطعام، وهذا أرنولد سائق الترام، وقد كانت مهمة ما يدفعه من نقود هي توفير الشوكولاتة والهدايا التي سيحضرها للبنتين في مصر، أما مايكل الشاب الصغير ابن رجل الأعمال فقد تولى أمر المدخرات التي سيعود بها للوطن.. وكان طه في بعض الأحيان -بينما هو في طريق العودة للبيت- يأخذ زبونًا على الطائر من الترام دون ترتيب، ويصدق أن يكون الزبون الطياري سببًا في شراء زجاجة عطر شيك لزوجته. لم يكن طه يخلط بين الزبائن، وكان يحرص على تمييز المخصصات التي يحصل عليها وتقسيمها بشكل متوازن، وقد انتوى أن يعود إلى مصر بعد مرور سنة من العمل المتواصل! أضحكهم طه كثيرًا من خلال ملحوظة أبدأها لفتت انتباههم بشدة.. قال لهم: أترون المعاناة التي نقاسيها في تعاملنا مع النمساويين في الشارع والسوبر ماركت والترام ومحل الخردوات وسوق الخضراوات؟ وكيف أننا لا نكاد نعثر على أحد يتحدث الإنجليزية في هذا البلد حتى نتفاهم معه؟ هل تعرفون أنه في دنيا اللواط لا يوجد شخص واحد لا يتحدث

الإنجليزية؟! إن ولاد العفاريت قد تزودوا بكل العدة التي تساعدهم على التقاط الصعاليك الأجانب من أمثالي وأمثالكم.

علا أكثر من صوت ردًا على كلامه: أمثالك وحدك يا بتاع الخو...

أطرف ما في موضوع طه اللواط أن زميلًا من رفاق الشقة هو حسنين أبو لبة، الشاب القادم من إحدى قرى الصعيد والذي يدرس الشريعة والقانون بالجامعة كان يستمع لحكايات طه وعيناه تكادان أن تخرجا من محجريهما.. الأخ حسنين له ثلاثة أشهر في النمسا يبحث عن أي أنثى أو أي ذكر ليضاجعه دون جدوى. كان يستمع يوميًا إلى حكايات الشواذ الذين تعج بهم المدينة وهو يكاد يُجن من فرط الحيرة.. إنه الوحيد الذي لم يقابل أحدًا من هؤلاء مطلقًا؛ رغم أنه يقضي بالشارع معظم يومه.

كان حسنين يقول لطه: خذني معك وأنا مستعد أن أحمل عنك ما يفيض منك دون أجر.. والله العظيم لا أريد أي فلوس، وكان يزيد: أنا موافق يا عم طه أن الرجل الذي «أقوم به» تقبض أنت منه الفلوس.. ما رأيك؟ كان طه يضحك من العرض، لكن يرفضه خشية أن يعرف زبائنه أن هناك من هو على استعداد للوطء المجاني، فيفقد سوقه وتختل منه الحسبة بعد أن توازنت!

استطاع محمد أبو الفتوح اقتناص فرصة عمل بجريدة الكورير وأصبحت أموره مستقرة بعد أن وصل لحافة الإفلاس، أما عادل فبعد أن ضعفت فرصه في الحصول على عمل في بيع الجرائد وجد عملاً في شركة دعاية وإعلان تقوم بتوصيل الإعلانات إلى الجمهور في منازلهم، وهي وسيلة إعلانية غريبة ومبتكرة وفعالة في نفس الوقت. كان عليه في الصباح أن يتسلم الصناديق المليئة بالإعلانات الورقية من مقر الشركة المجاور لـ«ناش ماركت»، وأن يتوجه بها إلى المنطقة التي اختاروها له

ليقوم بتوزيعها هناك تبعًا للخريطة التفصيلية التي توضح البلوكات التي في عهده. وكان عليه أن يصعد إلى البناية طابقًا طابقًا وأن يرشق في شُرَاعات الأبواب إعلانه على كل شقة.. البنايات في العادة في حدود ستة طوابق، وأغلب المباني في فيينا قديمة ولا يوجد بها مصاعد، وكان عادل يسابق الزمن لتوزيع أكبر عدد من الإعلانات حتى يزيد الأجر، فيظل منذ الصباح صاعدًا هابطًا حتى غروب الشمس.

في اليوم الأول لعادل بهذا العمل عاد إلى البيت محطمًا، وكل عضلة في جسمه تؤلمه من المجهود الشاق الذي بذله. في الأيام التالية كانت عضلاته قد تعودت وزال الألم. كانت طريقة الشركة في التحقق من وصول الإعلان هي قيام الشيف بالمرور بنفسه بشكل عشوائي، وأيضًا من خلال الاتصال التليفوني ببعض السكان والاستفسار منهم عن وصول الإعلان، وبطبيعة الحال كان يتم يوميًا الاستغناء عن الفهلوية الذين كانوا يلقون بالحمولة في أقرب سلة زبالة، ثم يعودون إلى البيت وينامون قبل أن يذهبوا في المساء لقبض اليومية!

استقرت الأحوال بشكل معقول بالنسبة لعادل وإن ظل في القبو المظلم مع اثنين من الرفاق، وقد فشلت محاولاتهم في حمل الباكستاني صاحب الشقة على تنفيذ وعوده بإصلاح النور، ثم اعتادوا الحياة على أضواء الشموع.

من الأشياء التي يذكرها عادل عن رفيقي الغرفة أنهما كانا من العشاق المتيمين صباية، ولكل منهما فتاة يحبها تركها في مصر، وقد سافر يبحث عن فرصة عمل تقربه من محبوبته، وكان الاثنان ومحبوبتهما يدرسون بمعهد التعاون بالقاهرة، ولا ينسى عادل أحدهما واسمه رمزي كان يسهر طول الليل يغني مواويل ريفية جميلة مليئة بمعاني الحب والسهد ولوعة الفراق وهو يضع صورة البنت بجوار السرير قبل النوم، وكانت شموع الغرفة تضيء على المشهد بالغرفة الوضيعة رومانسية من نوع خاص!

أما العاشق الآخر واسمه مدحت فكان يُخرج أقلام الرصاص والأوراق ويشرع على ضوء الشمعة في رسم صورة للمحجوبة.. وعلى الرغم من أن رسمه كان جيداً؛ فإنه لم يكن يرضى عن عمله ويقوم بتقطيع الصورة فور فراغه من رسمها، ثم يبدأ في رسم واحدة جديدة في اليوم التالي!

كان عادل ينظر لهذين الشخصين في دهشة ولا ينفك يفكر في حالتها، فلم يكونا مشغولين بالغليان الذي يمور به الوطن، أو صاحباً رأي فيما يفعله السادات بمصر ولا مفاوضات مع العدو الإسرائيلي.. لم يكونا مع أو ضد، وكأنما قد خلقها الله للحب والغرام فقط! ثنائي يمكن أن يُشكّل إلهاماً كبيراً لكُتّاب الدراما؛ لأنهما يبدوان كما لو كانا قد خرجا من أحد المسلسلات الإذاعية أو التلفزيونية التي لا صلة لها بالواقع وهدفها تسلية المشاهد وتنويمه.. وقد بلغت بهما الغرابة أنهما كانا الوحيدين اللذين لم يستجيبا لدعوة عزت كلوت للذهاب إلى الجسر والسلم الحلزوني؛ حيث السيقان والوراك بأنواعها.. ويبدو أن حبهما كان من النوع الذي يهذب الغرائز فعلاً ويوفر على العاشق الكثير من السلوك الرخيص.

وعلى قدر استياء عادل في البداية من وقوع العاشقين في قرعته بالسكن؛ إلا أنه مع الوقت أنس لهما، ويبدو أن الأقدار اختارتها لعادل حتى يعوضاه عن غياب التلفزيون! ذات مرة عثر عادل بالصدفة على شريط كاسيت في حوزة الأخ رمزي كان ينظر إليه بشوق ثم يعيده إلى حقيبته. فهم عادل أنه شريط من المحبوبة استلمه من مكتب البريد، ثم عجز عن سماعه؛ لعدم وجود جهاز كاسيت.. داعبه قائلاً: معك شريط يحتوي على جرعات من الحب والحنان وتعجز عن سماعه أيها الشقي التعس؟ رد رمزي في حسرة: ومن أين لي بجهاز كاسيت أسمع عليه؟ وحتى لو وجدت الكاسيت، أين الكهرباء في هذه الغرفة المعتمدة؟ ضرب عادل جبهته براحة يده قائلاً: وماذا عمن يأتيك بجهاز كاسيت يعمل بالبطارية أيضاً؟ هتف رمزي: أكون مدينًا له لآخر عمري.

كان عادل قد تذكّر أن مسعد الذي يسكن مع الشباب بالشقة العلوية والمعروف بمسعد الحرامي قد سرق جهاز كاسيت لا أحد يعلم من أين وعرضه للبيع فلم يتقدم أحد لشراؤه. صعد عادل للشقة وسأل عن مسعد؛ فوجده بالصدفة يتفاوض مع طه على بيعه ويطلب سبعين شلنًا، لكن طه عرض أن يدفع خمسين شلنًا فقط مع إرجاء الدفع إلى ما بعد عودته من طلعتة اليومية، كما طلب من مسعد أن يدعو له أن يعثر على زبون ابن حلال سخي يقوم بتمويل عملية الشراء. دخل عادل على الخط وعرض أن يدفع أربعين شلنًا مقابل الجهاز المسروق. قلب مسعد بصره بين طه وعادل، ثم أطلق سؤالًا ظنّه ظريفًا: وأنت يا أخ عادل، ستدفع الفلوس في الحال أم ننتظر حتى تعثر أنت أيضًا على زبون شاذ يموّل لك المشروع؟ رد عادل دون تفكير: لقد كنت على علاقة مع أمك في مصر وقد منحتني ما يكفي لشراء كل المسروقات التي تجلبها!

أسودَّ وجه مسعد من الغضب وتحرك ناحية عادل يهيم بالاشتباك معه، لكن هذا لم يتحرك وظل ينظر لمسعد الحرامي في عينيه بينما كان طه غارقًا في الضحك. نظر مسعد إلى طه وقرر أن يشاركه الضحك حتى يهرب من المواجهة، وأثر أن يتصرف كأن عادل قال نكتة لطيفة (وما المشكلة في التنكيت بين الأصدقاء؟!).. أخذ طه الأربعين شلنًا من عادل ومنحها لمسعد وانتزع الكاسيت من يده، فأمسك عادل بالبضاعة المسروقة ونزل إلى البدروم تاركًا مسعد والنار تخرج من عينيه وأذنيه وفمه!

أمسك رمزي العاشق بالكاسيت وهو يحتضن عادل من فرط السعادة والامتنان ودس الشريط فيه، ثم اتجه بعيدًا صوب النافذة، وطلب من رفيقي الغرفة أن يغلقا النور؛ لإضفاء جو رومانسي قبل أن يُشغّل الشريط بصوت خفيض ليسمعه وحده. وقع عادل على الأرض من الضحك؛ لأنه لا يوجد نور بالغرفة حتى يطفئه!

كان العاشقان رفيقا الغرفة مسليين فعلاً، وقد تشجع عادل في وجودهما على الغناء كثيرًا دون أن يخشى الاتهام بالإزعاج؛ لأن إحساسهما الفني كان عاليًا وحالتهما

الوجدانية سمحت لهما باستقبال غناؤه استقبالا حسنا، لكن ما حير عادل هو حالة الأنتخة والاستسلام للبطالة التي كانا عليها.. لم يكونا يسعيان بجدية للحصول على عمل، وكأنما أرادا أن يفشلا سريعا فيعودان إلى الفتاتين، وكفى الله المؤمنين شر بيع الجرائد! وما أكد له هذه الحقيقة أنه أخذهما معه لشركة الإعلانات، وبذل جهدا حتى وافق الشيف على تجربتهما، لكن للأسف لم يثبتا جلدًا أو قدرة على الاحتمال، وعاد كل منهما آخر اليوم باكيًا وهو يضع قدميه في ماء ساخن ولم يرجعا إلى العمل مرة أخرى! وحتى بعد أن فرغت أموالهما وأصبحا على الحديد لم يبدُ عليهما أي انزعاج، وأقبلا على طعام عادل يشاركانه إياه دون وجلٍ أو كسوف، وهو من جانبه كان يرحب بهما كأنه يُطعم قطين سياميين يربيهما ليحظى معهما بالونس!

مساء كل ليلة كان عادل يمر على الشقة العلوية حيث يتزعم محمد أبو الفتوح مجموعة من الرفاق الذين وقعوا في قرعته، وكان يأخذه لتمشيات طويلة في المدينة كانت مصدر راحة لكليهما. الوضع الآن مطمئن بعض الشيء بعد أن التحق كل منهما بعمل يدر عليه ما يكفي للسكن والطعام. دارت بينهما نقاشات حول كل شيء، وهو ما أدى لتعمق علاقتهما، وكان كلاً منهما وجد في الآخر الصديق الذي يحتاج إليه.

في القهوة المجاورة للبنية الضخمة التي تأويهم والواقعة بطريق الجيرتل جلس عادل مع محمد أبو الفتوح يستعرضان الموقف الحالي لكل منهما. قال محمد: كنت أنوي أن أعود مع بدء الدراسة إلى مصر.. هذا كان تصوُّري قبل أن أجيء، لكن الآن لا أعتقد أن هذا ممكن. كان المأمول أن أشتغل منذ أول يوم وأقوم بادخار مبلغ يكفي لمصاريف عام بأكمله لا أكون فيه عالة على قروش أمي القليلة، لكني لم أعتد على عمل إلا بعد أن غادر الطلبة وشغرت بعض الأماكن في الجريدة، فكيف أعود خالي

الوفاض؟ وما الفائدة من عام دراسي مليء بالقهر والحرمان؟ عقب عادل قائلاً: كلام جميل.. ابق معي يا رجل ولا تتركني مع هؤلاء الرفاق! إنني هنا في حكم اللاجئ دون أن تكون الدولة المضيضة على علم بوجودي!

وهنا برقت بذهن محمد فكرة عبّر عنها سريعاً: والله فكرة حلوة جداً، فكرة اللجوء السياسي.. كيف لم تفكر فيها من قبل؟ إنك لو قدّمت إلى السلطات هنا ما يثبت تعرضك للخطر حين العودة فلربما قبلوك كلاجئ ومنحوك مأوى آدمي وجُعلاً شهرياً فتستقر أمورك ويتلاشى شعورك بالخوف. بدا الضيق على وجه عادل مستنكراً الفكرة: لا أريد أن أكون لاجئاً.. أمني أن تتغير الظروف في مصر وأعود.. هذا غير أن قدرتي على إثبات الشر الذي ينتظرنني إذا رجعت مشكوك فيها، ولا تنس أن السادات صديق للمستشار النمساوي كرايسكي، وأنا بصراحة لا أريد لكرايسكي أن يعلم بوجودي؛ فقد يتهور ويقدمني هدية لصديقه!

ضحك محمد من الخيال الخصب وقال ساخراً: هم لا يفعلون ذلك هنا.. ربما في بلادنا ممكن.. ومع هذا فقد يكون معك بعض الحق؛ لأن السادات كثيراً ما يهبط في النمسا وهو في طريقه إلى أي مكان، ولعلك سمعت المصريين في مقر جريدة الكوريير وهم ما زالوا يتحدثون عن زيارة السادات العام الماضي إلى سالزبورج حيث التقى حينها بالشقيق عزرا وايزمان وزير الدفاع الإسرائيلي.. إن أعظم إفيه سمعته هو أن السادات كان معروضاً عليه من صديقه كرايسكي مكاناً مفتخراً لبيع الجرائد داخل محطة الويست بانهوف، لكنه رفضه!

قال عادل متصنعاً الدهشة: هذا المكان بالذات يشغله المعلم «عبده بيتا»، ويبيع ما لا يقل عن ستمئة نسخة في اليوم.. هل كانوا ينوون منحه للسادات؟ رد محمد ضاحكاً: هذا ما سمعته.. ثم أردف وهو ينظر نحو النادل بالمقهى: اسمع يا سيد عادل، إننا لم نأت هنا لنشرب القهوة والينسون، النفسية تحتاج إلى البيرة، هل تعزمي على بيرة أو أطلب لنفسني؟ أشار عادل إلى النادل وطلب كوبين من بيرة «لاجر» النمساوية.

- قل لي يا عادل، في رأيك هل هناك أمل في أن تحقق شعوبنا أي تقدّم حتى تصير مثل هذه البلاد، وكم من الوقت تحتاج لتحقيق ذلك؟

أمسك عادل ذقنه بيده كالمفكرين مُرَكِّزًا نظره على صديقه، ثم قال: ما هذه الأسئلة الخارجة عن المقرر يا أخ عفركوش؟ لقد تعودنا أن تكون الأسئلة في مستوى الطالب الحمار، لكن سؤالك هذا صعب، ومع ذلك سأجازف بالقول إن المسألة لا تتعلق بالوقت المطلوب.. إن مرور الزمن لم يزد بلادنا إلا تخلفًا، وما نحتاج إليه هو أن تتغلغل أهمية العلم في النفوس.. هذا هو التحدي الحقيقي.

- هل تعلم أنك سدّدت الطريق في وجهي بإجابتك هذه؛ لأن الناس في بلادنا تكره العلم بشدة وتراه مرادفًا للكفر؛ ذلك أن العلم هو الشك وعدم اليقين والتمحيص ووضع الأفكار تحت الاختبار، لكن العامة يحتاجون لليقين والطمأنينة، وهذه أشياء لا توفرها غير الموروثات التي يسمونها الثوابت.. هذه الثوابت هي سر تأخرنا.
- أبدًا يا أبو الفتوح، إن العامة قد تُجمِع على تقدير العلم أو أي أفكار أخرى.. قد تعتنق الاشتراكية أو الرأسمالية، قد تتدين وقد تنحي الدين جانبًا، كل شيء وارد فيما يخص العوام؛ بشرط أن يكون اعتناقهم هذا بشكل جماعي.. الجماعية تحافظ على الروابط الاجتماعية بين الناس وهذا ما يهمهم، وعندها قد يصير العلم من بين الثوابت التي يعظمها المجتمع.

- يبدو يا سيد عادل أنك تخلط بين العوام في بلاد الفرنجة ونظرائهم في بلادنا.. الناس هنا في الغرب يمكن أن تؤمن بأهمية العلم حتى لو كان حظ الفرد منهم من التعليم منخفضًا؛ لأنه يجد هذا المعتقد سائدًا بين قومه، بينما في بلادنا حيث يسود التواكل فإن الناس المسترخية اللذيذة تنظر بشراسة لمن يريد أن يوقظهم ويهمون أن يفتكوا به.. في بلادنا لا يريد الحاكم أن يقسر الناس على حب العلم؛ رغم الديكتاتورية والاستبداد والقدرة على تعبئة الناس في قوالب كما هو الحال في دول المعسكر السوفييتي، والسبب في ذلك أنه يحتاج لرجال الدين من أجل تثبيت ملكه،

وهؤلاء بضاعتهم الوحيدة لتدجين الناس هي نشر التفكير الخزعبلي.. إن مصيبتنا كبيرة جدًا يا رجل.

- يا ساتر يا رب، كن متفائلًا يابن أبو الفتوح ولا تزد الدنيا إظلامًا في وجهي.
 - عارف يا عادل، إنني في بعض الأحيان أرثي للغلبة والجهلاء في بلادنا وأشعر بالتعاطف الشديد معهم، لكن في أحيان أخرى أمقتهم وأحس برغبة في إشعال النار فيهم.. عندما أنظر إلى الطبقة الحاكمة وأفرادها المرفهين؛ أراهم جميعًا لا يؤمنون بالأديان، بل يسخرون منها في جلساتهم الخاصة، ومع ذلك يتظاهرون بالورع ليحتفظوا بالمكانة والمكاسب، وعندما أنظر إلى المتدينين صدقًا دون تمثيل أرى حالهم عجبًا، فهم يعتقدون بحرمة كل شيء جميل ونبل في الحياة، وهم يخاصمون الفنون ويرفضون حرية العقيدة ويؤيدون تزويج الطفلة الصغيرة وسبي نساء الصليبيين الغربيين، وأنا في الحقيقة في أشد الحيرة ولا أدري من يا تُرى الأولى بسهام كراهيتي واحتقاري.. الملحدون المترفون المتظاهرون بالإيمان أم المؤمنون بصورتهم المزرية؟
 - إن هذا الإيمان الرخو الذي تتحدث عنه يقتصر على الغوغاء، لكن هناك مؤمنون أفضل حالًا بكثير.
 - هذا هو الكلام الفارغ بعينه.. إنك لو واجهت أحدًا بالأفكار الحجرية التي يؤمن بها الغالبية لوجدته ينفي عن الدين بشدة أن يكون رجعيًا أو داعيًا للتعصب، وسوف يحاول أن يقنعك أن الدين الحقيقي عظيم ورائع، وليس به شيء عن تزويج الطفلة أو قتل المرتد أو تحريم الفن.. فماذا تخلص من هذه الإجابة؟
 - ماذا يا فضيلة العلامة؟
 - أن الإسلام الحقيقي الذي يرحب بالفنون ويصون الطفلة ويفزع من سبي النساء واغتصابهن، هو ذلك الدين الذي لا يؤمن به عموم المسلمين!
- كاد عادل يغص بالشراب في يده من شدة ما ضحك على أفكار أبو الفتوح التي داهمته هذه الليلة، وقال له وهو يأخذه من يده ويخرج به من المقهى: كن حريصًا يا

رجل ولا تتحدث بهذه الأفكار كثيرًا، أنت تعلم أننا في زمن العلم والإيمان وأن مَنْ يحكمنا الآن هو الرئيس المؤمن، وبالمناسبة فإن من ضمن أزرعه في الحكم برنامج اسمه «العلم والإيمان»، علاوة على برنامج آخر يذاع بعد صلاة الجمعة وتتعلق الجماهير حوله؛ لذا كن حذرًا.

ضحك محمد في استهانة: أولاً شكرًا على النصيحة، ثانيًا لقد سبق أن أخبرتك أنني أنتقي زبائني بعناية. سارا على الرصيف بضع خطوات، بعدها توقف عادل وأمسك معدته، ثم مال إلى جوار الحائط وألقى ما بجوفه على الأرض وهو يسعل بشدة. سأله محمد منزعجًا: مالك يا صديق؟ أجاب: معدتي الملعونة تلفظ الشراب وأنا أعرف هذا، لكنني أهوى أن أجربها من وقت لآخر!

أحس عادل بالراحة بعد أن تخلص مما يزعج معدته فمضي منتشيًا، وسمح لنفسه أن يشق سكون الليل ويرفع صوته بالغناء:

بعد اللي فات من زمان.. وبعد قلبي اللي خُنته وهان عليك..

راجع تقول اللي كان.. هو اللي كان أنت صُننته؟ يا سلام عليك!

مشى محمد إلى جانبه متمايلًا في إعجاب عبّر عنه قائلاً: يا سلام عليك أنت يا عادل يا عبد العزيز عندما تتسلطن وتغني قديم نجاة الصغيرة.. صوتك جميل وأحلى من كل أهل المغنى، لكنك مع ذلك قد تغني في الشارع إلى الأبد!

أشد ما أزعج عادل في هذا السكن أن دورة المياة كانت بالطابق الأعلى إلى جوار السلم، وهي خاصة بشقق الطابق كله، وكان يشاركهم السكن بالبنية القديمة جيران نمساويون ويوغوسلاف أزعجهم بشدة سلوك الشباب الذين لم يحرص بعضهم على

نظافة الحمام، واعتاد عادل عند خروجه في الصباح أن تتلقفه امرأة يوغوسلافية سميحة ذات شارب خفيف تشكو له من قذارة الحمام وتطالبه بتنظيفه، وعبئاً كان يحاول إفهامها بأنه بريء من التهمة، لكنها لمست خوفه من البوليس عندما انصاع فور أن هددته بإبلاغهم وقام بمسح الحمام. فهمت الملعونة أنه مصاب بعقدة من البوليس، ورغم جهلها بأسباب العقدة فقد استغلتها على نحو سيئ. كان عادل مستعداً لعمل أي شيء لتفادي الترحيل والعودة إلى مصر، وكانت الماكرة تهدد الشباب جميعاً بطلب البوليس فلا يباليون.. هو الوحيد الذي كان يستجيب للتهديد؛ مما جعلها تكمن له كل صباح. ظل الأمر على هذا الحال حتى ثار عليها ذات يوم وكان مزاجه متعكراً فتحداها وطالبها بإحضار البوليس وليكن ما يكون.. قال لها أيضاً: والله لو أحضرت كرايسكي نفسه ما مسحت الحمام مرة أخرى!

مضى عادل في هذا اليوم إلى مقر العمل، لكن حوارته مع المرأة العجوز ظل يرن في رأسه وأحس أنه أخطأ عندما تهور ودعاها لطلب البوليس. وجد نفسه ببساطة يركب الترام ويعود فيصعد للطابق الأول ويطرق باب العجوز فتفتح له، ودون كلام تعطيه أدوات التنظيف فيشرع في تنظيف الحمام مثل أي عامل مراحيض شاطر! ومع كل هذا الحرص فإن البوليس الذي كان يخشاه حضر بالفعل؛ ليس بسبب العجوز اليوغوسلافية وإنما لسبب آخر.

كان الرصيف أسفل البناية هو المحل المختار لثلاث من المومسات يقفن بجوار أعمدة النور كل مساء حتى تأتي الزبائن لالتقاطهن، وكان الشباب الذين يشغلون الشقق الثلاث التي يملكها الباكستاني.. كانوا في صعودهم وهبوطهم يناوشون أولئك النسوة وأحياناً يقومون بلمس أجسادهن، ثم يجرون إلى الداخل مشيعين بلعنات النساء.

كان يطيب لعادل في أثناء دخوله وخروجه أن يقف بالقرب من هاتيك النسوة يتأملهن ويفكر، لم تكن له أحلام مثل محمد أبو الفتوح الذي كان يتمنى أن يدخر ثمن

ليلة مع إحداهن ويأخذها ويغلق الباب، ثم يشرع في التهامها ببطء وهدوء.. أما عادل فكان يرغب في أن يدير حديثًا مع واحدة منهن فتحكي له عن حياتها، وتمضي في الحكاية حتى يضع يده على النقطة التي صار انزلاقها عندها نحو الخطيئة حتميًا، واعتزم أن ينشر الحكاية بعد أن يعود إلى مصر عندما تتغير الظروف.. وكان محمد يضحك من هذه الأفكار وينصح عادل بقراءة غادة الكاميليا أو مشاهدة أفلام يوسف وهبي وسوف يجد فيها الحكمة التي يبغونها، مثل مرض الأب ونزول البنت للإنفاق على العائلة، ولا يجب أن يغفل التفصيـلة المتعلقة بادعاء البنت أمام أهل الحـتة أنها تعمل ممرضة!

كان محمد يضحك ويقهقه من رغبة عادل في دراسة المومس نفسيًا، وكان يعتقد بصدق أن المومس قد خُلقت لكي يضاجعها مَنْ يملك ثمنها دون أن يتبادل معها أي حديث، وحجته في هذا الرأي أن التعاطف مع فتاة الهوى لن يجلب أي خير؛ لأنه سيجعلك تتردد فيما نويت أن تفعله، وقد يحملك على دفع المال لها وتركها لحال سبيلها، مع أن هذا لن يجعلها تتوب وتقلع عن الشغل، لكنه سيجعلها تتطلع لمغفل آخر! ما أثار انزعاج عادل في هذا الأمر هو أن محمد شبهه بزواج العصابير الكناريا اللذين يسكنان معه في القبو، وكان محمد يُسمِّي أحدهما «الكحيل»، ويُسمِّي الآخر «الكحول».

قال له محمد: يبدو أن سهرك في الليل مع العيلين العاشقين وسماعك لمواويل الغرام التي يطلقها الواد رمزي الكحول ابن الخايبة قد جعل قلبك يرق؛ حتى إنك تفكر في الكتابة عن العاهرات والعالم الذي ينتمين إليه في فيينا.. يا صديقي، إن أي واحدة ممن يقفن على الرصيف هي إنسانة طبيعية لها حياة عادية، وفي الغالب لها زوج وأطفال، ولا توجد مأساة في حياتها مما يداعب خيالك، إن الفكرة التي لديك هي عن مومسات القرن التاسع عشر، أما هؤلاء فليس وراءهن حكايات تنفـعك وتثير خيالك كشاعر أو صحفي أو كاتب.

بصرف النظر عن رؤية كل منهما وزاوية النظر إلى فتيات الليل؛ فإن الأمر تطور بالنسبة للشباب، وزادت جرعة التناول والتحرش بهن كأنهن مشاعًا يحق لأي أحد أن يلمسه ويقبله، وكان بعضهم يقترب من الواحدة من الخلف، ثم يحتضنها للحظات ويتركها ويجري قبل أن تفيق من الصدمة، وكانت صرخات الفزع الناجمة عن هذه الحركات مسموعة بوضوح في الشارع.

وللحق فإن عادل كان أكثر الجميع انزعاجًا مما يفعله السفهاء من جيرانه وزملائه، ولم يشاركه قلقه من هذا السلوك سوى محمد أبو الفتوح، أما الباقيون فقد تعاملوا مع الأمر بحماقة بالغة؛ إذ ظل بعضهم يكرر كلما تحدّث عادل معهم أن الواحدة من هؤلاء مجرد مومس بنت قحبة، ولا تستحق كل هذه الدوشة! كان عادل يعلم أن هاتيك النسوة لا يعملن في الشارع بشكل عشوائي، وإنما وراءهن مؤسسة تُقسّم العمل وتضع كل واحدة في مكان مختار، ولكل بضع نساء قواد محترف مسئول عنهن، وأن العبث مع هذا النوع من البيزنس عاقبته وخيمة.

صاح عادل محمد بمخاوفه، واقترح عليه البحث عن مكان آخر للسكن بعيدًا عن هؤلاء القروء الأغبياء.. كان أخشى ما يخشاه عادل أن يتدخل البوليس في الموضوع ويقوم بترحيل الجميع، كان الخوف يتملكه لدرجة القيام من النوم مفزوعًا وكأنه يستمع إلى طرقات الشرطة على الباب.. إن الترحيل والعودة إلى القاهرة لا تعني بالنسبة لعادل سوى السجن والإهانة.

ثم تطور الأمر على نحو درامي عندما قام شاب سفيه بصب صفيحة ماء عليهن من الطابق الثالث على سبيل الضحك والتنكيت. ابن الحرام لم يسكب زجاجة ماء، وإنما ألقى على النسوة صفيحة ماء ممتلئة! بعد دقائق كان البوليس يطرق الأبواب ويجمع الجوازات ويضع المصريين في سيارات انطلقت بهم إلى مخفر الشرطة، وهناك اعترفوا على زميلهم الذي أغرق المومسات بالماء، وكان ابن العبيطة حتى هذا الوقت غير مدرك لفداحة ما فعل، فكان يهزل مع المترجم المصري الذي حضر التحقيق

ويقول له: يمكنكم أن تحسبونها لها إصابة عمل وتمنحوها تعويضًا.. ولم يدر المغفل أن هذا هو ما حدث فعلاً، وأن التعويض كان يتعين عليه هو شخصيًا سداًه، فلما عجز دخل السجن!

سألوا عادل في التحقيق عما يفعل في النمسا، وكانت تأشيرته لا تزال سارية. ضحك كل من بالغرفة عندما أخبرهم بأنه موجود للسياحة. سألوه أي سياحة تلك وأنت تسكن في كهف تحت الأرض لا تدخله الشمس نهائياً، وليس به نور كهرباء!

أسفرت تلك الغارة عن ترحيل نصف المصريين الموجودين بالبنية لانقضاء صلاحية تأشيراتهم، وبعدها عرف البوليس المكان فكان يأتي في زيارات مفاجئة في أي وقت، ويأخذ معه أصحاب النصيب. كان تكرار الغارات البوليسية يحمل نذيراً سيئاً بالنسبة لمن تبقى من الرفاق، وخشي عادل وبعض زملائه من هذا الوضع؛ فقرروا هجر المكان الذي لم يعد مأموناً وتركوا السكن عند الباكستاني، ثم هاموا على وجوههم في الشوارع.

(7)

بذلت نادية جهداً كبيراً في إقناع أمها بتلبية الدعوة التي تلقتها على الغداء في بيت إيفا زميلتها في البار وزوجها راينر صاحب البار. كان راينر وإيفا يحبان نادية ويشعران بتقدير لمشوارها في الحياة، ومما زاد في محبتهم للفتاة معرفة راينر بظروفها العائلية ووقوعها ومعها أمها بين برائن هانز أورليش الذي كانت سمعته بين النمساويين سيئة، حتى إنهم كانوا يتساءلون كيف يظل هذا الرجل طليقاً ولا يدخل السجن؛ رغم ما هو معروف عنه من جنوح وارتكاب لجرائم الكراهية؟! وكانت المعلومات التي تصل إلى راينر تؤكد أن أورليش ضالع في نشاط إجرامي متنوع، وأن مجموعات من رجال الأمن والشرطة السرية تأتمر بأوامره وتحميه وتغطي على ما يرتكبه من آثام، حتى ليقال إن السياسيين يخشونه ويعملون حساباً للكتلة التي

تؤيده في الشارع من النازيين الجدد وحملة مشاعل العنصرية. لقد اعتزل الرجل السياسة بشكلها المباشر، وإن ظل نفوذه على الأتباع قائماً ومحفزاً على مزيد من التغاضي عن سلوكه؛ خشية فقدان أصوات أتباعه الجانحين. لم يكن راينر ولا زوجته إيفا يتحدثان مع نادبة بشأن ما يعرفان عن أورليش؛ حتى لا يزيداها رعباً من الرجل الذي تعيش تحت سقفه. عندما تقدمت لهم نادبة بطلب العمل في البار لم تكن تقصد بار دولفين بذاته، وإنما كانت تطرق أبواب المقاهي والمطاعم بحثاً عن عمل يساعدها على استكمال دراستها بالجامعة، ولما قبلها راينر للعمل عنده عهد بها إلى زوجته إيفا لتعليمها متطلبات العمل، ثم عرفت إيفا ظروف حياتها، وهو ما زاد الزوجين تمسكاً بها وإشفاقاً على ظروفها. إلى هذا الحد كانت شهرة أورليش في فيينا، ويبدو أن معرفة ماجدة زوجته وابنتها بالرجل كانت أقل بكثير مما يعرفه عموم النمساويين!

أعجبت ماجدة جداً بحديقة البيت عندما دخلت مع نادبة وتفقدت النباتات بحب وشوق؛ لأنها أرجعتها إلى ذكريات بيت أبيها في لبنان عندما كانت تزرع بيديها وتنسق أحواض الزهور. فتحت إيفا الباب مرحبة بهما، وكان راينر في الداخل مرتدياً مريلة ويضع فوق رأسه طرطور الطهارة.

من الواضح أنك تقوم بعمل طبق الإسباجيتي الشهير الذي حدثتني بشأنه إيفا كثيراً يا راينر.. هكذا تساءلت نادبة. وافقها راينر بهزة من رأسه وهو يتذوق الصلصة من القدر الذي كان يغلي فوق النار. كان البيت صغيراً، لكنه مريح وأنيق، والمطبخ يتوسط غرفة الجلوس، أما الطابق الأعلى فكان لغرفتي نوم.

قدمت ماجدة برطماناً من مربى التين صنعته خصيصاً لأجل إيفا، وحدثتهم عن صنع المرببات كجزء من التراث لعائلتهم في لبنان. في الحقيقة تذكر ماجدة أن صنْع المربى وأنواع عديدة من الجبن وحياسة الملابس وشغل التريكو وغزل الصوف لصنع البلوفرات.. كل هذه كانت مهارات أساسية تحتاج إليها الفتاة وتتزود بها في بيت أبيها؛ حتى تكون لائقة للزواج وتحمل مسؤولية بيت.

كأنك تحدثينا عن الفتاة النمساوية في بداية القرن العشرين.. علقت إيفا على كلام ماجدة، وأضافت: لقد كانت هذه هي الحياة هنا قبل أن تتعقد في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية وتصبح شبيهة بحياة الأمريكيين.

قالت نادية: هذا بالرغم من أن حياتكم هنا بالنمسا يا إيفا أقل تعقيدًا منها بدول الجوار، مثل: ألمانيا، وفرنسا.. يكفي أنكم هنا ما زلتم تعتمدون على الترام كوسيلة التنقل الأساسية ونحن على أبواب الثمانينيات، ولم تُدخِلوا مترو الأنفاق إلى العاصمة مثلما هو الحال في لندن وبرلين وباريس. رد راينر: إذا كنت تُعدين هذا من ضمن أسباب الأصالة فأنت مخطئة، والأمر لا يعدو أن يكون كسلاً من جانب الشعب والحكومة. عبرت ماجدة عن دهشتها من أن يُوصَف النمساويون بالكسل: ماذا تقول إذن عن شعوبنا في الشرق الأوسط التي تعرف القيلولة وتدخل الأرجيلة وتدمن السهر والحفلات الغنائية، ثم لا تقدم للإنسانية منتجًا يُذكر في مضمار الحضارة؟!

ابتسم راينر: لعلك لا تعرفين أن كل ما ذكرته يمثل بالنسبة لنا الحياة الجميلة التي لا نستطيع بلوغها، ومع ذلك أؤكد لك على كسل شعبنا قياسًا بالشعب الألماني.. أنتِ طبعًا تعرفين أننا نتكلم نفس اللغة، ومع ذلك لم نستطع أبدًا أن نكون دولة واحدة.. لقد انضوينا مع المجر في إمبراطورية واحدة؛ رغم أن لنا لغتنا وللهنجاريين لغتهم، ولم نستطيع أن نفعل الشيء نفسه مع الألمان؛ بسبب فارق السرعات.. هم أسرع وأنشط منا بكثير ولا نستطيع أن نجاريهم، ورغم كل ذلك فإن مترو الأنفاق سيدخل في يوم من الأيام بعدما تزدهم العاصمة ويعجز الترام عن الحركة بفعل تكدس السيارات في الشوارع.

كانت السهرة في بيت راينر وإيفا لطيفة ودافئة وكان الهدوء هو طابع المنطقة التي يسكنان بها قريبًا من نهر الدانوب في الحي الثاني والعشرين، وكان خلو البيت من الأطفال داعيًا لمزيد من المودة والسلام بين راينر وزوجته التي لم تنجب، فكان لها راينر كل الناس وكانت له بالمثل.

(8)

من الصعب جدًا بعد أن تحتويك الجدران الدافئة أن تعود إلى النوم بالشارع، ولكن هذا ما حدث. وجد عادل نفسه يعود إلى افتراش الحدائق ومداخل البيوت. بعد ذلك اكتشف ومعه أصحابه مبنى للطلبة الأفارقة والآسيويين يقع بالحي الأول أمام كاتدرائية «شتيفن بلاتز» الشهيرة، اتخذوه ملجأً لهم، فكان عادل يقضي النهار في العمل، ثم يعود إلى المقر الجديد فيجد الرفاق يلعبون الورق في كافيتريا المبنى، وقبل موعد الإغلاق بدقائق يصعد بهم إلى المطبخ في الدور الأخير فيختبئون به ويقضون ليلتهم نيامًا على أرضية المطبخ، ثم ينصرفون في الصباح مع فتح الأبواب. استمر هذا الوضع حوالي عشرة أيام، ولم يكن أحد يدري بوجودهم حتى استمر «مسعد الحرامي» القيام بفعلة لعينة.. كان يقوم في الليل ويفتش القدور والأواني، وبها طبخ الطلبة، ثم يلتهم ما يجده في طريقه، وكان يظل ممسكًا بالحلة حتى يفنيها، ثم ينتقل للتي تليها، ولم يكن يعرف نوع الطعام الذي يأكله من طبخ الطلبة، لكن لم تشغله مثل هذه الأسئلة.

لم يكن عادل يستريح أبدًا لوجود مسعد بينهم؛ لأن أخبار سرقاته من المحلات كانت على لسان الجميع، وكان مسعد نفسه هو مصدر هذه الحكايات، ولم يتحرج أبدًا من سرد تفاصيلها على زملائه؛ باعتبارها مدعاةً للفخر. النتيجة المحتومة لسرقة طعام الطلبة لم تتأخر كثيرًا، فبعد يومين فوجئوا بتجريدة تخرج عليهم في جوف الليل مسلحة بالعصي من الحراس والطلبة. من حسن حظ الجماعة أن الطلاب رثوا لحالهم عندما عرفوا أنهم طلبة مثلهم لا يجدون مظلة تأويهم، وتركوهم يمضون في سلام.

كانوا نصف نائمين عندما خرجوا إلى الشارع، وظلوا على سيرهم لما يزيد على ساعتين؛ حتى أصابهم الإعياء وأضناهم البرد، ولهذا فقد تبعوا القائد محمد أبو الفتوح عندما سحبهم وتوجه بهم إلى فندق «زوخ» المجاور لمحطة القطار من أجل النوم مهما كلفهم الأمر من مال. كان المكتب الأمامي خاليًا، ولا يوجد به أحد من

الموظفين في هذه الساعة من الليل. ظلوا ينتظرون لفترة من الوقت والرءوس تتساقط وهم جالسون في انتظار الموظف. لقد ذهبوا بسلامة نية من أجل استئجار مكان للنوم ودفع ثمنه، لكنهم وجدوا المكتب الأمامي خاوياً وليس به موظفون، وهنا فوجئ الجميع بمحمد يقوم بعمل مجنون؛ إذ مد يده فانتزع مفتاحاً من التابلوه، ونظر إلى رقم الغرفة ثم أشار للمجموعة أن تتبعه إلى أعلى فتبعوه كالمسحورين دون أن يفكروا في مغبة هذا العمل الجنوني.

فتح محمد الغرفة وكانت فسيحة وبها سريران كبيران. من شدة التعب استلقوا وأحكموا الأغطية، ثم راحوا في سبات عميق.

فيما بعد عندما فكر عادل في هذه الفعلة الحمقاء فإنه لم يصدق أنه شارك فيها، وألقى بالمسئولية على التعب والإرهاق البدني والنفسي، فضلاً عن صحبة السوء!

سمع عادل طرقات على الباب فظن أنه يحلم، ثم علا صوت الطرقات وتتابعت الدقات في سرعة بالغة. انتبه عادل وأدرك خطورة الموقف وسمع همهمات رفاقه في الظلام تطالب بفتح الباب، لكن أحداً لم يجرؤ أن يكون هو من يفتح الباب للطارق الثائر!

أخيراً تشجع محمد وقرر أن ينهض ويفتح الباب، وطلب من الآخرين أن يصطفوا خلفه ويقوموا قومة رجل واحد لمواجهة الطارق. قال عادل بانزعاج واضح بينما يزيح الغطاء ويضع قدميه داخل الحذاء: علينا أن نمنحه ما يطلب من مال ونصرف دون إثارة مشكلات تجلب البوليس.

ما كاد محمد يدير مقبض الباب حتى اندفع إلى داخل الغرفة ثور هائج شديد الضخامة تفوح منه رائحة الخمر أخذ يطوح قبضته في الهواء وهو يسب ويلعن بالألماني، وكانت ضرباته تجد طريقها لأجسام الشباب، فكان منهم من نال لكمة على صدغه، ومنهم من تناولها في بطنه، أما عادل فقد أصابته ركلة في قصبة رجله.

وأخيرًا بعد أن أشبع النمساوي الثائر رغبته في الانتقام أوقفهم في طابور وطلب منهم أن يتبعوه إلى مكتبه ليدفعوا ثلاثمئة شلنًا إيجار الغرفة؛ حتى يتركهم ينصرفون.

كانت الغرفة التي احتلوها هي آخر غرفة في نهاية رواق طويل، وكان مكتبه يقع هناك في أول الممر، فساروا خلفه كالقطيع وهو يعبر بهم ويمر بجوار الغرف المتراصة، لكن في منتصف الممر الطويل اكتشفوا وجود السلم الذي يفضي إلى الأسفل، ووجدوا صاحبنا النمساوي يعبر بجوار السلم ثم يتجاوزهم ويكمل الطريق وهم خلفه. وطبعًا كان أول من انحرف يمينًا في اتجاه الدرج هو محمد الجسور المجنون وتبعه بقيتهم واحدًا وراء الآخر، وعندما أحس النمساوي بهرج يحدث خلفه التفت ليجدهم يقفزون السلالم؛ فاندفع ليقبض على من يستطيع منهم قبل أن يفروا، وشاءت الصدفة أن يأخذ عادل في حضنه بعد أن فروا جميعًا. أمسك عادل من يده وحاول أن يلوي ذراعه ليشل حركته؛ فلم يستطع فاستشاط غضبًا؛ مما حدا بعادل إلى أن يستسلم ويمضي معه إلى داخل غرفة مكتبه. جلس الرجل في المكتب وطلب من عادل الأموال، فقام هذا دون أي مناقشة بإخراج المبلغ وسلمه له في هدوء وهو يدعو الله أن تمر الليلة على خير. فتح الرجل باب المكتب لعادل بعد أن أخذ الأموال.. ابتسم له عادل ابتسامة باهتة وحياه ثم انصرف. ما كاد عادل يخطو خطوتين في الممر حتى وجد الوحش المخمور يجري وراءه من جديد فأطلق ساقيه للريح وهو يلتفت صارخًا في الرجل: أما أخذت مالك؟ ماذا تريد بعد؟! لقد كنتُ بين يديك في المكتب يا ابن المجنونة؛ فلماذا تجري ورائي الآن؟ اندفع عادل وصار يقفز السلالم في دفعات إلى أن وجد نفسه عند باب الفندق، ففتحه وخرج إلى الشارع، وظل يجري مقطوع الأنفاس، حتى وصل إلى الحديقة المجاورة للمحطة، فوجدهم يجلسون على الأرض يضحكون وهم يستعيدون ما حدث. كان غضبه من محمد عارمًا؛ لأنه كان أول من جرى فشجع الباقيين ووقع هو وحده في يد النمساوي الضخم.

أخبرهم عادل بأنه دفع عنهم ثلاثمئة شلن، وطالبهم بنصيب كل منهم. أخرج محمد نصيبه فوراً وهو يعتذر ويُطَيَّب خاطر عادل الذي واجه الموقف وحده، ودعا الآخرين إلى دفع أنصبتهم؛ فأخرجوا جميعاً الأموال؛ عدا واحداً فقط هو مسعد الذي تنطع ورفض الدفع؛ متعللاً بأنه لم يرَ شيئاً، ولا يستطيع أن يجزم إذا كان عادل قد دفع فعلاً أم لا. ثاروا جميعاً على مسعد لنذالته الواضحة، لكنه لم يتزحزح وأقسم ألا يدفع لعادل مليماً.

استلقى عادل على الأرض وهو يشعر بغليان في نافوخه من قلة الأصل التي أبداها مسعد الحرامي، وظل يفكر ماذا يفعل مع هذا البلطجي الأثيم. إن عادل يريد أن تمضي أيامه في هدوء ولا يريد مشكلات مع أحد، وكان باستطاعته أن يضرب صفحاً عن الخمسين شلناً التي لدى مسعد، ومع هذا فقد نبهه غليان رأسه إلى أن سلامته النفسية تقتضي ضرورة أن يقتص من مسعد الحرامي ويعاقبه.

عند الصباح الباكر استيقظ عادل فوجدهم نائمين وبينهم مسعد يتوسد حقيبته الصغيرة، فاقترب منه وسحب الحقيبة من تحت رأسه، وفتحها بهدوء؛ فوجد داخلها جواز السفر وتذكرة العودة الخاصين به فدهسهما في جيبه، وألقى الحقيبة وذهب إلى محطة القطار، فاغتسل وتوجه إلى عمله.

بدأ عادل يضيق بالمجهود الكبير الذي يبذله في توزيع الإعلانات، فراودته نفسه أن يقوم -على سبيل التجربة- بإلقاء أحد الصناديق في القمامة، ثم تولى توزيع خمسة صناديق بحالها أخذت منه ثماني ساعات من العرق. في اليوم التالي كان نفس الشيطان الذي حركه بالأمس جاهراً ليقنعه بأن يقوم في هدوء بإلقاء صندوقين في القمامة ويوزع الباقي! عندما ذهب في آخر النهار ليقبض مسحقاته وجد أن أحداً لم يكتشف ما فعل؛ فزادت جرأته!

كان النوم في حديقة بعيدة وحيداً قد بدأ ينال من معنويات عادل.. وعلى الرغم من أنه شعر براحة لابتعاده عن الشلة المزعجة التي لا يستطيع السيطرة على أفعال أفرادها؛ فإنه تأثر بقضاء الأيام وحيداً في الأدغال المنعزلة، فأخذ في الأيام التالية يتسلم الإعلانات في الصباح فيأخذها ويمضي بها إلى أقرب صندوق قمامة ويلقيها جميعاً، ثم يذهب آخر النهار وبراءة الأطفال في عينيه ليأخذ حسابه! ولم يتفاجأ طبعاً عندما طرده بعد أسبوع عندما تحققوا من أنه لا يقوم بتوزيع إعلان واحد! في أثناء قضاء الليل في الحديقة ساهراً، فكر في أن يجرب حظه في مكان جديد خارج فيينا؛ لعل الظروف تكون أرحم، واتخذ قراراً بأن يعجل بالرحيل.

في الصباح التقى داخل الترام أحد أفراد الشلة، وهو سامي المعفن وهو يحمل ربطة الجرائد مرتدياً زي العمل. جلس بجوار عادل محيياً، ثم غرق في الصمت كعادته. بادره عادل بالسؤال: سامي، لماذا لا تستحم؟

لم يُبدِ أي غضب؛ رغم أنه لم يكن يتقبل هذا السؤال من الآخرين. قال: أنت حبيبي يا عادل؛ لهذا سأكون صريحاً معك.. أنا لا أستحم لأن الحمام يتكلف ثلاثين شلناً، وأنا أقوم بادخار كل قرش حتى أعود إلى مصر وأبدأ الحياة الحقيقية هناك. قال عادل ممازحاً: ربما تكون وقتها قد تعودت العفن وأدمنت رائحتك القذرة فتكمل الحياة على هذا النحو. رد سامي في زعر: هل تعتقد أن هذا قد يحدث فعلاً؟ ضحك عادل في ود قائلاً: ما رأيك يا سامي لو دعوتك إلى الحمام العمومي على حسابي؟ رد في إباء: مرفوض يا صاحبي.. أنا لست متسولاً لأقبل دعوتك، وليس عندي وقت لأفكر في شيء سوى عملي الصباحي في الجريدة و عملي المسائي في الجريدة الأخرى، ثم أردف: دعك من هذا الكلام الفارغ، وقل لي: ماذا تنوي أن تفعل في موضوع مسعد؟ إنه يبحث عنك طوال النهار والليل، وليس على لسانه سوى: والله لأذبحه عندما أعر عليه. ضحك عادل وأطلق صوتاً من الأنف يدل على الاستهانة: قل له طز فيك يا حرامي. قال سامي: أخبرني بحق: ماذا تنوي أن تفعل؟ أجاب عادل: بعد أن حطمت

أعصابه في الأيام الماضية وسويته على نار هادئة، سألقي إليه أشياءه وأخذ منه أمواله، ومعها اعتذار واضح ومذل.

نزل عادل ومعه سامي في محطة قطار «ويست بانهوف»، وكما توقع؛ وجد شلة الأُنس تقضي الوقت هناك، ولمح مسعد ممدداً يغط في نوم عميق على دكة خشبية وقد طالت لحيته، وبدا في هيئة متسول. علّق سامي: كيف ينام بهذا العمق وسط ضجيج القطارات والركاب والسويقة المنصوبة من حوله؟! رد عادل جاداً: اللصوص والأوغاد هم أكثر الناس تمتعاً بالنوم الهادئ العميق بعد أن خمدت الضمائر ولم تعد تقوم بوظيفتها المؤرقة!

اقترب عادل منه وقال ساخراً: اصحى يا مسعد، بابا جاب فاكهة. تشاءب مسعد ثم رفع رأسه، ونظر إليه غير مصدق، وبدا أنه محتار في كيفية التعامل معه، لكن الهدوء والثقة ونبرة السخرية في صوت عادل جعلت مسعد يحسبها جيداً؛ حتى لا تتعاطم خسائره. قال معاتباً: يا سيدي أنا مسامحك وعفا الله عما سلف.. أعطني باسبوري وتذكرتي وخذ الخمسين شلناً، ونرجع حبايب من جديد. قال عادل في صلف مقصود: لم نكن «حبايب» في يوم من الأيام، ولا أريد محبتك الآن، ثم إن المبلغ المطلوب هو مئة شلن؛ لأن هناك غرامة تأخير يتعين دفعها!

ثار مسعد وأرغى وأزبد وأشهد الحضور على الرفيق الذي توحش ويريد أن يفرض شروطه بقوة الأمر الواقع؛ فتدخل محمد وطلب من عادل الترفق، غير أن عادل كان شديد الإصرار، ولم يسمح لنفسه بأن تلين أو تتراجع. خرج سامي عن صمته المعهود، وقال: والله وعرفت من أين تؤكل الكتف يا عادل يا عبد العزيز، برافو عليك.. هذه الأشكال لا يصح التعامل معها إلا بطريقتك! انفعل مسعد بشدة وصاح في وجه سامي: حتى أنت يا معفن أصبحت تتكلم بالحكمة.. روح اغسل وشك الأول. أشاح سامي بيده وركن ظهره للحائط، وعاد يتأمل الأفق.

كان عادل يعلم بأن دفع المال هو أقصى شيء على نفس مسعد، ولهذا فقد قال: أنا مسافر بعد قليل ولن تروني مرة أخرى يا صحبة الشوم والندامة. قال هذا ثم أعطاهم ظهره ومضى.

جرى وراءه مسعد صارخًا: موافق موافق يا عم عادل، هاهي المئة شلن فأين أشيائي؟ تناول عادل الفلوس ونظر إليها مليًا، ثم أخرج من جيبه الخلفي الجواز والتذكرة، وأعطاهما لمسعد الذي تسلمهما في لهفة، ثم لَوَّح عادل لهم بيده، وأطلق قُبلة في الهواء قبل أن يبتعد.

لم يأخذ عادل حقيبته المودعة في خزانة بالمحطة، وقطع تذكرة إلى مدينة «سانت بولتن» وهو يشعر بانتشاء للنتيجة التي انتهى إليها صراعه مع مسعد الحرامي، وأعجبته صلابته في إدارة الموقف دون تراجع أو وجل. كان أكثر ما يحز في نفسه الابتعاد عن صديقه أبو الفتوح، لكنه غلَّب شعوره بالנקمة على مشاعر الحنين بعد أن تذكَّر فعلته في الفندق التي كادت تنتهي بمصيبة. هو يحتاج للهدوء والانزواء، ولا يحن للمغامرة أو المخاطرة.

قبل أن يركب القطار لحق به محمد أبو الفتوح وسأله عن وجهته.

قال: لا أعرف على وجه التحديد، لكنني أريد الابتعاد عن هؤلاء؛ لأن صحبتهم أصبحت فوق ما أطيق.. لا بد أن هناك نوعًا آخر من الحياة غير حياتنا هذه. إن عدد الجانحين يزداد بيننا، ونسبة المستعدين للقيام بأي حماقة تكبر كل يوم، ولا أريد الانتظار حتى تحدث لنا مصيبة على يد أحد منهم.. أنت نفسك يا محمد لم تعد نفس الشخص العاقل الذي ظننته، إن طيشك ونزقك كاد يكلفنا الكثير عندما أخذت مفتاح الفندق وجررتنا وراءك مثل الخراف.

ضحك محمد وأخذ يسعل من شدة الضحك: إنني نفسي لا أعرف كيف فعلت ذلك! ربما كانت زجاجة النبيذ التي شربتها في مطبخ الطلبة الأفروآسيويين هي التي

أذهبت عقلي، ومع ذلك فقد كانت تجربة لطيفة!

- لطيفة؟ أتقول لطيفة؟!
- هل نسيت يا رجل أنها حياة مؤقتة؟ إن هذه ليست حياتنا الحقيقية.. هذا طابع الحياة المؤقتة التي نعود بعدها لنستأنف الدراسة، ولعلمك، فمعظم زملائنا المتشردين -هؤلاء الذين تغضبك صحبتهم- أولاد ناس ولهم في مصر حياة مرفهة.
- لا أوافقك الرأي، فجانب منهم من الأشقياء أولاد الحرام، وحياتهم هنا امتداد لحياتهم هناك بشكل أو بآخر.. ومع ذلك فما عاد هذا يهم.
- كنت أود المجيء معك لولا أنني وجدت أخيرًا عملاً مستقرًا بالجريدة، ولا أريد أن أضحى به.

- وهل ستواصل النوم في الشوارع على هذا النحو؟
- ماله النوم في الشوارع؟ هل أصبحت فجأة من الأعيان؟ ومع ذلك اطمئن لقد وجدنا سكنًا في شارع «سلزاخ» في شقة يملكها مهاجر مصري، وهذا هو عنوانها. قال هذا ثم أخرج من جيبه ورقة كتب عليها العنوان وأعطاهها لعادل.. لقد تعرفت إلى الرجل بالصدفة في السوبر ماركت.. هو رجل أعمال يبدو أنه بدأ هنا من الصفر حتى أصبح ما هو عليه الآن.. سوف أنتقل لهذا المسكن اعتبارًا من الغد مع عدد من الشباب، وقد اتفقنا على استبعاد الحرامية أمثال مسعد، ولعل الإقامة تكون معقولة.

تذكّر عادل أمرًا فتساءل مبتسمًا: بالمناسبة.. ما أخبار رمزي ومدحت (الكحول والكحيل) أصحاب المواويل والعشق والغرام اللذين كانا يسكنان معي؟ هل وجدنا عملاً أو أن الحب ما زال يكفيهما؟

ضحك محمد قائلاً: عقبال أملتك.. لقد عاد العاشقان إلى مصر بعد أن تركتهما، ولم يجدنا من بعدك من يستمع إلى حكاياتهما ويُقدّم لهما الطعام.

قال عادل وقد تغيرت نبرة صوته: ليتني كنت مثلكم.. إن حياتي هنا لا تبدو مؤقتة، وإقامتي قد تطول.. إن من يخوض حياة التشرّد باستهانة هو القادر على العودة

لمصر وقتما يشاء، أما أنا فأمرى مختلف، ولا أدري هل أرى مصر مرة أخرى أو أموت هنا من البرد والجوع؟! عمومًا سوف أرسلك على عنوان مكتب بريد المحطة لأخبرك بتحركاتي.

جريدة الشرق الأوسط 27 مارس 1979

- بدأ عهد المواجهة والتحدي.
- وقّع السادات وبيجن المعاهدة واستعد العرب للرد.
- تظاهرات عربية أمام البيت الأبيض.. وتشكيك شامل بنجاح التنفيذ.
- مصر يوم توقيع المعاهدة: تظاهرات في جامعة عين شمس وطوارئ بين قوات الأمن.

زيارة بيجن للقاهرة الاثنين:

- الشعب المصري يُصدّم بها والحكومة قلقة لأسباب أمنية.
- يوم حداد ورفض المعاهدة المصرية- الإسرائيلية في العالم العربي والأراضي المحتلة.
- مصطفى خليل رئيس وزراء مصر لـ«الشرق الأوسط»:
- لا بد من موافقة مجلس الشعب قبل أن تصبح المعاهدة نافذة.
- لن نفرض مشروع الحكم الذاتي على أهالي الضفة والقطاع.

ثالثًا

(1)

لم تكن لعادل وجهة محددة.. لقد اشترى تذكرة حتى مدينة «سانت بولتن»، ومع هذا فقد خطر له -بينما يجلس بالقطار- أن ينزل في إحدى البلدات الصغيرة بعيدًا عن زحام المدن.. وفعلاً وجد هاتفاً يدفعه للنزول في بلدة اسمها «تولن شتات» لاحظ من نافذة القطار أنها محاطة بالخضرة ويشقها نهر الدانوب.. أعجبه المنظر فلم يتردد في النزول من القطار، ثم أخذ يتمشى على رصيف المحطة.

جلس في المقهى بمحطة القطار واحتسى كوبًا من القهوة، ثم خرج يتفقد الشارع. كانت بلدة صغيرة هادئة يخترقها نهر الدانوب، تنطق بالجمال، تمتلئ بالخضرة والورود، وبها فندق صغير سأل عن ثمن الليلة فيه؛ فوجد الأمر فوق ما يطيق. جلس على النهر يقرأ رواية «البيضاء» ليوستف إدريس، وتمنى لو استطاع أن يقضي العمر كله في هذا المكان. وبفعل الهواء العليل والاسترخاء فقد أخذته سنة من النوم؛ فلم يلحظ الخطوات التي اقتربت منه ولا صاحبها الذي جلس إلى جواره. عندما فتح عينيه أبصر شخصًا بجانبه يمسك بالرواية ويقرأ فيها. نظر إليه فوجده ذا شعر طويل منسدل وسن ذهبية، ويحتاج لقليل من التعديل ليصبح غوريلا!

عربي؟ جاء سؤال الرجل الغوريلا فأجاب عادل: نعم، مصري.

- يا أهلاً وسهلاً.. أنا أخوك محرز من المغرب.. ما الذي جاء بك إلى هذه البلدة الصغيرة؟ لقد تعودت أن أرى المصريين في فيينا فقط يبيعون الجرائد.

قال عادل: لقد ضاقت بي فيينا، وفكرت أن آتي إلى مكان أرى فيه وجوهًا جديدة، وأبحث عن عمل في أي شيء بعيدًا عن بيع الجرائد.

مد محرز بصره للأمام كأنما يسترجع ماضيًا، وقال: أنا هنا منذ ثلاث سنوات أعمل في مزرعة زهور، وقد أوشكت أن أنسى اللغة العربية من طول بعدي عنها. ضحك عادل قائلاً: هذا إذا جاز اعتبار كلامك هذا لغة عربية! نظر محرز نحوه بدهشة: ماذا يكون كلامي إذن؟! هل هو هندي؟! وكيف تفهمني إذا لم يكن عربيًا؟! ندم عادل على مسارعته بالتبسط مع الشاب وتراجع سريعًا: يا أخي أنا أقصد أن اللهجة المغربية صعبة علينا نحن المصريون لدرجة أنها تحتاج إلى ترجمة.

• هكذا أنتم المصريون، ترون أنفسكم محور الكون وتعتقدون أن العرب جميعًا لا بد وأن يتحدثوا لهجتكم.

• لعلك على حق يا أخ محرز، إن النفوذ الطاغي للهجة المصرية بفعل الأفلام والمسلسلات والأغاني ربما جعلنا لا نشغل بعرض فنون العرب الآخرين في التلفزيون المصري، وهو ما وضع حاجزًا بيننا وبين اللهجات العربية في المغرب العربي بالذات.. وعلى العموم أنا مستعد لتعرف التراث المغربي من غناء وأمثال وأشعار؛ إذا منحتني فرصة التعلم على يديك.

• وهل تنوي الإقامة هنا في تولن؟

• أعتقد هذا.

• وهل تعرف مكانًا تقيم فيه؟

قال عادل في مكر: هذا دور المعلم المغربي الذي سيأخذ بيد المصري المبتدئ ويدله على مكان للسكن.

بدا على وجه الشاب محرز نوعًا من الارتياح بعد وصلة الإطراء التي نالها.

فكر قليلًا، ثم قال: سأخذك الآن إلى امرأة تملك مجموعة غرف تقوم بتأجيرها لنرى إن كان لديها غرفة شاغرة من أجلك، ومن حسن حظك وجود مشروع إنشائي كبير

هنا بالبلدة؛ إذ يقومون ببناء مجمع سكني يحتاج إلى أيدي عاملة كثيرة.. غدًا آخذك لمشرف المشروع، ولعلمك معظم العمال هنا يوغوسلاف. قال هذا ثم أخذ يتطلع إلى عادل بتكوينه الذي لا يتناسب مع العمل في المعمار، فسارع عادل بتأكيد قدرته على أداء أي عمل.

توجهها معًا إلى مبنى صغير يضم مجموعة غرف أفقية متلاصقة ونادى «باتريكا»؛ فخرجت لهما امرأة شبيهاً ممثلة تحدّث إليها محرز؛ فاعتذرت بأن الغرف كلها مشغولة، فلما بدا عليهما خيبة الأمل استدركت قائلة إن لديها غرفة في الدور السفلي تستخدمها كمخزن، ومن الممكن إخلاؤها سريعًا ووضع سرير بها.

وافق عادل على الفور. بعد ذلك توجه مع محرز إلى مسكنه وشرب معه الشاي.

كان محرز يعيش في مسكن صغير من طابق واحد تحوطه مزارع الزهور التي يعمل بها، وقد منحه صاحب المزرعة هذا السكن منذ ثلاث سنوات عاشها المغربي المهاجر داخل البلدة، ولم يفكر في الخروج منها لزيارة المغرب أو حتى زيارة فيينا!

في المساء توجه عادل إلى صاحبة السكن، فصحبته للطابق السفلي وسلمته المفتاح، ثم تمت له ليلة سعيدة.

خطأ عادل داخل الغرفة فغشيته برودة غريبة وأحس برائحة عطن تفوح من المكان وأبصر بللاً يغطي الحوائط. لقد كانت الحوائط تنشع ماءً من شدة الرطوبة، ففضى عادل ليلة ليلاء على الفراش المبلل بالماء. كانت المرتبة رطبة واللحاف نديًا، وكان عادل يمنح الغطاء حرارة جسمه، فإذا تقلب وغيّر الوضع واجه البلل من جديد!

في الصباح مر على محرز فأخذه هذا إلى مبنى تحت الإنشاء وقدمه إلى كبير العمال الذي تفرس فيه باستهانة، وبدا أنه لم يتحمس له عندما قال لمحرز: لا يوجد عمل نحتاج إليه فيه الآن، لكن ربما تكون هناك فرصة بعد أسبوع. شعر عادل بالضيق، ومع

ذلك فقد شكر الرجل وعاد مع محرز الذي طلب منه أن يصبر؛ لأنه سمع أن بعض العمال سيرحلون إلى موقع آخر في بلدة مجاورة وأن أماكن هنا سوف تشغر. ذهب عادل إلى غرفته واستغرق في الضحك على الأيام التي جعلته يشعر بالسعادة والراحة لمجرد أن «الفواعلية» ربما يقبلونه للعمل معهم في فرصة قد تكون متاحة بعد أسبوع!

الإحساس بحرج موقفه ماليًا دفعه للتفكير في موضوع الشطرنج كوسيلة لكسب المال؛ لعلها تكون أرحم من كار المعمار والفواعلية الذي يحتاج إلى واسطة!

(2)

صديقي السكندري الجدع عادل عبد الرحمن

تحية طيبة

أنا في النمسا، وما زال معي جواز السفر الذي يرصعه اسمك الكريم. التأشيرة ما زالت صالحة حتى الآن؛ رغم انتهاء الجواز، وهذا أمر لا أفهمه ولا أريد أن أستفسر بشأنه؛ حتى لا أسمع ما يصدمني. النمساويون كرماء للغاية ويمدون التأشيرات للطلبة المصريين؛ بصرف النظر عن صلاحية جوازاتهم! من الواضح أنهم يحتاجون إلى المصريين بشدة لبيع الجرائد.

عادل، أحتاج إليك في أمر مهم؛ أريدك أن تذهب إلى البيت عندنا في الظاهر، وأن تطلب من أمي أن تعطيك كتاب الشطرنج الخاص بي واسمه «افتتاحيات الشطرنج». هو كتاب أجنبي مترجم. إذا لم تجده أمي بسهولة، أريدك أن تبحث في المكتبة داخل غرفتي وسوف تجده. خذ الكتاب وابعثه لي على العنوان الذي سأكتبه لك أسفل خطابي هذا. أحتاج إلى الكتاب لأذاكر وأتذكر وأعود إلى الفورمة في الشطرنج؛

لأن أبواب العمل هنا شبه موصدة، والأموال التي حصلت عليها من أعمال مؤقتة أوشكت على النفاد. لي صديق تعرفت إليه هنا اسمه محمد أبو الفتوح من هندسة عين شمس، قال لي إنني أملك صنعة ممكن أكل منها الشهد، وهي لعب الشطرنج بمال. توجد أماكن هنا لهذا اللعب في الحدائق وبعض المقاهي. سأجرب حظي معهم؛ لأن هذا هو ما يمكنني عمله، فالأعمال الشاقة مثل العمل في المعمار لا تصلح لي ولا أصلح لها، وحتى الجرائد، الفرص فيها شحيحة والمكسب ضئيل. إنني أحاول البقاء على قيد الحياة حتى يأتي اليوم الذي أستطيع العودة فيه إلى مصر.. وإن كنت أشك في أن شيئاً سيتغير. إذا ضاقت الأمور واستحكمت فلن يكون أمامي غير التقديم على لجوء سياسي هنا. لا أحد يعرف بهذه الأمور سوى محمد أبو الفتوح؛ لأن معظم من قابلتهم هنا وسكنت معهم لا يؤتمنون.

أنا أعلم أن إرسال الكتاب سيكلفك مالا، لكني أعرف شهامتك وأعوّل عليها.. والبركة في السيد الوالد، تاجر العملة، أدامه الله لك يا صديقي الجميل.

محبتتي.. عادل عبد العزيز

بعد مرور أسبوع عاود عادل الذهاب لموقع المشروع بصحبة محرز في الصباح الباكر، واستقبلهما رئيس العمال بوجه باسم؛ حيث زف إلى محرز البشرى بقبول صديقه للعمل في التنظيف.

كانت طبيعة العمل هي الجحيم بعينه بالنسبة لعادل.. كان المطلوب منه تنظيف المواقع التي يتم العمل فيها، وكنسها من الهدد والردم والأحجار والأخشاب والأتربة.. وآه من الأتربة التي لا يحتملها صدر عادل الحساس لذرات الغبار.

قضى عادل أيامًا لعينة في هذا العمل الشاق، وكان يعود للغرفة المُشَبَّعة ببخار الماء منهكًا؛ فيستسلم للإغماء حتى صباح اليوم التالي، ولم يكن يعزيه سوى المبلغ الكبير الذي كان يقبضه، خمسة آلاف شلن كل أسبوع، هو مبلغ يفوق مكسب العمل في الجرائد بمراحل شاسعة.

يا بخت أصحاب الأجسام القوية بعمل كهذا.. بوسعهم تكوين ثروة ثم التقاعد بعد ذلك! هذا ما كان عادل يقوله لنفسه بعد أن تسلم أول قبضية عقب مرور أسبوع على اشتغاله. كان يعلم أن استمراره مستحيل في عمل كهذا، ليس فقط لكرهته له، لكن لأنه لا يستطيع مجاراة هؤلاء العمال الجبابرة الذين من فرط المجهود الرهيب الذي يبذلونه؛ كان رئيس المشروع يسمح لهم بثلاث استراحات في اليوم من أجل تناول الطعام. وكانت صحبة العمال اليوغوسلاف بالنسبة إليه تجربة عجيبة، فلا هم يتكلمون الإنجليزية ولا هو يفهم لغتهم، ومع ذلك فقد نشأت بينه وبينهم لغة جديدة هي مزيج من الألمانية التي أخذها على ضمانتهم وبين لغتهم، لكنها -على أي حال- كانت وسيلة تفاهم أمكن له من خلالها أن يحدثهم ويضحك معهم. وبمناسبة الضحك فقد كان يعمل معه شاب يوغوسلافي مسلم صغير اسمه «علي» عرف أنه من مدينة تُسمّى سراييفو. كان علي خفيف العقل، يحب الضحك والهزار والمقالب، مع دلال يتمتع به في الموقع؛ نتيجة قرابته لرئيس العمال البوسني. كان هذا الشاب يميل لصحبة عادل ويبيدي ارتياحًا وهو يستمع إليه يغني طول الوقت في أثناء العمل، ورغم أن عادل كان يثير ضيق بعض العمال بغنائه المستمر؛ فإن عليًا هذا كان من المعجبين القلائل، وبطبيعة الحال لم يكن يفهم شيئًا من الغناء المصري؛ إلا أن المعاني والمشاعر التي حملتها أغاني عبد الحليم يبدو أنها وصلته، وذات صباح وقف في الطابق الثالث ونادى عادل الواقف بالأسفل، فلما التفت هذا إليه قذفه بحجر صغير شج رأسه وهو يضحك. وبعد عمل الإسعافات الأولية لعادل وتضميد جرحه سأل الفتى معاتبًا عن السبب الذي دفعه لهذه الفعلة الغبية، فأجاب علي وابتسامة عبيطة تكسو وجهه: «موس لاختين» يعني لازم نضحك.. فيا له من ضحك!

ومن الغريب أن هذا الفتى العبيط كان سببًا في بقاء عادل في العمل؛ رغم ظهور قدراته المحدودة وعدم إمكان مجاراة العمال الأشداء الآخرين.. لقد نوى رئيس العمال أن يستغني عنه ويسرحه، لكن شفاعة الفتى «علي» هي التي جعلته يُبقي عليه ويسند إليه عملاً آخر بعيدًا عن الهدد والأثرية، والأغرب أن «علي» لم يخبر عادل بما فعل، بل تصرف بنبل معه دون أن يطمع في جزاء أو شكر، وكان محرز هو مَنْ أخبره بحقيقة الأمر. في الواقع كانت لمحرز خطوط اتصالات بكل السكان والعاملين في البلدة الصغيرة، وكان يلتقي بهم في المطعم أو المقهى، وأحيانًا كان يستضيفهم عنده ويطهو لهم طعامًا مغربيًا؛ لذلك فقد أحبوه وصدقوا في محبته.

انتقل عادل للسكن في غرفة آدمية في مستوى الأرض وبها حمام مستقل، وهجر الكهف المبلول الذي قضى به شهرًا، وكانت نظرته لهذه الغرفة التي يسكنها في بلدة «تولن» بمثابة حلم تحقق، ولو أنه ظل في فيينا ما استطاع دفع إيجار حجرة بمفرده. إن فكرة الابتعاد عن العاصمة للبحث عن عمل وحياة هي فكرة طيبة، لكن الرفاق القادمين من مصر لا يفكرون إلا في القرب من بعضهم البعض وربط مصيرهم معًا، وهم على الرغم من الإحن والبغضاء التي تظهر في تنافسهم على أشياء تافهة؛ فإنهم لا يقدرّون على الابتعاد ولا يراعون الحدود في القرب، ويخشون أن يتغربوا خارج العاصمة كما لو كانوا من مواليد فيينا!

كان يصحو من الفجر ليتأهب للعمل ولا يعود إلا مع غروب الشمس وقد سمح لنفسه أن ينام كثيرًا ويستمتع بالفراش الدافئ؛ خاصة وأن الشتاء قد أوغل والعمل المضني لا يسمح بالسهر أو الذهاب إلى فيينا، وكانت نزهته الوحيدة هي المرور على محرز وتناول الشاي معه قبل العودة للغرفة.

خطابات محمد أبو الفتوح جعلته على تواصل معه وعلى علم بأخبار رفاق الشقة الذين عمل أبو الفتوح على تصفيتهم قدر الإمكان؛ ليستبعد منهم اللصوص والأندان، وكانت نوادرهم التي دأب محمد على كتابتها مصدر تسلية لصديقه في وحدته.

وبرغم أن الغرفة وفرت له استقلالاً وراحة، لكن ما أقض مضجعه هو جارته في الغرفة المجاورة.. امرأة يوغوسلافية شابة بها مس من لطف.. كانت تحدث نفسها من بعد المغرب إلى بعد منتصف الليل، وكان حوارها مع نفسها يشهد في جوف الليل فيعلو صوتها بالعتاب والملامة والشجار.. وكل هذا بلغة غريبة لا يفهم منها شيئاً؛ مما كاد يدفعه للجنون. كان محرز يعرفها منذ بدأت العمل في محل الزهور الوحيد في «تولن شتات». قال إنها طيبة القلب لكنها غريبة الأطوار، ويتردد بين النسوة اليوغوسلافيات في البلدة أنها مرت بقصة عاطفية فاشلة سببت لها ارتباكاً نفسياً.. قال محرز هذا ثم ابتسم موصياً عادل بأن يحتويها ويحاول إقامة علاقة عاطفية معها، فربما تهدأ وتستقر نفسياً. لم يجد عادل الفكرة سيئة؛ خاصة وأن المرأة المهووسة كانت تتمتع بوجه حلو لا يعيبه سوى الشارب الخفيف الذي لاحظ أنه يميز نساء شرق أوروبا وكأنه تقليد يتمسكن به، لكنه سأل محرز: ولماذا لا تحتويها أنت وتمنحها حنانك حتى تستكين وتكف عن الصراخ في جوف الليل؟ رد محرز جاداً: لا يمكن.. أنا خاطب ومرتبط في المغرب، ثم أخرج صورة خطيبته وأراها لعادل الذي لم يتمالك نفسه من السؤال: لديك خطيبة في الوطن ولم تنزل المغرب ولا مرة منذ ثلاث سنوات؟ ألا تخشى أن تنسأك خطيبتك أو تعرف غيرك؟ قال محرز: وهل لو لك خطيبة في مصر كانت تنسأك أو تتركك؟ قال عادل: لا أدري.

هز محرز رأسه وقد علت وجهه سحابة كدر: لقد تغربت وأتيت إلى هنا من أجلها، فكيف تنساني؟ قال عادل: إن البشر ليسوا أقوياء إلى هذه الدرجة يا صديقي. عبس محرز وبان عليه الضيق الشديد؛ فبادر عادل بالاعتذار قائلاً: إن هذا ليس من شأني، وأنت طبعاً أدري بظروفك.

فكر عادل في كلام صديقه المغربي حول المرأة جارتها، وتساءل لماذا لا يتعرف إليها ويصاحبها؛ فربما تمنحه بعض السلوى، لكنه مع ذلك خشي من أن يكون سببًا إضافيًا لتعاستها.

ذات ليلة وقد تصاعد مونولوجها اليومي، قرر عادل أن ينحي مخاوفه وأن يخطو الخطوة الأولى نحوها.. صحيح أن الحاجز اللغوي بينهما قد يعوق التواصل، لكن لا بأس من التجربة. قام عادل فتشجع ثم طرق بابها ووقف مبتعدًا قليلًا. فتحت له في غضب وتفرست فيه، ثم قالت له كلامًا فهم أنه يعني: ماذا تريد؟ تقدم منها في حذر ثم تشجع قائلاً: مساء الخير (قالها بالألمانية).. أنا جارك بالغرفة المجاورة، وقد لاحظت أنك وحيدة مثلي، فما رأيك في أن نتناول العشاء معًا؟ أنا أدعوك للعشاء بالخارج في مطعم البلدة، لعلك تعرفين أنهم يقدمون هناك وجبة الجولاش مع البطاطس.. أنا أعرف أن الجولاش أكلة مصدرها البلقان يعني من عندكم.. هل تحبين الجولاش؟ نظرت إليه وقالت كلامًا لم يفهمه. شعر عادل بالحيرة، لكنه لم ييأس وأضاف: من الممكن أن نذهب إلى الديسكوتيك أيضًا إن كنت تحبين الرقص. حدثها عادل عن الرقص وهو ينظر إلى قوامها الممشوق بعينين تعلوهما الرغبة التي اجتهد في إخفائها.. لقد كانت للحق تمتلك جسمًا رائعًا ووجهًا حلواً وإن كان ينقصه أن تزيل الشعر أسفل أنفها. تساءل عادل بينه وبين نفسه إذا كان يستطيع أن يقبلها ولها هذا الشارب! ظل عادل يشرح لها بالإنجليزي والعربي ولغة الإشارة، وهي ترد بكلام متواصل، ولا تكاد تتوقف حتى تعاود الرطن من جديد. ضحك عادل من الموقف العجيب، ثم قال لها بالمصري: يعني فيه أمل ولا لأ؟ فجأة علا صوتها وبدأت تضحك. ظل عادل واقفًا يتلفت حوله وكأنما يطلب الغوث، ثم استبد به الخوف فتركها وعاد سريعًا إلى غرفته وأغلق الباب بالمزلاج وهو يلهث مرددًا: آه يا بنت المجنونة.. يا خفي الألفاظ نجنا مما نخاف!

(3)

خرج عادل من غرفته في الصباح الباكر قاصدًا محطة القطار، فالتقى على بعد خطوات بجارته الحسنة التي خاف منها، وكان قد قرر ألا يعاود المحاولة معها مرة أخرى.. تجاهل وجودها ونظر في الأرض ثم سار سريعًا ليسبقها، لكن لدهشته وجدها ترفع صوتها ناحيته بتحية الصباح قائلة: «مورجن». أخذته المفاجأة ونظر ناحيتها ليتأكد أنها تقصده بالكلام فوجدتها تبتسم له. بادلها التحية والابتسام وهو في عجب من أمرها! بادرت به حديث فهم منه أنها تسأله إذا كان متوجهًا للمحطة، فلما رد بالإيجاب سألته أن تسير معه؛ حيث إن طريقهما واحد ومكان عملها يجاور محطة القطار. سار إلى جانبها وحزمة من الأسئلة تدور داخله عن دافعها من هذه المعاملة اللطيفة، لكنه مع ذلك لم يجد في نفسه رغبة لفتح حديث معها؛ فسار صامتًا، غير أنها هي التي تولت الحديث، فقالت كلامًا عن مصباح غرفتها الذي يحتاج إلى تغيير، وعن الحوائط التي تحتاج لدهان، وأدرك أنها تدعوه ليشاركها التحدث إلى مالكة المكان؛ حتى تقوم بالإصلاحات عندها وعنده أيضًا. أفهمها أنه لا رغبة له في إجراء أي تصليحات للغرفة؛ حيث إنها بوضعها الراهن تعجبه. لم يبدُ عليها الرضا من إجابته؛ فسارع إلى القول بأنه سيفكر في الأمر. فعل هذا حتى لا تغضب عليه؛ فتخرج منها العفاريات الكامنة التي رأى بعضًا منها! عندما وصلت لدكانها تبادلًا التحية ودخل هو إلى محطة القطار يسأل نفسه عن هذه المرأة التي لم تبادر إلى تحيته من قبل؛ رغم أنها كانت تراه.. فهل ما بها هو عبارة عن شعرة، ساعة تروح وساعة تجيء، أو أن رغبتها في كسب نصير في أثناء مفاوضاتها مع مالكة الغرف السكنية لتصلح لها حجرتها هي التي أوقفت الجنون وأوجدت سببًا للتفاهم؟!

يبدو أن الناس تتفاهم بصرف النظر عن اللغة عندما تصفو النفوس وتروق الأمزجة، أو لعل الحاجة والمصلحة تفعل ذلك أيضًا! ومع ذلك فقد ألزم نفسه ألا يعيد محاولة التودد إليها مرة أخرى.

انتهاز عادل فرصة مجيء يوم الأحد (يوم الإجازة الوحيد) ليهبط إلى فيينا التي ابتعد عنها لأكثر من أربعة أشهر، ورغم خلو حياته من الترفيه؛ فإنه لم يقصد العاصمة

بقصد التنزه، وإنما لبحث عن مكان في دنيا الشطرنج التي سيحتاج إليها قريبًا؛ لأن المشروع الذي يعمل به لم يتبقَّ له الكثير حتى ينتهي العمل فيه وبعدها سيجد نفسه عاطلاً، وقد شجعه على هذه الخطوة وصول الكتاب الذي أرسله له صديقه من مصر مع رسالة تطمئنه على الأهل والأصدقاء.

الجميل أن صديقه عادل عبد الرحمن دس له داخل صفحات الكتاب ورقة بمئة دولار بتصوير أنه قد يكون في حاجة إليها.. ما أروعك من إنسان يا عادل! هكذا حدّث نفسه.. لم يسعده المبلغ المالي؛ لأنه لم يعد في حاجة إليه، ولكن المروءة والمحبة التي أبدتها الصديق السكندري أسرته وسحبت دمعة من عينه.

أخذ القطار إلى «هيليجينشتات»، ومنها بالترام توجه إلى الحديقة المجاورة لمحطة ويست بانهوف وهي نفس الحديقة التي قابل بها الجماعة الأتراك عندما كان ومحمد أبو الفتوح يبيتان بين الأدغال. كان يأمل أن يجد برتينة اللعب منصوبة حتى يشارك فيها. وجد الحديقة خاوية على عروشها إلا من بضعة بؤساء كانوا ينامون في هذا البرد ولا يبين منهم سوى عيون تتطلع في خوف نحو صاحب القدمين الذي يدق الأرض جوارهم. سأل عادل أحدهم عن الأتراك الذين يلعبون الورق فقال له: لقد انتقلوا إلى حديقة ميدان رومان بلاتز بالحي العاشر؛ لأن داخلها مظلات تقيهم البرد والمطر، لكن الوقت ما زال مبكرًا على اجتماعهم وبدء مبارياتهم.

ركب الترام وهو في حالٍ من الضيق وقلبه مثقل بالهموم.. الأحوال في مصر لا تسر، والسادات نجح في إقناع الناس بأن معارضي الصلح مع إسرائيل هم أعداء الوطن الذين لا يريدون الخير للمصريين.. آه لو كانت الظروف طبيعية؛ إذن لعاد إلى مصر واستأنف دراسته مثل باقي زملائه. إن معظم من تعرّف إليهم عند قدومه قد رحلوا وغادروا النمسا بعد بدء الدراسة. لم يبقَ سوى قلة، أغلبهم ظهورهم للحائط، فمنهم الصايغ ومنهم الطالب الفاقد المستبيع الذي لا تعنيه الدراسة ومنهم الهارب من حُكم جنائي في مصر ولا ينوي الرجوع أبدًا.

الغريب أن الذين ينوون الاستقرار الأبدي في النمسا لدى أغلبهم أحلام في الزواج من امرأة نمساوية تضبط لهم إقامتهم وتجعلها مشروعة، ولكنهم مع ذلك لا يفعلون أي شيء يقربهم من هذا الحلم، فليس منهم من شرع في أخذ كورسات لغة ألمانية، وليس منهم من سعى لإكمال دراسته في إحدى الجامعات النمساوية، كما أن حالتهم الراهنة لا تغري أبدًا بالتعرف إلى امرأة طبيعية والدخول في علاقة حب معها تفضي إلى الارتباط والزواج. لقد كان النموذج الشهير الذي سمع عنه هنا هو مجدي زينهم، ذلك الأعرج البذيء الذي تعرف إليه محمد أبو الفتوح ثم سكن عنده في شارع السلزاخ. لقد روج مجدي بين المصريين لقصة كفاحه عندما أتى هنا منذ عشر سنوات.. كانت قصة الكفاح تتضمن علاقة الحب التي جمعته وزوجته النمساوية، وكيف نجح في بناء مشروع تجاري عبارة عن سلسلة محال سوبر ماركت في فيينا. كانت قصة حياة مجدي تلهم الشباب عندما يعيدها على مسامعهم ليلة بعد ليلة في أثناء زيارته لهم، وكان منهم من يحمل القصة معه في أثناء النوم؛ ليستدعيها في الحلم ويرى النمساوية الحلوة في أحضانه بعد أن تزوجته ومنحته الأوراق السليمة والثروة والمكانة!

وقد دأب مجدي على زيارة الشباب الذين يستأجرون منه الشقة تقريبًا كل ليلة، حتى إن محمد قد ضاق به وواجهه بضرورة أن «يخف» رجله قليلًا؛ حتى يمنحهم فرصة للنوم والراحة؛ خاصةً وهو يأتي في أي ساعة من الليل والنهار، وكأن له حقوقًا في المكان بخلاف تقاضي الإيجار!

ألطف ما في حكاية مجدي هذا أن الأستاذ طه في إحدى جولاته بالمدينة بصحبة أحد زبائنه الشواذ قد دخل دكان بقال في منطقة «شوتنتور»؛ ليشتري علبة سجائر، فوجد أمامه مجدي زينهم صاحب الشقة يبيع الجبن والزيتون، بينما تجلس على مقعد الكاشير امرأة عجوز كان باديًا أنها صاحبة المحل. فوجئ طه بالوضع؛ لأنه كان يتصور أن مجدي من رجال الأعمال الكبار في المدينة، وكان يظن أنه متزوج من نمساوية حسناء. ارتبك مجدي لرؤية طه أمامه في الدكان، غير أنه تماسك وهو يسلم

عليه ويقدم له زوجته «جيرترود». سلم عليها طه وحياتها بالألماني، ثم خرج من المحل وهو يضحك، وفي نفس الليلة قص الحكاية على الشباب وأخبرهم بحقيقة صاحب الشقة، وكانوا إذ يضحكون على قصة المهاجر الكذاب يتمنون أن يجدوا نموذجًا آخر ينامون على حكايته بعد أن فسدت حكاية مجدي وأصبحت لا تصلح للإلهام. إن من أشق الأمور على النفس أن هؤلاء الشباب لم يسعدوا بالكشف الذي أخبرهم به طه.. لقد كانوا سعداء بالقصة الكاذبة ولم يكن أي منهم يحب لها أن تخرب وتصير رمادًا، وكأنما كانت تمنحهم أملًا في أن الحياة الطبيعية في أوروبا ممكنة لأمثالهم!

كانت ملامح عادل تتقلص بين الابتسام والعبوس، والأفكار تمر على خاطره وهو يجلس في الترام، وقد حمد الله كثيرًا على أن محمد أبو الفتوح قد قرر أن «يفرقع» هذه السنة ولا يدخل الامتحان؛ ذلك أنه قد حقق الاستقرار في الشغل وأصبح له دخل ثابت، بينما العام الدراسي قد بدأ منذ فترة، وهو قد وجد في هذا العمل فرصة لعمل قرشين حتى يعود إلى مصر وهو خالي البال من مشكلات تدبير الفلوس للكتب وعمل المشروعات الجامعية، وحتى تكون له فرصة في مصادقة بنت دون الإحساس بقلّة القيمة! يبدو أن الفقر قد جرح كبرياء محمد وأهانته كثيرًا. يذكر عادل أنه قال لمحمد ذات مرة وهما يتحدثان عن الفقر في مصر: الحال من بعضه يا صديقي.. كلنا غلابة، لكن محمد ألجمه قائلًا: لكن أمك لا تخدم في البيوت يا أستاذ عادل! لم يعقب عادل على هذه الملحوظة، وإن كان قد أدرك أن محمد يخفي خلف الضحك والمرح المستمر نفسًا تكابد الحزن الدفين!

وصل عادل إلى ميدان رومان بلاتز ودخل إلى أحد المقاهي؛ حيث تناول الإفطار وشرب القهوة، وقبل أن يندمج في نوبة سرحان من نوباته التي لا تنتهي حيث يجتر الذكريات ويُقلّب الماضي ويفكر في الآتي، وبين هذا وذاك يتحدث إلى نفسه.. نعم، لقد ضبط نفسه أكثر من مرة يتكلم مع ذاته بصوت مسموع. قبل أن يترك لأفكاره العنان فوجئ بمن يضع يده على كتفه، فلما التفت له بادره هذا قائلًا: أنا أعرفك.. أنت

ابن الحرام الذي غلبني منذ عدة شهور وأخذ مالي. لم يتذكره عادل لكن أدرك أنه أحد الأتراك الذين التقاهم تلك الليلة. رحب به ودعاه لشرب القهوة، ثم سأله عن حفلات اللعب وأوقاتها. قال الشاب التركي: اللعب يبدأ هنا بعد الساعة مساءً، وأنا أعمل حلاقًا بصالون مجاور، وقد لمحتك وأنت تدخل القهوة وتذكرتك فأتيت لأسلم عليك. طالت الجلسة بينهما وتخللها الحديث عن الجالية التركية التي بعد أن ملأت ألمانيا فاضت على النمسا، وأنه قد ترك مدينته «بورصة» في تركيا، واستقر هنا للعمل بصالون الحلاقة الذي يملكه ابن عمه. أخبره أيضًا أنه أعجب بلعبه، ولهذا يراه جديرًا بالمشاركة في البطولات ذات الجوائز والألقاب. صارحه عادل بالوضع ولم يخف عنه رغبته في الكسب السريع من خلال اللعب؛ حتى لا يتشرد؛ فضحك «بيرام» وكان هذا اسمه قائلًا: إذا كنت تريد أن تمتهن شطرنج الشوارع فقد اخترت أشق مهنة؛ ذلك أن أخطارها لا تنتهي، وأضاف: أنا من محبي الشطرنج وقد عشقته منذ الصغر، لكني أعبه بالفطرة، أما أنت فيبدو أنك من الدارسين للمباريات والبطولات، وأحب أن أنبهك أنني أعرف كل الحقائق التي تدور بها المباريات، ورواها في الغالب من الأشقياء القادمين من دول البلقان، وقد اعتدت أنا وأصدقائي أن نذهب في جماعات؛ حتى لا يتعرض واحدنا للسطو والسرقعة بالإكراه، وقد فرض وجودنا الجماعي عليهم اللعب النظيف، أما بالنسبة لشخص مثلك فسوف تكون صيدًا سهلًا بالنسبة لهم.. أنا واثق من مقدرتك في الفوز على لاعبي الحقائق جميعًا، لكنهم في الغالب لن يسمحوا لك بالرحيل وجيوبك منتفخة بأموالهم.

شعر عادل باليأس من كلام الشاب التركي وأحس أن ما عوّل عليه في كسب المال يبدو أنه طريق محفوف بالصيع وأرباب الجريمة. لم يتركه بيرام لأفكاره وإنما قال له: هناك أكثر من طريق لكسب المال بسرعة، لكن بعض هذه الطرق تقتضي المخاطرة. نظر إليه عادل متسائلًا: مثل ماذا؟ فاجأه بيرام قائلًا: مثل الملاكمة.. ملاكمة الشوارع، وهي نظام ابتدعه أبناء أوروبا الشرقية الذين تركوا بلادهم وأتوا إلى هنا بحثًا عن عمل.. معظمهم فشلوا في الالتحاق بأعمال دائمة فاخترعوا

المراهنات التي تتم بشكل فوري والمباريات التي تدور في إحدى الغابات على أطراف المدينة. قال عادل هازناً: وأنت طبعاً ترى أنني بتكويني هذا أستطيع سحق الملاكمين البلغار والرومان واقتناص أموالهم.. يا خسارة، لقد تصورتك جاداً فإذا بك تسخر مني.

قطب بيرام بين حاجبيه وصاح غاضباً: ماذا بك يا أخ؟ أنا أحاول فتح الأبواب لك وأنت تسارع بالغضب؟ إنني ما قصدت بالنسبة لك أن تلاكهم، إنما قصدت أن تراهن على أحد الملاكمين لعلك تحرز بعض المال، وعلى أي حال هناك مسابقة ستقام بالغد وسأذهب لمتابعتها، إذا أردت الحضور تعال لأصطحبك إلى هناك وترى بنفسك. قال عادل مهزوماً: من الممكن أن أفكر في هذه التسلية في وقت آخر أكون فيه قد أمّنت على اللقمة والسقف الذي يأويني. نظر إليه بيرام وهو يفكر، ثم ضرب جبهته براحة يده قائلاً: وجدتها.. تذكرت الآن أن هناك في دنيا الشطرنج ما يناسبك، فهناك أماكن يمكنك فيها كسب المال بطريقة أفضل من لعب الشوارع وهي اللعب في المقاهي، وأنا أعتقد أن شطرنج المقاهي هو صيغة وسط بين البطولات الرسمية التي تنظمها البلديات وبين لعب الشوارع، وفي الواقع أنا لم أجرؤ على اللعب هناك؛ بسبب ارتفاع المستوى وقدرة اللاعبين هناك على سحقني.. إنهم يشبهونك في جرأتك ومبادراتك غير المتوقعة. انفرجت أسارير عادل وأحس بالأمل يعاوده من جديد، ولهذا لم يترك بيرام إلا بعد أن أخذ أسماء أكثر من مقهى دله عليهم هذا الشاب، وكان أشهرهم هو مقهى جرابين بشارع الكارتنر بجوار الكاتدرائية.

عزم عادل على اقتحام شطرنج المقاهي، لكنه أراد أن يستأنس برأي أبو الفتوح؛ فتوجه إليه في ميدان فلورزدورف؛ حيث يبيع الجرائد. لقد ظل على اتصال به طوال الفترة الماضية من خلال البريد، وكان إعجابه بالخدمة البريدية في هذا البلد كبيراً..

الخطاب يتم إلقاؤه في الصندوق صباحًا فيتسلمه المُرسَل إليه مساء نفس اليوم. كان محمد بالنسبة له اكتشافًا فريدًا.. المثقف الحزين الذي لا يكف عن ادعاء المرح، كما أن طريقته في احتواء الناس والنفاز إليهم على اختلاف أنواعهم كانت مثيرة للدهشة. كان على استعداد للخروج بحثًا عن زبون يسكن معهم، ثم يأتي به ويقدمه للآخرين على أنه صديقه! وكان هذا الأخير يصدق حكاية الصداقة هذه ويتعامل مع أبو الفتوح على هذا الأساس؛ لذلك فقد كان الوحيد الذي لم يدخل في خصومة مع أحد، وكان وجوده عامل تلطيف وسط أي جمع من المصريين في فيينا؛ رغم أن بعضهم كان شديد الأنانية والشراسة.

كان أبو الفتوح قد أنهى نوبة العمل وجمع أشياءه استعدادًا للرحيل، وفجأة وجد عادل أمامه. أخذته المفاجأة فأمسك بصديقه وشد على يديه غير مصدق ثم احتضنه في حرارة. استأذن منه ودخل إلى البقال المجاور حيث وضع عنده كومة الجرائد المتبقية وخلع جاكيت الجريدة، ثم عاد إلى عادل وسار إلى جانبه في الشارع يدخان، وكل منهما يلف ملابسه حول نفسه اتقاءً للبرد. لم يُخفِ محمد سعادته بهذه الزيارة، وخشي أن يكون وراءها أخبار غير سارة. طمأنه عادل وقدم له ملخصًا سريعًا لأحداث الفترة التي قضاها في تولن شتات.

قال محمد: يعني سيادتك تتأهب للعودة إلى البطالة بعد أن ينتهي العمل بموقع البناء؟

- لقد اكتشفت أنني لا أحب العمل.. من الجيد أن يجد المرء شغلًا لفترة محدودة توفر له ما يساعده على الحياة لمدة شهر، ثم يشتغل بضعة أيام من جديد وهكذا.
- اسمع أيها الفيلسوف الفقير، ما رأيك في أن تحترف العمل الوحيد الذي أنت قادر عليه والذي رأيته بنفسك تؤديه على أحسن وجه؟
- وماذا يكون هذا؟
- الشطرنج يا معلم، الشطرنج، ولا شيء غيره.. أنت وُلدت لتكسب عيشك منه، ولحسن الحظ فإن اللعبة منتشرة في كل أنحاء فيينا.. لقد كنت أظن أن حديقة الويست

بانهورف فقط هي التي تضم اللاعبين، لكني بعد ذلك عرفت مقاهي كثيرة يجلس بها حريفة المدينة، غير الجلسات على الدانوب في الصيف وأنت تعرفها جيداً.. كل هؤلاء يلعبون على فلوس، وبصراحة هذه هي فرصتك لتعيش عيشة البرنسات دون أن تضطر للاستيقاظ في الفجر لتبيع الجرائد.

- صمت عادل فألح محمد: اسمع كلامي يا ابن الناس، أنت موهوب، وتستطيع الفوز بسهولة.. لقد رأيتك بنفسك يوم أرجعت لي فلوسي من الأتراك.
- وهل تظن أن لاعبي المقاهي الذين تتحدث عنهم تسهل هزيمتهم؟ لا بد أن منهم جابرة قادرون على هزيمتي بفعل اللعب والتدريب المستمر.
- ولماذا لا تتدرب لتدخل في جو البطولات وتستعيد لياقتك؟
- الغريب أنه في بعض الأحيان يصدر عنك كلام معقول؛ رغم أنك تحيط نفسك بشباب من غرائب الطبيعة! في الحقيقة يا سيد أبو الفتوح إنني قد فعلت كل ما تقول.. تفقدت بعض المقاهي وأخذت نصائح لا بأس بها من أحد الشباب الأتراك الذين أرجعت لك فلوسك منهم ذات ليلة، واعتزمت فعلاً أن أشتغل لاعب شطرنج. لقد وصلني بالبريد كتاب للشطرنج كنت قد طلبته من مصر وأنا عاكف على الدراسة؛ عسى أن ينقذني الشطرنج من الصياغة والنوم في الشارع.
- هذه أخبار طيبة.. ألا تنوي أن تزورنا في شقة شارع السلزاخ؟ الشباب يذكرونك بالخير.
- سأزورك طبعاً، وإن كنت أفضل لقيامكم خارج السكن؛ لأن رفاقك يجعلون من المسكن زريبة!
- كما تشاء يا عم الشباب.
- بالمناسبة.. قل لعزت كلوت إنني وجدت له عملاً يناسبه.
- أي عمل؟
- مثلما يوجد هنا شطرنج الشوارع توجد مسابقات ملاكمة بالشارع أيضاً، ويمكن لهذا النطع أن يتكسب منها بدلاً من العيش على قفا زملائه.

(4)

جلست نادية بمكتبة الجامعة تطالع الأبحاث التي تنوي الاستعانة بها في كتابة الورقة التي تنوي تقديمها في نهاية الشهر، وغرقت في الاطلاع؛ حتى إنها نسيت الوقت. لقد اعتادت أن تتخذ المكتبة ملاذًا آمنًا في الأوقات التي تخلو من المحاضرات بعيدًا عن جلسات النميمة بين الزملاء والزميلات، وقد كان التفاخر على أشده تلك الأيام بالعلاقات الجنسية بين الطلبة والطالبات، وكان تغيير الرفيق من الأشياء التي لا تثير استغراب أحد! الاستذكار والتخرج ولا شيء آخر سيغير أيامها ويمنحها حياة تستحقها.. هذا ما كانت تفكر به حين اقترب منها واحد من أساتذتها الذين تستريح لحضور دروسه في مادة تاريخ أوروبا الحديث.. إنه البروفيسور عاطف جعفر النمساوي ذو الأصل العراقي الذي يتميز بلحيته الداكنة مع ندفة بيضاء أسفلها، ووسامة لا تخطئها العين؛ رغم سنواته التي تعدت الخمسين.

حياها الأستاذ فمدت يدها مصافحة فجلس أمامها ولم يشأ أن يزعج المتواجدين بالمكتبة، فقال في صوت خفيض: علمت أنك هنا فجئت لكي أتحدث إليك في أمر مهم. ابتسمت في فضول قائلة: تحت أمرك أستاذي. قال جعفر: أول شيء.. أحببت أن أهنئك بنجاح الثورة الإيرانية وخلع الشاه وفراره خارج إيران. شعرت نادية باندهاش لم تستطع إخفاءه، هي تعلم طبعًا بما وقع في إيران وصار حديثًا للعالم كله، لكنها لم تكن على عداء مع حكم الشاه، وبالتالي لم تكن تتحين فرصة خلعه! شعر جعفر بأفكارها فبادر: سقوط الطغيان في أي مكان من العالم هو خبر يستحق الاحتفاء، وقد يكون في هذا الحدث إلهام يمنح شعوبنا التعيسة أملًا في تغيير الواقع.

كان السرور باديًا على الرجل فلم تشأ إطفاء فرحته.. إنه في محاضراته لا يعرب عن آراء سياسية من هذا النوع، واليوم فوجئت بجانب في شخصيته بعيد عن التاريخ الذي يُدرّسه! لا بأس.. هي أيضًا تنتظر تغييرًا يقتلع رءوس الفتنة في لبنان ويحمل أمراء الحرب وملوك الطوائف بعيدًا عن أرض لبنان إلى حيث انتماءاتهم الحقيقية

في سوريا أو إسرائيل أو فرنسا! لاحظت نادبة أيضاً أن أستاذها -فضلاً عن صوته الخفيض- قد تحول إلى الحديث باللغة العربية؛ حتى لا يثير الانتباه حول حماسه للخميني ولثورته الكبرى.. وهذا طبيعي جداً؛ إذ إن الميديا الغربية بأكملها ووراءها أو ربما أمامها الرأي العام الأوروبي يشعر بالفرح من الخميني ويصوره على أنه هتلر الجديد.

قالت نادبة في محاولة للمشاركة: مبروك يا دكتور.

رد جعفر: مبروك لنا جميعاً، ومع ذلك ليس هذا سبب قدومي إليك.. إن الثورة قد أمدتني بطاقة وحماس وقد تكون شجعتني على التماس السعادة في حياتي الخاصة. صدرت عن نادبة حركة تفيد التملل وهي تتساءل: ماذا يكون إذن سبب بحثك عني؟

قال عاطف جعفر: سأحاول أن أكون مباشراً وأدخل في الموضوع دون مقدمات.. إن زوجتي وأولادي يقيمون في البصرة ولا يأتون إلى النمسا إلا في الإجازات وأنا أقيم هنا وحدي، وقد تأقلمت على الحياة هنا وعلى مجتمع البحث العلمي الحر ولا أستطيع أن أعود إلى العراق؛ حيث إن بلدي مقبل على أيام صعبة تحت حكم رجل اسمه صدام.. لعلك سمعت عنه؟ هزت نادبة رأسها قائلة: أعرفه من الأخبار طبعاً. مضى جعفر: ورغم أنني غير متورط في أي مشكلات سياسية من أي نوع؛ فإنني لا أظن أن زيارة العراق ستكون من ضمن أولوياتي في السنوات المقبلة، ولما كانت زوجتي لا ترغب في الحياة هنا؛ فإنني مضطر لأن أبحث عن زوجة تعفني وتعصمني من الزلل.

عند هذا الحد بدأت نادبة تشعر بالتوتر، وقد تجلى هذا في ردها: وما شأني أنا يا دكتور بهذه الحكاية كلها؟ إنني لا أعرف عنك أو عن غيرك من الأساتذة أي أمور شخصية ولا يربطني بهذا المكان إلا الدراسة فقط.. سارع الدكتور بالقول: أعلم أعلم

ولهذا قد وقع اختياري عليك لتكوني زوجتي.. لم أستطع التفكير في طالبة نمساوية ممن يُقمن العلاقات بسهولة ويُغيّرُن الحبيب بين لحظة وأخرى؟

ردت نادية في دهشة: وهل لا بد لرجل في مركزك وسنك أن يختار من بين طالباته؟ أقصد لماذا لا توسع دائرة الاختيار وتنتقي امرأة تكافئك في السن والمركز من المجتمع النمساوي الكبير، ومن بينهن عربيات لو كان هذا ما يشغلك.. لقد برقت في ذهن نادية وهي تقول هذا صورة أمها ماجدة.. هذا رجل ذو مركز، وإذا استطاعت أمها الخلاص من زوجها أورليش؛ فلربما كان عاطف جعفر هو الحل السعيد.

- في الحقيقة إنني لست مندمجًا تمامًا في المجتمع النمساوي؛ رغم السنوات التي قضيتها هنا، وعلى أي الأحوال التفكير في الزواج من فتاة شابة ليس به ما يعيب.
- أنا لم أقل أنه يعيب، لكن هناك اعتبارات كثيرة يجب أخذها في الحسبان؛ أقلها أن تختار الفتاة المناسبة.
- اسمعي يا نادية، إنني أتمثل سيرة رسولنا الكريم، ولعلك تعرفين أنه اقترن ببعض زوجاته وهن في سن صغيرة.
- أنا لست في مركز يسمح لي بأن أقرر للناس ما يوافقهم، أما الاقتداء بالرسول في هذا الأمر فأراه لا مؤاخذه يعني...
- فكري يا نادية في الأمر.. خذي وقتك ولا تتعجلي الرد.
- أوكى دكتور..

وعدته نادية بالتفكير؛ رغم أن قرارها قد صدر في الحال بالرفض القاطع، إنما أرادت ألا تصدمه؛ حتى لا يكون لهذا تأثيره على درجاتها.. صحيح أن المناخ الجامعي بالغرب يختلف عنه في بلاد العرب؛ حيث يستطيع الأستاذ التنكيل بالطالب دون أن يملك الأخير دفعًا للشر، ومع ذلك فقد قالت في نفسها إن الأستاذ العربي الذي تشكلت مجتمته حيث الاستبداد والقهر ليس من السهل أن يتخلص من الميراث المر بسهولة، وربما يجانبه الإنصاف إذا تأثرت مشاعره!

قبل أن يقوم عاطف جعفر قال لها: كلمة أخيرة يا نادية، من الواجب أن أخبرك أنك إذا وافقت فإن زواجنا لن يكون في دار التوثيق؛ حيث إن القانون لا يتيح لي زوجة ثانية هنا، وإنما سيكون من خلال عقد محدد المدة نوقعه معًا فيما بيننا.

ما كادت نادية تسمع الجملة الأخيرة حتى ضحكت واستمرت تضحك؛ حتى لفتت انتباه الزملاء القريبين؛ لدرجة أن أمينة المكتبة هرعت إليها توصيها بالهدوء، ولم تنس أن تنظر للدكتور عاطف نظرة عتاب.

كتمت نادية الضحك، وظلت تنظر إلى جعفر في دهشة، ثم قالت بصوت خفيض: يعني حضرتك تقصد أنك تريد أن تتزوجني زواج متعة؟

قال الدكتور جادًا: نعم، هذا ما أقصده.. ربما أن الاسم يحمل دلالات غير لطيفة بالنسبة للإناث، لكنه مصطلح فقهي لا غبار عليه وليس من اختراعي، وقد كان السلف الصالح...

قاطعته نادية بحدة: أي سلف وأي صلاح؟ اذهب يا دكتور لحالك، اذهب الله يسهل لك.. ابحث عن ركوبة أخرى بعيدًا عني، فلم تعد بالقلب طاقة على مزيد من النكبات!

(5)

في مقهى جرابين لا تسهل معرفة الليل من النهار، ورغم أن شبابيكه المطللة على الساحة كبيرة الحجم؛ فإنها كانت مغطاة بالستائر، وكان الطابق الثاني أكثر أناقة وبه بيانو تتبادل العزف عليه فتاة ورفيقها، ولكن شبابيكه تنسدل فوقها الستائر أيضًا. والسبب في موضوع الستائر هذا أن المقهى عندما ذاع صيته كونه مقرًا رئيسًا لهواة الشطرنج في فيينا؛ فإن المارة والسابلة كانوا يتوقفون على الرصيف ويتابعون المباريات من خلال النوافذ الزجاجية، وكان بعضهم يتحيز لهذا اللاعب أو ذاك،

ومنهم مَن كان يستبق اللعب ويشير على اللاعب بنقطة يقترحها. وبطبيعة الحال كان هذا النزاحم يزعج اللاعبين ويفقدهم التركيز، ووجد أصحاب المكان أنفسهم مضطربين لوضع الستائر الداكنة؛ حتى يوفروا للاعبين الهدوء ويحولوا بينهم وبين المتطفلين، وقد أدت الستائر التي حجبت الرؤية من الخارج إلى زيادة عدد الجمهور الراغب في المتابعة من داخل المقهى، وبالتالي زادت المكاسب وتعاضمت الأرباح، ووجد نظام المراهنات روافد مالية جعلته يستمر.

لم تكن بلدية فيينا قد منحت المقهى ترخيصًا باعتباره كازينو للقمار، لكن ذبوع صيت المكان وإقبال الجمهور عليه جعل البلدية تمنحه رخصة مؤقتة تكفل لنشاطه المشروعية، مع زيادة الضرائب عليه.

المراهنات ليست حتمية، فمَن أراد اللعب البريء يمكنه أن يتسلى مع أصدقائه ويدفع ثمن مشروباته فقط، أما مَن أراد أن يقامر بشكل خاص مع معارفه فكان المقهى يتقاضى منه رسمًا مقابل الشطرنج، وكان يتم إيداع مبلغ الرهان لدى الكاشير مقابل إيصال يحصل عليه اللاعبون، وبعد انتهاء المباراة يأخذ الفائز المال. يوفر المقهى أيضًا إمكانية التحكيم وتوفير مَن يجلس إلى الطاولة يتابع الالتزام بالقواعد، ولكن هذا المستوى كان خاصًا بالمراهنات الكبيرة التي يديرها المقهى بين اللاعبين المحترفين الكبار. وكان هذا النوع الأخير هو ما يبحث عنه عادل ويظنه ما يناسبه؛ ففي هذا النوع لا يدفع اللاعب شيئًا، وبالتالي لا يخسر شيئًا، وإنما الكاسبون والخاسرون هم الجمهور الذي يراهن على أحد اللاعبين مثل مراهنات سباق الخيل أو مراهنات كرة القدم. في هذا النظام يحصل اللاعب الفائز على مبلغ من المال يتناسب مع حجم المراهنات، كما ينال الخاسر مبلغًا أقل؛ أي أن ولوج هذا المستوى لا يتضمن أن يخاطر عادل بأمواله القليلة، ويضطر لو خسر أن ينام على الرصيف!

لكن مشكلة الاشتراك في هذا النوع أنك لا بد أن تكون معروفًا، ويكون لك وزن وقيمة بين اللاعبين والمتابعين؛ حتى تجد مَن يراهن عليك. لا مفر إذن من أن يشق

عادل طريقه مع الهواة بالمقهى؛ حتى يلفت انتباه المسئولين.

جاء عادل منذ الصباح في يوم إجازته إلى المقهى، وجلس يتابع اللعب حول أكثر من مائدة ومنح نفسه فترة كافية ليقوم بتقييم المكان ورواده قبل أن يبدأ اللعب. لقد قرر أن يأخذ الأمر بجدية بما أن اللعب سيكون وظيفته الدائمة، وكان كتاب الشطرنج الذي وصله من صديقه السكندري ذا نفع عظيم؛ إذ عكف على مطالعة الأدوار والخطط والافتتاحيات وأقبل على المذاكرة وكأنه مقبل على امتحان حقيقي.

في البداية لم يندفع في اللعب مع المتمرسين، وإنما اندس وسط الهواة، وبدأ أول مبارياته من خلال رهان شخصي مع أحد الرجال الذين جلسوا في مجموعة، وكان يتفرج شأنه في ذلك شأن عادل. اقترح الرجل على عادل رهاناً بسيطاً متمثلاً في خمسين شلناً. وافق وبدأ اللعب وكان عادل وحيداً، بينما غريمه في معية أصدقاء كثيرين. أحس عادل من البدايات أن الرجل من الوزن الخفيف.. صحيح أنه يحفظ الافتتاحيات؛ بدليل أنه بدأ بطريقة «الطابق الأستكتلندي»، وهي افتتاحية رصينة يحتاج من يبدأ بها لأن يكمل بنفس التعقل والهدوء. ظل عادل يتذكر هذه المباراة طويلاً؛ ليس لأنه أبدع فيها، ولكن لأنه كان لئيمًا؛ فسمح للرجل أن يفوز عليه ويكسب منه خمسين شلناً، بينما كان يستطيع هزيمته، لكنه فعل ذلك كقطع من أجل أن يغري الآخرين باللعب معه؛ طمعاً في سلب أموالهم! تكتيك مفيد لكنه غير أخلاقي. أحس عادل بعد هذه المباراة أنه يُقبل على دنيا لن يكون فيها هو نفسه. لقد قام في نهاية هذا اليوم وقد التهم ألفاً من الشلنات بعد أن لعب مع نفس الرجل مرتين أخريين ومع رفيقين له مرة ثالثة ورابعة.. لقد استدرجهم وأجهز عليهم بعد أن ظنوه صيداً سهلاً.

مضت الشهور وانتهى العمل في المبنى الذي ينجزونه في مدينة تولن، واستعد العمال للانتقال إلى مكان جديد بعد أن أخبرهم رئيسهم بوجود مشروع في مدينة

«لينز» سيبدءون العمل فيه بعد أسبوع.

كان عادل قد حسم أمره بأن رحلته في دنيا الفواعلية قد انتهت مهما كان المقابل المادي المعروض؛ لأنه بصراحة قد احتل الشهر الستة التي قضاها في المهنة كمن يصارع لينجو بحياته، لكن هذا الصراع لا يجوز أن يكون أبدياً.. معه الآن ما ادخره من نقود تكفيه حتى يعتمد تماماً على الشطرنج مورداً للرزق. اعتذر لرئيس العمال البوسني وشكره على الأيام التي قضاها بينهم كما شكر الفتى علي الذي أسدى إليه خدمة من النوع الذي يمكن أن يُطلق عليه «خدمة العمر» عندما توسط له ليبقى بعد أن انكشف أمره كونه شاباً متعلماً لا يصلح كثيراً لهذه الأعمال.

قضى عادل اليوم بفيينا مثل سائح حقيقي. لقد وجد نفسه غير مرتبط بعمل، ولا يعوزه المال؛ فقرر التنقل بين متاحف فيينا التي كانت قريبة دائماً، لكن يفصل بينه وبينها جبال من الهموم والمشاكل والإفلاس. اشترى كاميرا وطاف بمعالم فيينا وطلب من بعض الناس أن يصوروه بجوار الأماكن الشهيرة داخل قصر الشومبرون وقصر البلفدير. ليس هذا فقط، لكنه ذهب في المساء إلى دار الأوبرا وقطع تذكرة وحضر عرضاً موسيقياً شائقاً، استمع فيه إلى مقطوعات كلاسيكية لشوبان وموتسارت وشتراوس.

في هذا اليوم قرر الاتصال بأسرته في مصر؛ لأنه شعر بحنين شديد إلى سماع أصواتهم. كان يكتفي بالرسائل منذ قدومه إلى فيينا، ولم يتحدث إليهم تليفونياً سوى مرة واحدة بعد وصوله مباشرة. السبب الأول لعدم ميله للاتصال أن منزلهم لم يكن به خط تليفون؛ رغم أن أباه قدّم طلباً إلى سنترال رمسيس منذ منتصف الستينيات! لهذا كان عليه أن يطلب الجيران لينادوا أمه، وأما السبب الثاني فهو أن المكالمات بما فيها من حميمية كانت تجعله لا يتمالك نفسه من البكاء عندما يسمع أمه تبكي. اليوم تحدث وسمع صوت أمه كما سمع صوت أبيه، وقد تحقق ما يخشى منه. بعد أن وضع سماعة التليفون وغادر الكابينة انخرط في البكاء.

لم يشأ أن يعود إلى مسكنه في بلدة «تولن»؛ لعدم ارتباطه بشيء هناك، كما لم يكن متأكدًا من موعد آخر قطار. قادته قدماه إلى شارع «سلزاخ»؛ حيث يسكن محمد أبو الفتوح مع مجموعة الشباب الذين تم تجميعهم ليكملوا النصاب القانوني الذي اعتاد أن يعتمد عليه لتقسيم الإيجار على أكبر عدد ممكن من الرفاق.

دخل عادل إلى البناية، فتناهدت إلى سمعه وهو يصعد السلم أصوات صاخبة صادرة من الشقة. طرق الباب فخرجت سحابة من الدخان، يقف خلفها أحد مقتنيات محمد أبو الفتوح من الشباب. ألقى التحية، ثم أعاد النظر إلى الشاب الذي فتح له الباب: مَنْ؟ أنت؟ سيد الأستاذورجي من ميت بدر حلاوة؟ ماذا تفعل هنا بحق الفراخ الشمورت؟ تفرّس فيه سيد، ثم أطلق صيحة فرح واحتضنه كأنه صديق قديم.

فعلًا، في الغربة وبسبب افتقاد الأهل والأصحاب الحقيقيين فإن أي شخص قضيت بصحبته ربع ساعة منذ عدة شهور يُعد معرفة قديمة تستحق الاحتفاء!

دخل عادل فوجد نفسه في المطبخ ووجد الحوض مليئًا بالأواني وبقايا الطعام والسجائر المطفأة في الأطباق.. حالة من القذارة غير طبيعية. والغريب أن أبو الفتوح كان مستغرقًا في النوم، بينما تقام على الأرض بجانبه «بولة كوتشينة»، والرفاق يلعبون الورق في صخب ولا يلتفتون لأي شيء؛ حتى إنهم لم يلحظوا دخول عادل ولا الهرج الذي أحدثه التقاؤه بسيد الأستاذورجي، وحتى عندما شرع في إيقاظ محمد فإنهم ظلوا على انهماكهم في اللعب.

كان عزت كلوت يلعب الورق مع سامي وحسين أبو لبدة. أخذ عادل ينغز محمد المستغرق في النوم نغزات متتالية؛ حتى فتح عينيه وأبصر صديقه فوق رأسه. تأمل عادل وانفجرت أساريره، ثم احتضنه في صمت واعتدل على السرير؛ فرأى الشباب يلعبون؛ فصرخ فيهم قائلاً: هاهو عمكم عادل يزوركم يا غجر وأنتم لا تحفلون به وتواصلون اللعب! انتبهوا على صيحة محمد ونظروا فوجدوا عادل يجلس إلى حافة السرير؛ فاندفعوا نحوه وأشبعوه عناقًا وتقبيلاً، وقال عزت موجهًا الحديث لمحمد: لا

تظن أننا كنا مساطيل ولم نشعر بدخول أحد إلى الشقة، كنا واعين، لكننا ظننا أنه مجدي زينهم صاحب الشقة المصري الذي يأتي إلينا في أي وقت في زيارات لا تنتهي، وكأن هذه هي نزهته الوحيدة في الحياة!

نظر عادل إلى محمد متسائلاً وهو يشير إلى سيد: أين عثرت على هذه الجوهرة المكنونة؟ ضحك أبو الفتوح: هل تعرف أبو السيد؟ رد عادل: أعرفه قبل أن أعرفكم جميعاً.. لقد حضر معي في نفس الرحلة، ثم تركني ليذهب إلى رفاقه من ميت ورد حلاوة.. أيرضيكم أن يتركني ليذهب إلى أناس من ميت ورد حلاوة؟ سدد أبو الفتوح نظرات عاتبة إلى الأستاذ جرجي: هل فعلت هذا حقاً؟ ارتبك سيد ظاناً أنهم يلومونه بشكل حقيقي، وتلعثم وهو يخرج أصواتاً خالية من المعنى. وهنا زاد عادل في العتاب قائلاً: لقد استهان بي وبلدتي وفضل عليّ أبناء ميت ورد حلاوة، ولم يفعل هذا إلا بعد أن عرف أنني من ميت ورد كثافة.. وهي من وجهة نظره بلدة ليست ذات شأن! صرخ محمد: يا لهول ما فعلت! أتستهين بأبناء ميت ورد كثافة وهي التي ينحدر منها الأكابر؟ وهنا انبرى سامي مشاركاً: ماذا تراه يفعل معي لو عرف أنني من ميت خرطة بسبوسة؟

شعر سيد أنه وقع في ملقف وفهم أنه سيكون ضيف حفلة الليلة، وأنهم سيتسلون عليه ولن يتركوه حتى ينهار؛ لهذا فقد نهض واقفاً واستأذن في الخروج لأجل موعد مهم. سخر أبو الفتوح من الموعد المهم: أي موعد يا حاج سيد؟ إن أصدقاءك الذين ضحيت بعادل من أجلهم قد «قلشوك» وطرودك من جنتهم، وألقوا بك خارج شقتهم بحجج واهية، وقد عثرت عليك ضالاً تتعثر في مشيتك داخل محطة القطار فأتيت بك إلى هنا.. اجلس يا رجل ولا تخش من عادل فإنه لا يعرض.

قال سيد في لهجة تجمع بين الجد والمزاح: بصراحة كلكم تعضون ويبدو أن هذا بسبب فارق التعليم بيني وبينكم. رد عادل جاداً: تعليم؟ أي تعليم؟ كلنا في الهوا سوا يا أبو السيد، يمكنك أن تنظر إلى عزت كلوت أبو العضلات والمجانص.. إنه حمار

بقدرك ومع ذلك نحبه! زام عزت مزمجراً فعاجله محمد: إياك أن تفتح فمك، فتراجع
مطلقاً ضحكة تدل على الانصياع، وقال لسيد: هؤلاء أعامنا يا سيد رغم كونهم
ضائعين مثلنا، وهذه فرصتنا الوحيدة في مصادقة أمثالهم؛ لأنهم في مصر لن
يسمحوا لنا بالاقتراب أو التصوير!

عندما أخبرهم عادل أنه استقر في بلدة صغيرة طلبوا منه أن يأخذهم معه ولا
يستأثر بالخير لنفسه. أقسم لهم أنه لا يعمل وأن البطالة هي رفيقه الدائم، وسعى
لتنفيرهم من ترك فيينا؛ لأنهم هنا يعملون بينما خارج فيينا لا أمل في العمل. سأله
سامي وهو يتذكى: لماذا إذن تستقر في مكان ليس به عمل؟ هل تهوى البطالة؟
أجابه عادل في تحدٍّ بل أهوى الهدوء ولا أعدل به شيئاً.

كان عادل يخشى إخبارهم بمكان إقامته؛ خشية أن يقتحموا «تولن شتات» الهادئة؛
فيفسدوا عليه هدوءه ويضربوا علاقته بصاحبة السكن ويتطفلوا على محرز
المغربي.. هو ليس ساذجاً ليفعل هذا، خاصةً وأنه خبرهم جيداً، وعرف أن المشكلات
تسير في ركابهم أينما حلوا.

بينما يتحدثون سمعوا صوتاً يغني على السلم. قال حسنين: هذا طه يغني مثلما يفعل
كل ليلة وهو عائد من (الشغل). أبدى عادل الانزعاج قائلاً: أمجنون هذا ليغني بهذا
الشكل في الليل الساكن؟ إن الجيران قد يطلبون لكم البوليس. ضحك أبو الفتوح
بشدة قائلاً لصديقه: إن أحداً لا يغني في جوف الليل في هذه المدينة قدرك يا حاج
عادل. ابتسم عادل في حرج قائلاً: ليس وأنا أصعد السلم، لكن أنتم أحرار. بعدها
سمعوا المفتاح يتحرك في الباب ورأوا طه يدخل عليهم مترنحاً من شدة السكر وهو
يرفع عقيرته بالغناء: ثلاث شلنات يا واحشني ثلاث تيام.

لمح عادل فاحتضنه ورائحة الخمر تفوح منه، ثم استأنف الغناء وهو ينظر إلى
أصحابه: ثلاث شلنات يا ولاد القحبة في ثلاث تيام.. قال هذا وهو يخرج من جيبه
ثلاثة شلنات وضعها على السرير، ثم استلقى إلى جانبهم.

بادره محمد سائلاً: إيه حكاية الشلنات الثلاثة؟ ضحك طه، ثم هب واقفاً فوق السرير، وقال: منذ ثلاثة أيام لم أخرج، قررت أن أستريح من الشغل المتواصل لأنني أحسست ببعض الوهن يدب في أركاني، وعندما شعرت بأنني في حال أفضل خرجت الليلة.. كان من حظي أنني صادفت في دورة المياه العامة في «لاند ستراشه» شخصاً فهمت حقيقته من النظرة الأولى. نظرت له ونظر لي وتبادلنا الابتسامات وعقدنا اتفاقاً دون كلام، ثم التقينا داخل دورة المياه.

لم تكن هذه الحكايات غريبة على عادل، وبالذات من طه الذي تعود أن يحكي لهم كل يوم نتيجة طلعتة الخارجية، ومع ذلك أحس بأنه لا يريد أن يسمع حكايات مقرفة هذه الليلة. نظر محمد نحوه وكأنما أحس بما يعتمل في فكره وأشار له بيده أن اصبر قليلاً.

أكمل طه باقي الحكاية، فقال: وبعد أن تم اللقاء أفاجأ بابن الكلب يُخرج من جيبه ثلاثة شلنات ثم يضعها في يدي.. ثلاثة شلنات يا جدعان لا يصلحون لشراء رغيف عيش، وأنا الذي كنت أممي النفس برزق وفير بعد إجازة لعدة أيام. قال محمد: آه.. أنت ربطت بين ثلاثة أيام بطالة وثلاثة شلنات، ثم استوحيت أغنية محمد قنديل. رد طه: برافو عليك يا أبو الفتوح.. لو أنك مكاني ماذا كنت تفعل؟ قال محمد: كنت أسحب البضاعة التي قدمتها له وأعيد له أمواله!

نظر طه في زهول وردد بصره بين الجالسين، ثم انفجر ضاحكاً قبل أن يقول: والله فكرة.. لكن كيف أستعيد بضاعتي يا ولاد الحلال.. إنها بضاعة لا تُرد ولا تُستبدل؟ هنا تدخّل سامي في الحديث ليعرف بقية الحكاية: وبعد.. ماذا حدث؟ هل تركته؟ قال طه: خرجت وراءه فوجدته يجلس إلى جوار عمود بالشارع كان يربط إليه حقيبة قدرة، فتحتها وأخرج منها كوباً من البلاستيك وضعه أمامه وأخرج لافتة كتب عليها: الفكة في جيبك لن تفيدك، لكنها ملاذي الأخير! قال عادل: وكيف عرفت معنى الكلام المكتوب؟ رد طه: علمت طبعاً أن الأخ شحاذ من متسولي الشوارع، فسألت أحد

قال حسنين: ليس لهذه الدرجة.. أنا أريد أي شيء فائض عن حاجته. قال عادل: مشكلتك أنك تريد أن تحصل على مبتغاك مجاناً، ولو أنك هزرت جيبك ونفحت طه ورقة بمئة شلن؛ فإن هناك فرصة لأن يبيعك واحداً من أصحابه الحلوين ويتركك تنعم معه بعلاقة بنت كلب نجسة!

تعالى الضحكات ثم سمعوا طرقة على الباب، وبعد أن قام حسنين وفتح الباب استأنفوا الضحك لما رأوا الزائر، ونظر عادل فأبصر رجلاً يعرج داخلاً عليهم قدّموه إليه: الأستاذ مجدي زينهم صاحب هذه الغرفة الفسيحة التي نجلس بها. وزاد محمد بالقول: كنا نتحدث عنك منذ قليل يا أستاذ مجدي، ويبدو أن روحك تشعر بنا؛ فقد وجدناك فوق رءوسنا بعد أن جئنا بسيرتك مباشرة. قال مجدي: أنا عارف أنكم تسهرون، وأنا أحبكم لله في الله؛ لذلك أفضل أن أحظى بصحبتكم على قضاء الوقت في أي مكان آخر، ولعلمكم لقد فوّت سهرة رائعة بصحبة بعض رجال الأعمال النمساويين كانوا قد دعوني على كوكتيل معهم بفندق هيلتون، لكنني بطبعي أحسن إلى أولاد بلدي وأشعر بالراحة معهم أكثر من الخواجات.

قال محمد في لهجة تهكمية: والله لا ندري من غيرك ماذا كنا فاعلين؟ إن أفضلنا علينا قد زادت ولا ندري كيف نردها! لكن لو أن فيض عطائك هذا ينهمر علينا بالنهار لكان لسخائك مردود أكبر؛ حيث إن لنا طبائع عجيبة تختلف عن باقي أهل الأرض، وهي أننا نحب أن ننام بالليل!

رد مجدي متجاهلاً التهكم: والله يا سي محمد أفندي أنا عارف أنكم تتقاسمون الأسرة، فبعضكم يعمل بالليل وينام بالنهار، وبعضكم الآخر يفعل العكس.

التفت إليه طه الذي اعتدل جالساً على السرير: وهذا معناه أنك تستطيع في أي ساعة من الليل أو النهار أن تجد من يفتح لك هذا الباب حين تطرقه.. أليس كذلك؟

قال مجدي دون أن يظهر عليه أي تأثر بملحوظاتهم الجارحة: يا جماعة، أنتم لا تفهمون الأمر.. إنكم تذكروني بنفسي عندما كنت مثلكم في أول الطريق قبل عشر سنوات.. لقد مررتُ بكل ما تمرّون به الآن؛ لذلك أجد نفسي مدفوعًا -ودليلي إليكم محبتي- بالقدوم لزيارتكم؛ عسى أن أقدم لبعضكم النصيحة المخلصة في أي أمر يحتاج إلى النصيحة.

والحقيقة أن مجدي لم يكن يأتي بغرض تقديم النصح والمساعدة، وإنما لكي يثرثر ويثرثر ويحكي عن نفسه وعن بطولاته وفتوحاته بلا انقطاع، ولم يكن يتورع في أثناء الحكى عن تصدير شيء من التهديدات المبطنة لبعض سكان الشقة الذين انتهت تأشيراتهم، وأنه كونه مالكا للشقة كان يتعين عليه الإبلاغ عنهم ليخلي مسؤوليته، غير أن محبته لهم تغلب حذره والتزامه بالقانون! أي أن الوغد كان يفرض عليهم استقباله ومضايفته بالشاي والقهوة، والاستماع إلى حكاياته؛ انقاءً لغدره!

(6)

كانت ماجدة تجلس مسترخية تستمع إلى شريط فيروز الأخير «وحدن» الذي اشترته لها ابنتها نادية من محل يبيع المنتجات والأطعمة العربية عندما سمعت طرقات على الباب. سرت رعدة في جسدها.. إن ابنتها نادية لا تطرق الباب؛ لأن بحوزتها مفتاحًا للشقة، والأمر نفسه بالنسبة لزوجها، وهي لم تعتد أن يطرق بابها أحد؛ فليس لها في هذا البلد أهل أو أقارب أو أصدقاء. نهضت من أمام التلفزيون ونظرت من العين السحرية فأبصرت امرأة لا تعرفها. فتحت الباب وما زالت السلسلة معلقة تمنع دخول الطارق. كانت تقف بالباب امرأة في العقد السادس من عمرها مع ابتسامة بعثت قدرًا من الطمأنينة في نفس ماجدة. ما دامت المرأة تبتسم فهي لا تحمل خبرًا سيئًا.. هكذا حدثت نفسها.

قامت المرأة التي كانت تحمل في يدها علبة مغلقة بتقديم نفسها: اسمي جرتود مانهاين، وأنا جارتك في الطابق الأسفل.. أنت لا تعرفيني، لكنني أعرفك أو بالأحرى أعرف زوجك السيد هانز أورليش. قالت ماجدة بتردد: أهلاً.. كيف أستطيع أن أساعدك؟

- لقد أردت أن أتعرف إليك وأقدم لك طبقاً من الحلوى صنعتها بنفسني.. وإذا لم ترغبني في استقبالي فيمكنك أن تفضلني عندي في شقتي.

شعرت ماجدة بالحرج وكانت لطول الوحدة التي عاشتها قد ألفت الهدوء، لكنها قالت للمرأة بينما تزيح السلسلة: تفضلني بالدخول.

دخلت السيدة جيرتود وجلست أمام ماجدة بالصالة؛ فأغلقت الأخيرة جهاز الكاسيت وكررت الترحاب بالضيافة. تطلعت جيرتود إلى الشقة وأثنت على الذوق واللمسات اللطيفة. ابتسمت ماجدة دون أن ترد.

- أنا لا أريد أن أسبب لك أي ربكة، كل ما في الأمر أنني شعرت برغبة في التعرف إليك وتقديم الأمنيات الطيبة.. صحيح لا توجد أعياد حالياً، لكن التواد والتزاور بين الناس لا يحتاج إلى تواريخ محددة.
- أهلاً بك.. أنا اسمي ماجدة.
- أنا أعرف اسمك.. الجيران كلهم يعرفونه، صحيح لا أحد يعرفك شخصياً، لكننا نتحدث عنك من وقت لآخر.

شعرت ماجدة بانزعاج حقيقي؛ فقالت: تتحدثون عني أنا؟! كيف؟ ولماذا؟! بادرت جيرتود: لا تجزعي.. لا أحد يأتي على سيرتك إلا بالخير.. الجيران جميعاً مشفقون عليك وأظنك تعرفين السبب.

- هل تقصدين لأنني متزوجة من هانز الذي عرفت من الباعة أسفل المنزل أن اسمه المعروف به في الحي هو هانز اللعين؟

- نعم، هو كذلك.. لقد سعدت إليك لأطمئن إلى أنك بخير؛ لأننا بصراحة كنا نعرف زوجتي هانز الأخرين، ولهذا لا نأمن لوجودك مع هذا الرجل الفظيع الذي يحظى بكراهية الكثيرين في النمسا، ولأننا نخشى كذلك على ابنتك الشابة.
- نحن بخير؛ فاطمئني.. لقد تعودنا، ويمكنك القول إننا نستطيع احتمالته حتى تتغير الظروف.
- الظروف لا تتغير من تلقاء نفسها.. لو أردت دعمنا فسوف نكون معك، ولو أردت الرحيل عنه فلن نتركك في مهب الريح.
- أنا أشكرك لموقفك الطيب، وأؤكد لك أنه يعني الكثير لي، وخاصةً أنني بلا أصدقاء؛ لأن زوجي فرض عليّ العزلة.
- لقد أحضرت لك فطيرة التفاح التي أصنعها بنفسني كل يوم، ثم أضع ما أنتجه منها في محل البقالة الذي أملكه قرب محطة شوتنتور.. أنا أمتلك هذا المحل وثلاث شقق في الحي العشرين يقوم زوجي بتأجيرها لشباب من بلده.. بالمناسبة، زوجي من أصل مصري وهو يقيم معي بشقتي في الأسفل.
- هو قريب لنا إذن، فأنا وابنتي من لبنان.
- هو يقول لي نفس الكلام عنكما، فأنتم تتحدثون نفس اللغة على ما أظن؟
- نعم.
- هل تعلمين أن النظر إلى مساوي زوجك يجعلني أتغاضى عن عيوب الرجل الذي تزوجته وهي كثيرة، لكنه حتى الآن لم يحصل على لقب مجدي اللعين أسوة بهانز أورليش!
- ضحكت ماجدة قائلة: يبدو أن كل الرجال من نفس الفصيلة، وأن الخلاف بينهم يتركز في درجة السوء، وليس في نوعيته.
- قالت جيرترود: إنه يصغرنني بعشرين عامًا، وعندما تزوجته كنت أعلم أنه طامع في مالي وفي الإقامة والجنسية التي يوفرها له الزواج من نمساوية.

شعرت ماجدة بالضيق لأنها تصورت جارتها تنظر لكل مَن يأتي من الشرق الأوسط على أنه طامع ومتسلق. أحست هذه بما يدور في ذهن ماجدة فسارعت إلى التوضيح: لا يمكن أن تُعدي نفسك وابنتك في مثل حال مجدي زوجي.. هو أولاً رجل ولم يأت من منطقة كوارث، وكان يستطيع أن يشق طريقه بصورة لا تجعله موضع اشمئزازي طول الوقت، لكنه تصور أن الأرملة العجوز ستكون لقمة سائغة في يده.. لقد تنبهت منذ البداية إلى حقيقته وجعلته يعمل معي في المحل.. كان حضرته يظن أنه سيحصل مني على المال دون عمل، والآن لن أكون متفاجئة لو عرفت أنه يشعر بالندم على زواجه مني!

عُقت ماجدة قائلة: يبدو أن السعادة هي حلم بعيد المنال، ولن يبلغها أحد.

- لقد كنت سعيدة بالفعل، لكنني لم أفطن إلى هذا، وظننت أن الزواج بشخص في حاجة للدعم كونه أعرج وأجنبيًا وبلا عمل سيجعلني أحصد مباحج دائمة وامتنانًا لا ينتهي، لكن خاب مسعاي.. والآن هو يهرب من البيت معظم الوقت بعد أن ينتهي عمله، ويهرع إلى مستأجري الشقق الثلاث من المصريين ليسهر معهم، وأنا واثقة أنهم لا يحتملون قصصه الكاذبة التي لم تعد عندي مرارة أو معدة لسماع المزيد منها!

أحست ماجدة بقدر من عدم الارتياح حول حديث جارتها عن زوج اختارته بمحض إرادتها؛ طمعًا في شبابه، ورغبةً في الاستمتاع بانكساره وشعوره بالامتنان، والآن تشكو خيبة أملها فيه، فقالت وكأنها تنهي الزيارة: أنا أشكرك يا عزيزتي على زيارتك، وأتمنى ألا يحدث ما يدفعك للقلق بشأنني.

- يبدو أنك تتعجلين رحيلي.
- لا أبدًا، إنني فقط...
- اسمعي يا ماجدة، واسمحي لي أن أناديك باسمك الأول؛ فأنت بمثابة ابنتي.
- بالمناسبة.. كم عمرك؟

- إذن فأنت مثل ابنتي فعلاً؛ فأنا أكبرك بسبعة عشر عاماً.. ما رأيك أن تنزلي معي لنتمشى من هنا حتى متنزه البراتر، والأمر لن يحتاج لأكثر من عشر دقائق.
- البراتر الآن؟ في هذا الجو البارد؟
- صدقيني، هذا المكان يكون أجمل في الشتاء؛ حيث يقل الزوار.
- لقد سمعت من نادبة ابنتي أن الزوار يقلون، وكذلك الألعاب والحوانيت.
- نعم، لكن هناك بعض الألعاب ما زالت تعمل، وهناك مطعم أحبه سأدعوك للغداء معي به.

بدا على ماجدة التردد فحسمته جيرترود بأن قامت وأمسكتها من يدها برفق، فوقفت ونظرت إلى الجارة لا تدري ماذا تقول، ثم استمهلتها حتى ترتدي الثياب المناسبة وتخرج معها.

صحيفة السفير 16 يونيو 1979

- المخيمات وأمن بيروت.. كل شيء على حاله بانتظار الإجراءات التنفيذية
- الجميل في أبو ظبي يبحث عن متنفس خليجي للحكم
- اقتراح كرامي يفتح السجال السياسي لهذا الأسبوع
- انتخابات الكتائب اليوم: منافسة شديدة على الرئاسة بين كرامة وسعادة
- حذر يواكب اتفاق وقف النار
- سرية سورية تدخل مشغرة
- شروط أمريكية تقبلها السعودية بشأن طائرة «أواكس»

رابعًا

(1)

كان الهواء باردًا والمطر الخفيف يبيل الرصيف في تلك الليلة. أخذ عادل يسير على غير هدى في شارع «ماريا هلف». نظر إلى اللافتة التي تحمل اسم الشارع، ولم يتمالك نفسه من الضحك عندما تذكّر سؤال عزت كلوت له ذات مرة عن معنى اسم ماريا هلف.. يومها أجابه قائلاً: إن ماريا هي قديسة مبروكة ولها كرامات، أما أبوها فقد كان «راجل هلف».. وقتها استمع عزت وهز رأسه دون تعقيب!

لم يعرف عادل أين يذهب بالضبط، لكنه لم يشأ أن يتعجل العودة إلى مسكنه في «تولن شتات»؛ حيث الوحدة والصمت. توقف إلى جانب فريق من الموسيقيين المتسولين الذين لم يمنعهم البلل بالشارع من افتراش الرصيف ونصب عدة الشغل ومنها القبعة التي تنوسطهم، وفيها يضع المارة ما تيسر من الفكة لزوم شراء العشاء وشراب آخر الليل. كان العزف بديعًا والمقطوعات التي لعبوها متنوعة، وبعضها ليس سهلاً؛ لكونه يحتاج إلى تدريب! تعجب بينه وبين نفسه من هؤلاء العازفين الذين يمتلك أغلبهم موهبة لافتة كانت خليقة بدفعه وسط فرقة تعزف في أوبرا فيينا، وتُقدّم الفن لجمهور كبير، لكنه تذكّر مستدرّكًا أن الأمور لا تسير هنا بالضرورة على هذا النحو، وساءه أن وجد نفسه يفكر كما تعود أهل بلده الذين يُقدّرون الوظيفة حتى في الفن! لا شك أن هؤلاء الناس قد اختاروا حياة الصعلة طواعيةً ودون ضغوط، وطبيعي أن الواحد منهم يجد سعادته في الانطلاق والحرية وحياة الطيور التي تحط هنا وهناك، وتغرد أنى يحلو لها. سرح بخياله في حياته وتمنى لو كان بإمكانه أن يمضي بقية عمره مع هؤلاء الناس، يلف ويدور ويسافر ويبيت كل يوم في مكان مختلف، ويقضي الأيام في سلام لا يؤذي أحدًا في هذه الدنيا ولا يؤذيه

أحد.. لكن حتى هذه الأحلام البسيطة التي تخلو من رغبات في الصعود والترقي وجني المال، ومن ثم الاصطدام بطموح آخرين- ليست سهلة التحقق!

واصل تسكعه بالشارع، ومضى يركل علبة بيبسي فارغة، ثم يطاردها ليركلها من جديد، ثم يجري وراءها فتقفز العلبة في الشارع؛ فيندفع خلفها تاركًا الرصيف، وإذا بسيارة مسرعة تدهس العلبة على بعد سنتيمترات من قدمه الممدودة التي كاد يفقدها في لحظة عبثية. تلقى شتائم السائق النمساوي في صمت، ثم عاد إلى الرصيف من جديد.. ولا يدري لماذا قفزت إلى ذهنه في هذه اللحظة حكاية غابت عنه منذ سنوات.. رأى نفسه طفلاً مع أصدقائه في الشارع بحي الظاهر يجمعون أغطية زجاجات البيبسي ويقومون بفردها، ثم يعملون من الصفيح المفروود كراسي ومناضد.. كانت المشكلة أنهم يفردون لها بوضعها فوق قضبان ترام خط 17 الذي يعبر شارعهم، وبعد أن يمر الترام يشرعون في جمع المحصول. المشكلة في هذه المرة الأخيرة أن المحصول كان يضم ساق صاحبهم أنور التي بترها الترام! غشت نفسه كآبة لدى تذكُّره الحكاية القديمة التي شهدها بعينه، ثم بدأ يغني في الشارع بصوت عالٍ. أعجبه صوته وتحسر للمرة الألف: لماذا لم يسعه أن يكون مغنياً ما دام يحب الغناء إلى حد إزعاج الناس في الشارع الذي يكسوه الهدوء في فيينا آخر الليل؟ لقد كان يحب الرياضيات ولم يصبح مهندساً، ويحب الفلاحة ولم يأخذ قطعة أرض ويزرعها، ويحب السينما ولم يدرسها. أحب أشياء كثيرة وبرع في أغلبها، لكنه ما اشتغل بشيء منها وأسلم نفسه لل... توقف برهة يفكر أسلم نفسه لأي شيء؟ إنه لم يعد يدري مصيره ولا موقف الكلية منه.. لا بد وأنهم سيفصلونه بعد غيابه واختفائه عن الجامعة.. سيعود لو قُدِّر له أن يعود في يوم من الأيام، ثم يبحث عن وظيفة بالثانوية العامة بعد أن ينهي فترة تجنيده.. يا للهول! أي جرم جناه حتى يلتوي مستقبله بهذا الشكل؟! أخرج من جيب سترته بطحة معدنية اشتراها مؤخراً بها شراب كحولي ممزوج بالكولا.. إن الشرب يؤذيه، لكن أعجبتَه فكرة الوعاء المعدني الذي يدخل في جيب السترة الداخلي، والتي رآها في أفلام كثيرة وأغرمٍ بشكلها! أخذ جرعة ثم جرعة أخرى ولمعت عيناه وهو يقف مبتسماً بجوار عمود نور.. ابتسم لأنه تذكَّر أن معدته ستلفظ الشراب وتدفعه للخارج بعد قليل، لكنه على

الأقل فعل ما يريد؛ رغم المعدة الغبية! على إحدى النواصي وجد بارًا خافت الأضواء ذا لافتة زرقاء تحمل اسم «دولفين» قرر أن يدخل ليسمع ثرثرة الناس ويلقي بنفسه في وسطهم، لكنه فوجئ بالمكان خاليًا إلا من زبون عجوز يجلس في أقصى المكان ونادلة صغيرة تقوم بتلميع الأكواب وتستعد -فيما يبدو- للإغلاق. لاحظ جمالها فجلس قبالتها وطلب كوب ماء. أحضرته له وانصرفت إلى شأنها، بينما أخذ هو يتطلع إليها ثم يقلب بصره بينها وبين سقف المحل وجدرانه المكسوة باللوحات.. كانت موسيقى هادئة تنبعث من المكان، ويبدو أن الجو كله كان يدفعه إلى الغناء؛ فارتفع صوته دون مقدمات وأخذ ينشد: «بيتي أنا بيتك.. وما إلي حداء.. من كتر ما ناديتك وسبع المدى.. نطرتك ع بابي وع كل الأبواب.. كتبت لك عذاب ع شمس الغياب.. لا تهملني لا تنساني.. ما لي غيرك لا تنساني.. بلدي صارت منفى.. طرقاتي غطاها الشوك والأعشاب البرية.. ابعت لي بها الليل من عندك حداء يطل علي». للغرابة وجد الفتاة تتوقف عن كنس المكان وتتسمر في مكانها تتطلع إليه في دهشة والدمع ينسال من عينيها.. نظر نحوها وتلاقت أعينهما، ثم وجد نفسه يتوجه إليها ووقف قبالتها صامتًا يتأملها، ثم أخذها من يدها لوسط المحل، وهمس لها بالإنجليزية وهو يراقصها بأن ما يغنيه هو ترنيمة كنسية شرق أوسطية. فوجئ بها ترد بالعربية راجية إياه أن يكمل الغناء! فأنشد: «من أيام المظلومين، من لفتات الموعودين، عم أنه لك خلي يضوي صوتك علي.. وأنا ع الوعد وقلبي طاير صوبك غنيّة».

استمر الحلم وتصاعدت عذوبته عندما وجد الفتاة تشاركه الغناء، بينما تدور معه في المكان الفسيح الخالي وتنشد والدمع يببل خديها: «لا تهملني لا تنساني يا شمس المساكين.. من أرض الخوف بننده لك يا شمس المساكين.. أنا زهرة من زهورك.. باركني ساعدني.. بالدمع بتزرعني، بالفرح بتحصدني.. عدلك فاض علي، كرمك ضواني.. إذا كلن نسيوني وحدك ما بتنساني.. ناديتك من حزني عرفت إنك معي.. وسعي يا مطارح ويا أرض اركعي».

كان المطر الخفيف لا يزال ينقر الأرض حين خرج عادل من الحانة وسار في شارع ماريان هلف وهو يكاد لا يصدق ما حدث.. إن ساقية البار التي رقصت معه كانت حقيقة وليست

خيالاً، وهي بالإضافة إلى كونها جميلة فإنها فتاة عربية.. ما هذه المصادفة الساحرة التي ما زالت تأخذ بلبه وتستحوذ على أنفاسه المبهورة من فرط المفاجأة؟! لقد تشجع ومضى نحو الفتاة وسمح لنفسه أن يأخذها للرقص في وسط الحانة؛ لأنه تصور أنها نمساوية، ولو كان يعرف أنها عربية ما جرؤ على الاقتراب منها.. يبدو أن بعض مصادفات الحياة حلو ولذيذ. كان عادل يمشي على الرصيف يدق الأرض بحذائه من فرط الانفعال وعدم التصديق.. ما هذا السخاء الذي لم يتعوده من الحياة؟! لقد تركته الحسنة لتكتمل تنظيف المكان، وطلبت منه الخروج؛ لأن وقت الإقفال قد حان؛ فغادر على مضض.

وجد نفسه بعد أن قطع مسافة في الشارع يعود مرة أخرى مسرعاً إلى الحانة دافعاً الباب، ثم يقف في منتصف المكان وأنفاسه متسارعة يتأمل نادية وهي تكنس الأرض. نظرت إليه في دهشة فرفع يديه معتذراً وهو يقول: أردت فقط أن أتأكد أنك لست حلماً. وبرغم الإضاءة الخافتة فقد لمح وجهها يتضرج احمراراً وهي تلوح بيدها الصغيرة في اتجاهه، ثم تعطيه ظهرها وتكتمل الكنس.

ظل عادل يروح ويجيء على الرصيف في حركة متسارعة؛ كأن به مس! وقد اجتاح كيانه شعور لا يسهل التعبير عنه.. ما هذا التيار الذي يحس به يسري في جسده؟! إنه ليس تياراً كهربياً، لكنه تيار من الضوء الدافئ ينير ظلمات كيانه ويوقظ مسام روحه ويحرك ميث أشجانه وأشواقه للحياة. من يكون هذا الكائن النوراني الشفيف؟! وماذا يفعل في هذا البار؟! لقد شعر أنها منه وهو منها؛ على الرغم من كونه لم يرها من قبل.

انطلق في الشارع يعدو بأقصى قوته؛ حتى يُفرغ الطاقة التي ملأته، ووجد نفسه يأخذ الترام منطلقاً إلى شارع سلزاخ؛ ليقابل محمد أبو الفتوح. من في هذه المدينة سوى أبو الفتوح يمكن أن يفضي إليه بما حدث؟

على باب البناية قابل طه قادمًا من الاتجاه الآخر. كان طه مخمورًا كالعادة، ومن الواضح أنه يُغرق نفسه في الخمر لتعينه على وظيفته الشاقة مع الرجال! حياه طه ودعاه للصعود معه، لكن عادل رجاه أن يعفيه من الصعود إلى الشقة المزدحمة، وأن يتكرم فيرسل إليه محمد أبو الفتوح. قال طه: لعله نائم الآن. رد عادل: لا أبالي.. أيقظه وقل له إنني أريده لأمر مهم.

طال انتظار عادل أسفل البناية، ولكن أبو الفتوح لم ينزل. شعر عادل بالضيق لكنه لم يسمح لمشاعر الغضب أن تتزايد؛ بالذات في هذه الليلة المباركة التي لا يوجد بها مكان إلا للفرح. صعد عادل وطرق الباب ففتح له حسنين واستقبله هاشمًا، لكن عادل اندفع يبحث عن طه الذي يبدو أنه بعد أن صعد نسي ما كان من أمر عادل، والدليل أنه انبطح نائمًا كالبعير! أيقظ عادل صديقه وأخذه من يده إلى الشارع وسط دهشة محمد الذي سحب رداءً ثقيلاً من على الشماعة، ومضى مع عادل وهو يفرك عينيه من أثر النوم.

في الشارع تساءل محمد: هل أنت بخير؟

- أنا أكثر من بخير.. أنا بورد، بفل، بياسمين، بمكرونه بالبشاميل!
- هل عثرت على كنز أو صادقت رجلاً شاذًا منحك ثروته؟
- خسئت يا فتى، لقد عثرت على كنز فعلاً، لكنه في صورة ملاك.
- أتسحبني من السرير في عز البرد وتنزل بي إلى الشارع لتتحدث بالألغاز؟!

دعك من كلامك البائخ هذا، ودعني أحكي لك عن القمر الذي أضاء سمائي هذه الليلة.. دعني أحكي لك عن فتاة البار التي سحرت لبي وجعلتني آتي إليك لأوقظك في جوف الليل؛ لأنني خشيت أن أنام دون أن أحكي لك الحكاية فأغص بها وأموت.

- فتاة البار؟ ومنذ متى ترتاد البارات أنت الذي تتقيأ بعد زجاجة بيرة؟

- ذهبت إلى البار وغنيت ورقصت وخرجت مسحورًا باللبنانية الجميلة التي تعمل هناك.

توقف محمد عن المشي، ثم قال وقد تفتحت حواسه: خذ هذه السيجارة ودعنا نجلس هنا على هذه البسطة الحجرية بجوار محطة الترام، واحك لي كل شيء، ولا تغفل أي تفصيلة؛ حيث إنك أثرت اهتمامي أيها الفتى العاشق.

(2)

دخل عادل إلى بار «دولفين»، ومسح المكان بعينه؛ بحثًا عن الفتاة التي التقاها الليلة السابقة. هاهي تخرج من غرفة جانبية، ثم تتخذ مكانها خلف البار. توجه إليها وجلس على أحد الكراسي المرتفعة أمامها. نظرت إليه ثم علت وجهها ابتسامة وهي تسأله: ماذا تأخذ؟ قال: بصراحة أنا لا أميل للشرب، لكن يمكنني أن أطلب بيرة إذا سمح لي هذا بالجلوس أمامك والتطلع إلى ملامحك الحلوة. قالت نادية: يمكنني أن أقدم لك سندوتشًا أو قطعة جاتوه أو كوب قهوة.. نحن نقدم أشياء كثيرة، وليس الشراب فقط.

- أريد تيراميسو مع قهوة، والأهم أريد أن أسألك متى ينتهي عملك حتى أستطيع التحدث معك؟
- تتحدث معي عن ماذا؟
- عن كل شيء.
- عن كل شيء؟ لن نجد وقتًا يسمح بالحديث عن كل شيء.
- عندي الوقت الكافي، ولعلمك، تعرّف القليل من الأشياء فقط هو الذي يحتاج إلى الكثير من الوقت، أما أن نقول «كل شيء» فهذا مستوى آخر لا يحتاج سوى للتأمل والخيال مع القليل من الكلمات.
- في الحادية عشرة ينتهي عملي.

لم تشعر نادية بالنفور الذي يعتريها عادةً كلما اقترب منها أحد الشباب أو حاول مواعدها، وآخرهم كارل زميلها بالجامعة الذي يجلس في آخر البار الآن على مائدة وحده؛ كما تعود أن يفعل كل ليلة.. هي تتجاهل وجوده، وتنتظر بأنّها لا تراه، وهو من جانبه لا يحاول التحدث إليها.. فقط يأتي ويطلب مشروباً تُقدّمه له زميلتها إيفا، ويقضي حوالي ساعة يتظاهر بمطالعة كتاب في يده، ثم يمضي بعد ذلك. ولعل هذا السلوك هو ما زادها خوفاً منه ورغبةً في وأد كل محاولاته للتقرب إليها. وحتى عندما جعل تونيا صديقتها واسطته إليها لم تستجب، وقالت لها في ضيق: إذا كان يعجبك خذيه!

• لا تنس أن تونيا غضبت من هذا الرد واعتبرته يحمل قسوة لا تحتملها صداقتها؛ ذلك أن نادية تعلم أن رغبة البنات في خطف الشباب من بعضهن البعض لا مكان لها في العلاقة التي جمعت نادية برفيقتها، وإنما الموجود هو السلام والمودة.

لم تلمح نادية في عيني هذا الفتى العربي ما تراه في أعين الزبائن السكارى من رغبة في الافتراس. لم تعتقد أن كونه عربياً هو السبب في أنها اطمأنت إليه؛ فالجامعة تضم طلبة من كل الأقطار العربية، وبعضهم يود التهامها.. ليس الطلبة فقط، وإنما بعض الأساتذة يريد أن يوقع معها عقداً يتيح له ممارسة الجنس معها؛ حتى يشبع أو تتغير ظروفه وتحضر زوجته! لكن هذا الفتى يختلف.. إنها لا تعرف وجه الاختلاف، لكنها ستحاول أن تعرف عندما تلتقيه بعد العمل.

كان عادل خارج البار يقطع الرصيف جيئةً وذهاباً عندما أهلت نادية وأقبلت عليه متسائلة: قل لي ما حكايتك؟ ولماذا أتيت إلى هنا في ليلتين متتاليتين؟ قال عادل وهو يتأملها في إعجاب: هل تعرفين أن بك سحرًا يرعش القلب؟ ابتسمت وهي تبادلته النظر: أرجوك لا داعي لبدايات من هذا النوع، فهذا الكلام أسمعته كثيراً ولا يؤثر

بي. اضطرب عادل فهو لا يقصد التأثير عليها أو اصطياها وإنما عبّر عما يحسه فعلاً، لكنه نفض جملتها الأخيرة عن أذنه؛ حتى لا يتعكر مزاجه، وقال: سألتني ما حكايتي وما الذي أتى بي.. حكايتي قد تصيبك بالملل؛ لذلك لا أنوي أن أزعجك بها، وأما الذي أتى بي مساء أمس فهو الصدفة.. الصدفة الحلوة، أما ما مضى بي مغمض العينين إليك هذه الليلة فهو السحر الذي عندما حدثتك عنه منعتني من الاستطراد.

قالت نادية وقد أحست بقدر من الألفة: هل نتبادل الأسماء أو أن رومانسييتك المفرطة تمنعك من هذه الأشياء الخالية من المعنى؟ أنا اسمي نادية. قال: وأنا اسمي عادل.. ولا تقولي لي إنك لبنانية لأنني أعرف هذا، ولن أقول لك إنني مصري لأنك تعرفين هذا. قالت بدلال: طب قل لي يا أستاذ مصري ما الذي جعلك تتهور فتدخل حانة لا تعرف بها أحداً، ثم تنطلق بالغناء في جوف الليل؟ قال: هل تريد الصراحة؟ قالت: أكيد. رد: لا أدري! كما أنني لا أدري لماذا داعبت خيالي هذه الأغنية بالذات «بيتي أنا بيتك»، وقد كنت قبل أن أدخل البار أسير بالشارع وأغني لعبد الحليم حافظ؟! قالت متسائلة: وماذا كنت تغني لعبد الحليم؟ قال: «ضي القناديل»؛ لأن ظلام شارع ماري هلف مع قناديله الخافتة وقطرات المطر كانت توحى بجو يشبه هذه الأغنية. قالت في فرح طفولي: هذه الأغنية تخصنا أيضاً؛ فهي مثل «بيتي أنا بيتك» من كلمات وتلحين الأخوين رحباني. قال عادل: عندنا في مصر قالوا إنها لمحمد عبد الوهاب، أما الرحابنة فقد وضعوا لها التوزيع فقط. قالت في حماس: لا تصدقهم، إنها أغنية رحبانية الكلمات واللحن والتوزيع. قال: لن أجعل هذا الأمر يفسد ليلتنا. سارت إلى جانبه وأخذت تشوط بقدمها زجاجة من البلاستيك قبل أن تنظر إليه قائلة: من الواضح أنك تحسن الغناء وصوتك حلو. قال: أشكرك على المجاملة.. أنا أحب الغناء بالفطرة، وربما أن والدي له تأثير أيضاً؛ لأنني تعلمت منه المقامات والعزف على العود.. هو موظف عادي ولا يعمل بالفن، لكنه عاشق للموسيقى وبالذات لأعمال رياض السنباطي.. أما أغنية «بيتي أنا بيتك» فكثيراً ما ترد على خاطري؛ لأنني بلا بيت، فأنا شريد في النمسا معظم الوقت، أما في القاهرة فلا أستطيع

الاقتراب من عتبة بيتي. مالت نادية إلى الرصيف وجلست واضعة رأسها بين كفيها، ثم قالت وفي صوتها شرح أسيان: كأنك تحدثني عن نفسي، فالمكان الذي أقيم فيه هنا ليس بيتي، كما أن بيتي في بيروت قد دمرته الحرب ولم يعد له وجود، ولهذا فإن الحالة التي وصفتها أنت بالسحر قد سيطرت عليّ لحظة سمعتك تغني لفيروز، ودون أن أدري وجدت نفسي أترك نفسي بين يديك وأدور معك في صالة المحل، وأنا أسمعك وأقول معك بيتي أنا بيتك. جلس إلى جوارها على الرصيف، ثم ربت على ظهرها في رفق فجفلت، ثم رفعت وجهها، وقامت من جديد. سارت إلى جواره في الشارع متسائلة: هل تسكن قريبًا من هنا؟ قال: حاليًا أسكن في بلدة خارج فيينا، لكن لأنني بلا عمل فلا شيء يدفعني للحرص على العودة المبكرة.. وأنت؟ قالت: أسكن في تابور ستراشه، ويدفعني للحرص على العودة المبكرة أن محاضراتي بالجامعة غدًا تبدأ في الصباح الباكر. وقف مغمضًا عينيه ورفع رأسه للأعلى: يااه! ما أجمل الجامعة! سألته: هل تدرس؟ قال: لا أدري ماذا أقول؟! أنا طالب تحوّل بينه وبين المدرج الجامعي قيود، وزنازين، ورجال أمن، ورئيس مصر، ورئيس وزراء إسرائيل.. كل هؤلاء يمنعوني من حضور المحاضرات.

قالت: يبدو أن حكايتك طويلة. قال: أعرف أنك متعجلة للعودة. ردت: لا أقصد هذا.. قصدي أنني أود سماعها، ولهذا أدعوك لتصحبني سيرًا على الأقدام حتى البيت ما دمت غير مرتبط بشيء. قال: وهذا أجمل مما حلمت به. ردت بفرحة: وما دامت الأقدار قد هيأت لي مغنيًا حلو الصوت، أفلا يجب أن نفتتح السهرة التي سنقطعها سيرًا بأغنية قبل أن أسمع حكايتك؟

هرش رأسه مفكرًا، ثم قال: ما رأيك أن أسمعك أغنية «من سحر عينيك الأمان».. ثم أضاف مفسرًا: أقول هذا بمناسبة ما أحس به حيال عينيك. أشاحت بوجهها خجلًا وهي تبتسم، ثم قالت: من يغنيها؟ قال: تغنيها مطربة لبنانية من عندكم هي نجاح سلام، من ألحان رياض السنباطي. قالت: يا له من اختيار! قال: هي للشاعر فاروق شوشة، وهذا الرجل أحمل له محبة كبيرة ليس فقط لعذوبة أشعاره وصوته الإذاعي

الجميل، وإنما لأنه يُدرّس لي بالجامعة مادة الإلقاء؛ أقصد كان يُدرّس لي أيام كنت طالبًا.. قال جملته الأخيرة في انكسار؛ فسارعت نادية تستحثه أن يغني، فتنحنح ثم رفع صوته بالغناء:

من سحر عينيك الأمان الأمان

يا ظالمي أين الحنان؟

فداك نور عيوني

يا لوعتي وحنيني

يا فرحتي وظنوني

كُن لي على طول الزمان

أنا وأنت عاشقان

وبيننا حكايتان

من سحر عينيك الأمان.

جريدة الشرق الأوسط 6 نوفمبر 1979

- إطلاق الرهائن الأمريكيين مرهون بتسليم الشاه
- مونيغار: إذا أمر الخوميني سأقطع النفط عن أمريكا
- لا يزال مئات من الطلبة الإيرانيين يحتجزون 90 أمريكيًا رهائن داخل السفارة الأمريكية لليوم الثاني على التوالي، وأوضح المتحدث باسم الطلبة أنه تم إطلاق سراح أربعين موظفًا إيرانيًا منذ بدء احتلال السفارة، وأن الطلبة قرروا عدم إطلاق

سراح الرهائن الأمريكيين أو الجلاء عن السفارة قبل تسليم الشاه إلى إيران، وأكد المتحدث أن الرهائن يلقون معاملة جيدة، واستند إلى تصريحات معادية لأمريكا أدلى بها الإمام الخميني؛ لتبرير احتلال السفارة التي وُصفت بأنها «وكر للجواسيس».

خامسًا

(1)

خرجت نادية من البار في العاشرة مساءً، وكانت قد استأذنت من راينر صاحب المحل في الخروج المبكر؛ لتلحق بموعدها مع تونيا ومادلين في ديسكو «جالاكسي» الكائن بـ«رينج ستراشه». كانت قد اتفقت معهما على قضاء ليلة الأحد بهذا النادي الليلي الذي يقصده الكثير من زملائهم الطلبة؛ لكونه يُقدّم اشتراكًا سنويًا للجامعيين نظير رسم بسيط، مع خمسين بالمئة تخفيضًا على المشروبات والمأكولات. لم تكن نادية مُشتركة، لكنها كانت تقصده على فترات متباعدة. حاولت أن تستحث أمها على القدوم معها، لكن الأم لم تتحمس، وتعللت بأنها ستأخذ قرصًا منومًا وتدخل الفراش مبكرًا؛ منتهزةً فرصة غياب الزوج اللعين خارج فيينا لعدة أيام؛ لأمر لم يشأ أن يفصح عنه. كانت نادية تتمنى لو خرجت أمها التي ما زالت جميلة في الأربعين ولم تفقد طلتها اللافتة.. كانت تود لو خرجت وتعرفت الدنيا بعيدًا عن هانز أورليش الذي رأت النمسا من خلاله فلم تتحمس لها! ولم تكن الابنة نادية تمنع لو تعرفت الأم ماجدة رجلًا طبيعيًا وأحبته، وحصلت منه على العاطفة والمودة بديلاً عن القسوة والهوس في بيت رجل مختل لا يعرف الحب. كانت ماجدة تستمع إلى هذا الكلام دون أن ترحب أو تمنع.. كانت تتساءل حقيقةً إذا كانت الدنيا ما زال لديها شيء من الرقة تحتفظ به من أجلها، وبعد أن تسرح مع الأمانى تجد نفسها ضائعة بالفكرة؛ لأن زوجها لن يسمح لها أبدًا بالابتعاد عنه. إنها كثيرًا ما تمت موتة، وحلمت بأن يصيبه مرض عضال يسلمه إلى عزرائيل أو أن تصدمه سيارة أو ترام، وفي بعض الأحيان كان الخيال يمضي بها فتفكر في تدبير طريقة لقتله وهو نائم، غير أنها كانت تفزع من هذه الفكرة وتتمنى أن يتحقق المستحيل دون أن تضطر للتورط في القتل. الغريب أن نادية أيضًا راودتها نفس فكرة قتله، لكن لم تصارح إحداها الأخرى؛ خشيةً أن تتحمس للتنفيذ، ويكون في ذلك هلاكها معه!

دخلت نادية النادي، وأنعمت النظر من خلال الإضاءة الخافتة؛ فأبصرت على البُعد تونيا تجلس مع صديقها ماتيوس الذي تعيش معه، وفوجئت بأن مادلين تجلس وإلى جانبها كارل! ثرى هل هو موجود بالصدفة أو إنه يتتبعهم ليتقصى أثرها؟ حيثهم جميعًا وجلست، ثم حاولت الاشتراك في الحديث، لكن صوت الموسيقى الصاخب جعل الحديث غير ممكن دون أن يضع أحدهم فمه في أذن الآخر!

بعد قليل تبدلت الموسيقى وأصبحت هادئة ناعمة تغري بالرقص الرومانسي، وهنا قامت تونيا للرقص مع ماتيوس، وفوجئت نادية بكارل يقف ماديًا يده لها يدعوها للرقص، ترددت لثوانٍ، ثم قررت أن تستجيب؛ حتى لا تبدو سخيفة في ليلة كهذه، لكنها كانت و كارل يلف يده حول خصرها تفكر في عادل، وتستحضر اللحظات السحرية وهو يطوف بها داخل البار ويغني وتغني معه.

سألت كارل عما أتى به الليلة إلى «جالاكسي»؛ فقال إنه عضو بالنادي. سألته: وهل أنت معتاد أن تحضر وحدك بلا أصدقاء؟ رد: أولستم أصدقائي؟

- نحن زملاء في الجامعة، لكنني أتحدث عن أصدقاء قريبين تأتي بصحبتهم.
- مادلين صديقتي، لكنها لا تحب أن يعرف أحد شيئًا عن صداقتنا!
- غريب جدًا. إن مادلين من أقرب صديقاتي، ومع ذلك لم تخبرني عن صداقة خاصة تربطك بها!
- ذلك لأنها لا تنظر للحياة بجسارة مثلك.
- ماذا تقصد؟
- أقصد أن مادلين لا تجرؤ على مواجهة العالم بعملها، في حين أنك تعملين في بار «دولفين»، ولا تجدين في إعلان ذلك أي حرج.
- هل تقصد أن مادلين تعمل في بار وتخفي عنا هذا الأمر؟
- تعمل نعم، في بار لا!
- أين تعمل إذن؟

• تعمل معي في مؤسسة تُقدِّم خدمات «الصحة والرفقة» لمن يريد مقابل مبلغ مُعيَّن.

توقفت نادية عن الرقص وأنزلت يد كارل بعيدًا عن خصرها ورددت مشدوهة:
خدمات ماذا؟ هل تقصد أن مادلين تعمل في...؟ رد كارل: نحن لا نسمي عملنا
بالأسماء السخيفة التي تقلل مما نُؤديه من خدمات لأصحاب الحياة الخاوية والقلوب
الوحيدة الذين يطمعون في الرفقة!

• إني لا أصدق شيئًا مما تقول!

• ولماذا أكذب؟ إن مادلين تجلس هناك، ويمكنك أن تتوجهي إليها وتساألها.

• لا، لن أسألهَا، لكني أريد أن أعرف متى وكيف حدث ذلك؟!

• حدث منذ عدة شهور عندما نحجتُ في إقناعها بأن تذهب إلى المطار لتكون في
صحبة ثري أمريكي كان قادمًا من أجل صفقة تجارية في زيارة لمدة يومين، وكان
المطلوب أن تخرج معه في جولات ليشاهد معالم المدينة وتقيم معه بالفندق؛ لتسليه
ثم تحصل على عشرة آلاف شلن مقابل هذين اليومين.

• أفهم من هذا أنك قواد محترف؟

• إن عملي لا يتضمن توصيل الفتاة أو انتظارها وحمايتها أو حتى تقاضي المال من
العميل.. وبالتالي فإن لفظ القواد لا ينطبق عليّ.

قالت نادية وأنفاسها تتسارع وهي لا تكاد تصدق ما تسمع: وماذا تسمي عملك إذن
أيها الموظف الهمام؟

• مهمتي تقتصر على إقناع من أراها صالحة للعمل وتقديمها للمؤسسة، وبعد ذلك هناك
من يتولى تدريبها وتوجيهها.

• وهل تأتي زيارتك للبار الذي أعمل به في إطار محاولاتك لتقديم وجه جديد
لمؤسستك؟

• نعم، هي كذلك.. لقد سعيت للخروج معك حتى أستطيع أن أقيم حوارًا طبيعيًا بيننا؛
فأستطيع مفاتحتك في أمر العمل.

ضحكت نادية بمرارة: وأنا التي كنت أتصور أنك تريد أن تدخل معي في علاقة غرامية!

- ربما في حياة أخرى، أما في حياتنا هذه، فأنا مشغول بالعمل فقط، ولعلمك فهناك العشرات من طالبات جامعتنا يمارسن نفس مهنة الاصطحاب هذه؛ حتى يستطعن تكملة الدراسة، وأنت لا شك تعلمين أن آلاف الفتيات في جامعات أوروبا وأمريكا يفعلن الأمر نفسه؛ لأن هذه أسهل طريقة لتسديد قروض الدراسة، وبعد ذلك يقمن بطيّ هذه الصفحة والمضي قدمًا نحو بداية جديدة سعيدة.

نظرت نادية جهة الطاولة حيث تجلس مادلين، وكانت هذه تتطلع إليهما، وربما فهمت ما كان يدور بينهما من حديث. قال كارل: لقد حاولت كثيرًا أن أجعل مادلين تفتحك في الموضوع، لكنها كانت ترفض، بل وكانت تطلب مني أن أنساك وأفكر في غيرك.. أنا فعلاً لا أفهمها!

- والآن.. ماذا تريد مني؟ لقد صارحتني بالأمر وسوف أتغلب على الدهشة والقرف والعذاب الذي سأقاسيه جرّاء ما استمعت منك، وإجابتي هي الرفض القاطع.
- إن حصيلة عمل سنتين معنا قد تحقق لك الثراء وتجعلك قادرة على إقامة مشروع تجاري خاص بك.. ومع ذلك لن يجبرك أحد على شيء لا تريدينه.. نحن لسنا عصابة مجرمين، وإنما مؤسستنا تُقدّم خدماتها بأقصى قدر من السلوك المتحضر الخالي من القسر والإجبار، وفي إطار قانوني مشروع.. ولعلمك يا نادية هناك من الزبائن من لا يطلب خدمات جنسية، وإنما يريد فقط الرفقة والونس.

ضحكت نادية في مرارة قائلة: وهل تظن أنك هكذا أقنعتني وهوّنت الأمر عليّ؟ وما العمل بالنسبة لطالب الرفقة والونس إذا ما غير رأيه وأراد المزيد، هل يحق للفتاة أن ترفض؟ رد كارل: لا، لا يحق لها الرفض، لكنني أردت فقط أن أجعل شرح الأمر وافيًا.

- أكثر الله خيرك! لقد كان شرحك أكثر من وافي، وأتصور أنك منذ الآن لن تكون مضطرًا إلى المجيء لبار دولفين ومراقبتي من أسفل النظارة مع مطالعة كتاب،

وكأنك طالب بحق وحقيق!

• لقد كنت أراقب سلوكك مع الزبائن؛ حتى أستطيع تقدير قيمتك لدى المؤسسة؛ لأنني وأنا أقدم لهم الفتاة، يكون هذا مصحوبًا بتقريرٍ عنها يُستفاد منه في توجيهها لنوعية مُعيّنة من العملاء.

• عظيم عظيم.. إنكم تعملون على أسس علمية، وهذا شيء يجعلني فخورة بك! قالت هذا ثم لم تتمالك نفسها من الضحك: إنني كنت أرفض الدخول في علاقة غرامية شريفة معك بحسبانك شابًا عاديًا، فهل تتصور أن أقبل الدخول في علاقة عمل وسخة معك بعد أن عرفت أنك قواد؟!

• قلت لك إن هذه الألفاظ المسيئة لا تفيد.. لقد تجاوزناها في مؤسستنا، وهذا ما جعلنا ننتقل ونحقق النجاح.

• لي سؤالٍ آخر يا كارل، هل تونيا أيضًا تعمل معكم؟ قال: للأسف لا، لديها «بوي فريند» ميسور ينفق عليها، وسوف يتزوجها بعد التخرج كما تعلمين.. وبالتالي لن تكون في حاجة للعمل.. و...

تركته نادية يكلم الهواء، ثم انطلقت إلى مائدة مادلين التي أسلمت نفسها للشرب وطبعت على جبينها قبلة، ثم لوحت بيدها ناحية تونيا التي كانت لا تزال في حلبة الرقص، وأرسلت إليها قبلة في الهواء، ثم غادرت المرقص وخرجت إلى الهواء المنعش مع الثلج الرقيق المتساقط، والذي يشبه في نعومته القطن.

رفعت رأسها تستقبل القطرات على وجهها ومضت في طريقها للبيت. لم تشأ أن تأخذ سيارة أجرة، وقررت أن تقطع الطريق سيرًا. أحست بحنين جارف إلى عادل، وتمنت لو كان معها؛ حتى تحكي له عن الحياة وغرابتها. ما أعجب العروض التي تتلقاها! إنها لم تنسَ بعد العرض الذي تلقتَه منذ شهور من أستاذها البروفيسور عاطف جعفر بأن تكون خلية له بورقة زواج متعة، والليلة تتلقى عرضًا صريحًا بالعمل في الدعارة! على أي الأحوال هي تعدُّ مشاعر عادل نحوها هي العرض الحقيقي الذي تحتاج إليه وتستحقه.

أراح نادية -رغم قسوة المفاجأة- أنها لم تشعر بغضب نحو مادلين، ولا أحست بالرغبة في مُفَاتِحَتِهَا في الأمر أو الاستفسار منها عن الدوافع.. كل هذا لا يهم.. ما يهم أنها ما زالت تحبها، وكل ما قاله كارل لم يؤثر على هذا الحب.. بالعكس، لقد أحست بالامتنان؛ لأن مادلين جاهدت لتجعل كارل يبتعد عنها ولا يحاول إدخالها في شبكته.

(2)

انطلق عادل إلى ميدان رومان بلاتز؛ بحثًا عن بيرام التركي الذي زوده بالنصائح المفيدة ودله على مقهى جرابين. مضى إلى محل الحلاقة بالميدان، فوجده مغلقًا فدخل إلى الحديقة، وأبصر جمعًا شطرنجيًا أسفل عمود نور، ولم يخب تقديره فقد كان بيرام في قلب الحدث يلعب أحد الشباب مفتولي العضلات، وكان يميزه أثر ضربة سكين على جانب وجهه. بعد انتهاء اللعب لمحاه بيرام فسلم عليه، وسار معه نحو محطة الترام.

ابتدره بيرام: هل رأيت الوحش البلغاري الذي كنت أعبه؟ لقد كسبت مئة شلن، ولولا وجود عصبتي حولي لما دفع لي شيئًا.

- لقد جئت لأحكي لك ما فعلته اليوم في مقهى جرابين.
- آه، لقد ذهبت إذن.. لكنك تأخرت كثيرًا منذ تقابلنا المرة الفائتة.
- كنت أستعد يا بيرام، الوضع هناك لا بأس به، لكني أحتاج إليك معي.
- قلت لك إنه لا قبَل لي بهذه المستويات.
- لا أريدك أن تلعب، أنا أريد مشجعين يضعون رهانهم عليّ.. أريدك أن تحضر عصبتك؛ لأنني أشعر أن وجودكم سيوفر وقتًا أحتاج إليه ليتعرف المقهى ويمنحني اعترافه.
- آه، فهمتك.. لا بأس، ومَن يعلم؟ ربما نكسب من وراءك المال.
- ستكسبون، لكن تعال في مساء الغد؛ حتى لا أكون وحدي هناك.
- غريب أمرك، أليس معك مناصرون من أصحابك المصريين؟

- عندي أصدقاء، لكن ليس من بينهم من يهوى الشطرنج، كما أنهم يكسبون أرزاقهم من أشياء أخرى.
- أوكى.
- بالمناسبة، ما أخبار حلقات الملاكمة التي حدثتني عنها؟
- آه، هل نويت أن تراهن؟
- لا، لكن عندي ملاكم ينوي أن يشارك.
- سنكون هناك الخميس المقبل.. هات صاحبك عند الظهيرة وقابلنا في بلدة «مودلنج» خارج فيينا.. الرفاق يجتمعون خلف محطة القطار في حديقة صغيرة بعيداً عن السكان.

كان عادل يتحدث عن عزت السمكري الذي طالت به البطالة وقلة العمل، وأصبح رفاقه في الشقة يضيقون به؛ لأنه لم يعد يكتفي بالأكل معهم فقط، وإنما أصبح يطمع في أن يدعموه بدفع نصيبه في إيجار الغرفة! كان عادل قد تحدّث إلى محمد أبو الفتوح في أمره، واقترح عليه أن يُقنعه بالملاكمة بدلاً من التسكع تحت الكوبري. وافق عزت على مضم.

مضى عادل إلى شقة شارع سلزاخ، وصعد فوجد عزت في انتظاره. كان عزت الوحيد الموجود بالشقة في هذا الوقت، بينما الباقون في أشغالهم. راعت عادل الرائحة الخائفة داخل الشقة التي لا يهتم أحد بتهويتها. أخذ عزت إلى القطار المتجه لبلدة مودلنج التي يعدها بعض الناس ضمن ضواحي فيينا، وذلك لقربها منها؛ رغم أنها لا تنتسب إلى العاصمة إدارياً. في القطار عاتبه عادل قائلاً: أنا لا أصدق يا أسطى عزت أن رجلاً مثلك يستمرى الجلسة هكذا طوال الشهور الماضية، ويقنع بالعيش على حافة الحياة مع رفاق مأزومين.. ما الذي يدفعك للبقاء هنا؟

قال عزت في انكسار: وما الذي يدفعك أنت إلى البقاء بينما عاد الطلبة لموسمين متتاليين إلى دراستهم؟

- أنا موضوعي مختلف يا عزت، وحكايتي طويلة، ولا أريد أن أصدعك بها، إنما أنت أسطى سمكري، وأمثالك صاروا أسياد المجتمع بعد انفتاح السادات الذي خرب الحياة على الموظفين، وجعل السباك والسمكري والميكانيكي يكسبون أضعاف ما يكسب وكيل الوزارة.. ما الذي يبقيك في هذه العيشة البائسة؟
- يا أستاذ عادل، أنا طفشان من البلد، ولقد جئت هاربًا بعد أن تم الحكم بحبسي خمس سنوات! أنا لا أحكي هذا الكلام هنا؛ حتى لا يمسك عليّ أحد ذلة يهددني بها. لقد كنت على علاقة حب مع فتاة من «سندوب» عندنا في المنصورة، وعندما ضبطني أخوها معها في الشارع فإنه لم يقبل التفاهم معي، لكن أهانني وتناول عليّ.. لم أكن أريد أن أؤذيه.. كنت أريد أن أصاهره وأتزوج أخته فتحملت إهاناته، لكن يبدو أن صبري أغراه فمد يده وصفعني على وجهي في الشارع أمام الناس. لم أدر إلا وأنا أحمله من أسفله وأرفعه عاليًا، ثم ألقي به على الأرض فسقط على رأسه ودخل في غيبوبة، بعد ذلك تمت محاكمتي، لكني هربت في أثناء المحاكمة.. وبالتالي لا أستطيع العودة قبل سقوط الحكم.
- يا إلهي! ألا يوجد بهذا البلد مصري واحد حياته طبيعية؟
- موجود، لكنك لن تجده بشقة شارع سلزاخ، وقد عثرتُ على أحدهم.. رجل محترم قابلته في النادي المصري.. كنت قد ذهبت مثل كثيرين إلى النادي المصري في شهر رمضان الماضي لتناول الإفطار المجاني الذي يقدمونه، وهناك التقيت بالرجل الذي اقترح عليّ أن أذهب إلى المنطقة الصناعية في ضاحية «سيمرنج» شرق فيينا؛ حيث المصانع الصغيرة والورش التي قد تحتاج إلى صناعية. لقد كانت المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذا المكان، ذهبت بالفعل، لكنني شعرت هناك بالضياع.. لم أستطع أن أكلم أحدًا أو أتفاهم مع أحد حتى أعرف إذا كانوا يريدون تشغيل سمكرية أم لا.. ظللت أَلْفَ طول اليوم ثم عدت خائبًا.. أنا لست مثلكم، أنا أعرف أنكم لا تتحدثون الألمانية جيدًا، لكن أنت وأبو الفتوح -ما شاء الله - تتكلمان إنجليزي ولا تواجهان صعوبة في التفاهم.

قال عادل بعد أن استمع إلى قصته: اسمع يا عزت يا كلوت، كلنا ظروفنا مهيبة، لكن لا يجب أن نستسلم.. سنذهب الآن إلى مكان للملاكمة كما أفهمتك، واللاعبون هناك على باب الله مثلك، ومنهم من يذهب ليأخذ الطريحة المُعتَبَرة بصدر رحب من أن أجل المال.. حاول أن تفوز وسوف تجد جيبك قد امتلأ بالمال، وكُف عن السنكحة والتسول، أيضًا حاول أن تقلل رحلاتك إلى أسفل الكوبري لتصون صحتك.. أنت -ما شاء الله- في قوة البغل الأسترالي، وحتى لو خرجت من المباراة مهزومًا فسوف تقبض بعض المال!

عند العودة آخر النهار كان وجه عزت متورمًا من شدة اللكمات التي تلقاها وضلوعه تؤلمه بشدة وشفته تنزف، لكنه كان يحمل في جيبه خمسمئة شلن.

قال له عادل وهو يستقل القطار عائدًا إلى فيينا: لقد وضعتك على أول الطريق وعرفتك إلى بيرام التركي، وهو سوف يرتب لك المباريات، ويدلك على مواعيدها، ما عليك سوى أن تدفع له بعض المال نظير خدماته.. كن الأسطى عزت الجدع وتوقف عن كونك الرجل الكلوت!

(3)

قالت نادية وهي تجلس أمامه في كافيتريا «تايرون» بميدان كارلس بلاتز: يا إلهي يا عادل، إن حكايتك معقدة للغاية، لقد كنت أظن أنني الوحيدة في هذه المدينة التي تحارب على أكثر من جبهة.

• إنني لا أحارب على أي جبهة.. أنا فقط أنتظر ومصيري ليس بيدي.. أنت تحاربين وترين آفاق النصر تلوح لك من بعيد، وما عليك سوى الصمود حتى تتخرجي وتنالي

المكانة التي تستحقها، أما أنا فلا مستقبل لي هنا، في الوقت الذي لا أستطيع العودة إلى بلدي.. إنني آمل أن تتبدل الأحوال في مصر، لا أدري كيف، لكن هذا هو الأمل الوحيد، وأرجو أن يحدث هذا قبل أن أشيب ويصبح استثنائي للدراسة بالجامعة ضرباً من المستحيل.

- لا أزعم أنني على علم بالخريطة السياسية في مصر، لكن ربما تتغير السلطة الحاكمة ويتم تصويب المسار وعودة الهاربين.

ضحك عادل من سذاجتها قائلاً: أي تصويب؟ وأي مسار؟ إن السادات يسمينا شرذمة وقلّة منحرفة، وفي بعض الأحيان يقول عنا: الأفنديات الأرازل.. إن الرئيس الذي تطاردني قوات أمنه أمامه على الأقل ثلاثين عامًا أخرى بالسلطة، وأنتِ تعلمين أن الحكام في بلادنا لا يتغيرون إلا بالموت بعد أن يُعمّروا زمناً تكون فيه أحلام الناس قد ذابت.. إنني أفتقد أمي وأبي وإخوتي ولا أعلم إذا كنت سأراهم مرة أخرى أم يُفرّق الموت بيننا؟

هنا تقدمت نادية على استحياء باقتراح: سأقول لك رأياً أرجو أن تسامحني إذا لم يعجبك.. ألا تستطيع أن تعود وتواجه السجن الذي ربما لن يزيد على شهور قليلة، ثم تستأنف بعدها حياتك؟

اندفع عادل قائلاً في حماس: والله العظيم ثلاثاً سأخذ الطائرة في الصباح الباكر لو حصلتُ على تأكيد بأنني سأسجن لسنة واحدة فقط، وأنهم لن يفصلوني من الجامعة، لكن للأسف لا شيء من هذا مضمون.. إن معارضة الناس للعلاقات مع إسرائيل تثير جنون السادات بعد أن خُيّل إليه أنه رسول السلام، وأنا الكفار الذين نقاوم الإيمان برسالته السامية ونحض الآخرين على رفض نبوته! لك أن تتصوري ما يفعله نبي يأمل في نشر دعوته بالذين يقاومون هذه الدعوة!

- ألا يقول لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء؟

• هذا ما يفعله الرسل الحقيقيون، أما المغامرون ولاعبو الثلاث ورقات فلا يفكرون سوى في البطش والانتقام.. إنني يا نادية أشعر بالخوف طوال الوقت.. منذ وصلت هنا وأنا مرعوب من أن تقوم السلطات النمساوية بترحيلي عنوة وإعادتي إلى مصر.. صحيح أنهم جددوا لي الإقامة ولا أدري كيف؟! ولم يجدوها لي وحدي وإنما فعلوا هذا لكل المصريين الذين طلبوا التجديد، ومن المؤكد أن هذا بسبب احتياجهم إلينا في بيع الجرائد، لكنهم مع هذا قد أعطوني إنذارًا بوجود الحصول على جواز سفر جديد.

• رائع، إن هذا يحل المسألة، وما دام النمساويون يقبلون بوجودكم فلا شك أنهم سيجدون الإقامة مرة ومرات.. ما عليك إذن سوى الذهاب لسفارتكم ليمنحوك جوازًا جديدًا.

أطلق عادل ضحكة عريضة، وقال: منذ عدة أيام كنت أمر بالصدفة بالقرب من السفارة المصرية ووجدت نفسي دون قصد أعبر إلى الرصيف المقابل وأسرع الخطى قبل أن يحدث لي شيء سيئ لا أدري ما هو.. صحيح أنني بعد أن ابتعدت ضحكت من سذاجتي، ولكن هذا قد يريك رد فعل مواطن إزاء الاقتراب من سفارة بلده!

• رحماك يا الله، إن أوطاننا قد سجنتنا بالخارج! لعلك تعرف أن الحرب الأهلية الدائرة الآن في بلدي قد قذفت بمئات الآلاف من المواطنين خارج الوطن، ولا ندري متى تنتهي الحرب؟ أو هل سيظل هناك شيء من لبنان بعد أن يتوقف المحاربون عن تبادل القتل؟! لقد رأيت أبي وعمتي والرصاصات تخترق جسديهما، وما زال منظر دمائهما وهي تُغرق الأرض يوقظني من النوم مفزوعة، ويفعل الأمر نفسه في أمي.. إننا أحيانًا نتشارك نفس الحلم في الليلة الواحدة.. هل هناك رعب يوازي هذا؟ والأصعب يا عادل أنني ومع أمي الحبيبة ماجدة بينما كنا نصارع الغرق وبدلاً من الوصول لشاطئ الأمان؛ وجدنا نفسينا نتعلق بسفينة قرصان ونقع في يد المجرم العنصري هانز أورليش الذي أخبرتك عنه.

نظر إليها عادل يريد أن يغير الموضوع الذي لا يجلب سوى الأسى، وسألها إذا كانت تحب أن تأكل شيئًا. قالت: لا شيء، هل ضايقتك حديثي وتريد أن تغير الموضوع؟

- أنت وحديثك أرق وأجمل ما في الوجود، ولكنني أشفق عليك من اجترار الماضي، وبدلاً من نزع الذكريات من مكانها؛ دعيني أسألك كيف طاوعك قلبك أن تقترحي عليّ أن أعود إلى القاهرة لأواجه مصيري؟ ألم يطف ببالك أن هذا قد يعني ألا نلتقي ثانية؟

- لا تكن ظالمًا، إنني والله ما اقترحت هذا إلا بغرض أن تُجلي هذه الغمة وتطرحها بعيدًا عنا؛ حتى تصفو لي وأصفو لك دون الغام أو أسلاك شائكة.

أمسك عادل وجهه بكتلتا يديه؛ حتى لا ترى نادية الدمعة التي طفرت من عينه، ثم استدار وقام ذاهبًا إلى الحمام.

عاد فجلس بجوارها بعد أن كان يواجهها، وسألها: نادية، لو طلبت أن أمسك يدك هل تفزعين مني؟ لقد أردت أن أفعل هذا عند لقائنا السابق عندما سرت معك بعد منتصف الليل حتى باب منزلك، لكنني ترددت وغلبني الخوف. ارتبكت قليلًا قبل أن تترك يدها بين يديه، ثم تتشجع أكثر وتميل عليه برأسها وتغمض عينيها.

مسح بيده على شعرها قائلاً: يبدو أنني وقعتُ في هواك يا أخ عُفْرَكُوش. قالت متفاجئة: ماذا؟ تجاهل سؤالها مضيئًا: لقد كانت بداية تعارفنا أنني راقصتك وأمسكت بخصرك ودرت معك في صالة البار، ومع ذلك فقد حسبت ذلك دائمًا من قبيل السحر أو الحلم غير الواقعي، ولم أعوّل عليه في بناء علاقة حقيقية معك، وكأنني كنت وقتها شخصًا آخر وكنت فتاةً أخرى. ظلت نادية صامته وهو يتحدث لتترك حديثه يتسرب بهدوء إلى نفسها، وبعد مدة رفعت رأسها ونظرت نحوه قائلة: عادل، إنني خائفة أكثر منك بعد أن سحبت الحياة مني الأمان.. لقد عملت في البار مثل غيري من الطالبات، ليس فقط لتأمين احتياجاتي الشخصية، وإنما ليكون في عملي ضمان إلى أنني أستطيع شراء ربطة خبز في أي وقت. قبل أن أعمل كنا أحيانًا

نظل ليالي دون طعام بعد أن تفرغ المؤن من البيت، وكنا نبقي في انتظار زوج أُمي العرييد حتى يعود فنحصل منه على بعض المال لشراء احتياجات البيت.. كان أحياناً يخرج ولا يعود قبل ثلاثة أيام قضاها كالمشردين في الحدائق؛ حيث يعثر هناك على مبتغاه من الشباب المستعدين لممارسة الجنس مع الرجال. لقد بلغت به القذارة أن أصيب بالجرب وتقرح جلده، ثم نقل لنا المرض أنا وأُمي لأنه كان يستعمل أدواتنا ومناشفنا، بل وكان يتعمد في أثناء غيابنا أن يُخرج ملابسنا من الأدراج ويرتديها ثم يخلعها بعد أن يلوثها بجربه. ظللنا نتناول العلاج لشهور قبل أن تزول آثار المرض الجلدي.. هل تتصور أن يصيبنا الجرب ونحن في أواخر القرن العشرين؟ أيُّ كائنات كان يعاشرها هذا الحيوان بالغ الدناءة؟! ومع ذلك فإن خوف أُمي من الابتعاد عنه قد انتقل إليّ.. كانت تخشى إن هربنا منه أن يتعقبنا بوسائله ثم يؤذينا.. امرأتان وحيدتان ليس لهما أب أو أخ أو عم يزود عنهما ويردع من يهددهما.. لقد علّمني فقد الأب أن وجوده لا يعني أنه سيقوم بالضرورة بدور الفتوة والقبضاي الذي يضرب ويطيح بالأشرار، لكن وجوده حتى لو كان ضعيفاً أو متخاذلاً من شأنه أن يجعل من يُضمر الشر يفكر مرتين خوفاً من أن يكون لدى رب العائلة حلول وخيارات غير معروفة! صحيح نحن نعيش في دولة طيبة لها نظامها القانوني، لكن الخلل فينا نحن؛ إذ لم نستطع أن نستفيد من الحماية التي يوفرها القانون لأمثالنا؛ بسبب خوفنا وضعفنا وأشباه الماضي التي تدهمنا فتجعلنا ننام القرفصاء في الوضع الجنيني.. هل تصدق أنني مثل أُمي لا أستطيع النوم إلا إذا اتخذت هذا الوضع فوق السرير؟

كان عادل يستمع إليها تحكي عن زوج أمها الشاذ، وعقله يفكر في رفاقه الذين يحترفون التعاطي مع الشواذ، سواء طه اللواط أو حسنين الصعيدي الذي يحلم بالعثور على أي كائن يصلح للمضاجعة؛ بصرف النظر عن نوعه أو كينونته.

قالت له نادية: تعرف؟ أنا في وقت من الأوقات طافت ببالي فكرة مجنونة؛ نتيجة مخاوفي من الرجال التي تولدت عندما شاهدت رجال عائلتي يُقتلون كما شاهدت بعضهم يخرجون بالبندق طلباً للثأر من الجيران.. وهنا في النمسا كان نموذج هانز

أورليش هو النموذج الرجالي الذي ألقته الأقدار في طريقنا.. لقد تصورت أن الأمان هو في احتضان النساء لبعضهن وحبهن على بعضهن، ورأيت أن الرفقة الخالية من الغدر هي مسلك نسائي أيضًا.. لكل هذا فلم أتصور أن أرتبط في يوم من الأيام بشاب، لكن ظننت أن الأصح هو أن أرتبط بفتاة وأدخل معها في علاقة عاطفية تخلو من القسوة والانتقام، وظللت أفكر تُرى هل تصلح تونيا لأقيم معها هذه العلاقة، أو أن مادلين هي الاختيار الصحيح؟ هل تصدق أن ما منعتني من المبادرة هو عدم تيقني من أن هذا هو القرار الصحيح؟! لقد خشيت أن كلاً منهما لا تملك دوافعي لعلاقة مثل هذه، وتذكرت أن تونيا لها صديق تحبه، كما أن مادلين لم تعرب عن أي ميول من هذا النوع.. والأهم من كل ما سبق أنني نفسي لم أفكر في ممارسة الجنس مع فتاة، لكن كل ما أردته هو الرفقة الطيبة والحنان، وهذا متوفر بيني وبينهما دون شذوذ! هل تُرى كيف يذهب الرعب النفسي بالعقل وإلى أي مدى؟

كانت نادية تحكي متدفقة، منطلقة كالشلال، ولم تلحظ من فرط الانفعال والحكي أن عادل يبكي.. كانت تشق روحها الجريحة أمامه، وكان يبكي!

(4)

شعرت ماجدة في الآونة الأخيرة بانفراجة معقولة في حياتها بعدما أصبح زوجها هانز منشغلاً عنها. لا يكاد يعود إلى البيت بعد غياب أيام حتى يطلب منها تجهيز الحقيبة من جديد ليغادر. لم تكن تعرف أين يذهب، لكنه ذات مرة أخبرها أنه يقضي بعض الوقت في كوخه الصغير الذي يملكه في غابات جبل كالينبرج على حدود فيينا. كانت تعرف أنه يمتلك كوخًا في ذلك المكان حصل عليه من الحزب الذي ينتمي إليه، ويبدو أن رفاقه بالقيادات العليا كانوا يتصرفون في التبرعات التي تصل إليهم بالكيفية التي يريدونها! طلبت منه في بداية الزواج أن يأخذها لهذا الكوخ، ووعدا بذلك لكنه لم يفِ أبدًا، ويبدو أنه اتخذ هذا المكان لمزاجه الخاص بعيدًا عن

أعين المتطفلين وأولهم زوجته وابنتها. استطاعت ماجدة ونادية في غياب هانز أن تتمتعاً بالهدوء والحوارات الطويلة المريحة ومشاهدة التلفزيون، والأهم بالنسبة لماجدة أنها استطاعت الاستئثار بالسرير وحدها بدلاً من مزاحمة الزوج الذي كان يعود عادةً مخموراً، ثم يلقي بنفسه على السرير ويحشرها بجسمه في ركن ويفرض عليها القرفصة والتكور. كانت لا تستطيع أن تترك الفراش وتذهب لتنام على الأريكة بالصالة؛ لأنها عندما تجرأت وتركت له السرير نالت منه ضرباً مبرحاً. كان يحتاج إليها في الفراش ليريح فخذة على جسمها وكأنها وسادة، بينما هو يبرك على وجهه كأنه بعير منطرح أرضاً!

عندما طلبت منها نادية أن تأتي معها بصحبة تونيا ومادلين لقضاء نهاية الأسبوع في مدينة «بادن» القريبة من فيينا؛ حيث ينابيع المياه الحارة والحمامات العلاجية والمساج والتقشير وكل ما يعيد للجسم نضارته وبهاءه- فإنها رحبت بشدة.

التقى جمعهن في محطة هوتبانهوف وركبن القطار الذي قطع بهم مسافة 35 كيلو إلى بادن في نصف ساعة. انبهرت ماجدة بالمروج الخضراء والمرتفعات التي تشرف على المناطق المحيطة، وكلها تسعد العين، وسارت وسط الفتيات تملؤها الراحة بين شوارع البلدة الضيقة الأنيقة ذات النوافير مع المطاعم على الجانبين. كانت -رغم سنواتها التي قضتها بالنمسا- لا تكاد تعرف حتى تفاصيل الحي الذي تسكن فيه. لم يتحمس هانز لاصطحابها خارج البيت كما لو كانت جارية اشتراها وأغلق عليها الدار.. لقد استغل حالة الهلع النفسي التي كانت عليها بعد قدومها من بيروت، وعزز من مخاوفها؛ حتى تظن أنه ملجؤها الوحيد من وحوش الخارج! وبمرور الوقت استكانت إلى هذا الوضع، ولم تعد ترغب في الخروج، واكتفت بما تسمعه من نادية عن النمسا وجمالها.

بعد التمشية الطويلة في الطرقات اتخذن طريقهن إلى فندق «بارك»؛ حيث كانت تونيا قد حجزت غرفة على الحديقة لاستعمال اليوم الواحد، أو بالأحرى قام ماتيوس

خطيبها بحجزها لهن على حسابه، وقد أشاد بهذا الفندق وزكاه لتونيا؛ لوجود مياه الينابيع الحارة به في غرف مخصوصة، ولم ينسَ ماتيوس أن يعطي تونيا «فاوتشر» أو قسيمة بقيمة خمسة آلاف شلن لتقدمها للفندق مقابل الخدمات والأطعمة التي سيحصلون عليها، مع وصية لها باسترداد الباقي -إذا كان ثمة باقي- في قسيمة جديدة.

دخلت ماجدة إلى غرفة الحمام التركي فخلعت ملابسها وأسلمت نفسها للمغطس الساخن، بينما عادت الفتيات إلى الغرفة وطلبن الإفطار، فأتهنن إفطار فاخر يكاد يكون غداء من فرط ثرائه وتنوعه.

قالت تونيا: كما ترون، ماتيوس لا يتردد في الإنفاق عليّ.. لا تهمة الأموال، ولذلك فقد استأجر لنا مسكننا الصغير، وهو يترك لي حرية الذهاب إلى منزل أهلي وقتما أشاء ثم العودة إلى شقتنا، وهو يفعل الأمر نفسه، فأحياناً يبيت معي وأحياناً يقضي الوقت في بيت أبيه.. عائلته شديدة الثراء ووالده مدير تنفيذي كبير بشركة سيارات، لكن عيب ماتيوس أنه لا يحب العمل. إنه يعيش السفر والترحال وإنفاق أموال والده، وقد أسلفته دراسة الفلسفة التي تخصص فيها قبل التخرج إلى حالة من السلام مع الحياة، ورفض الانغماس في صراعاتها؛ باعتبار العمر أثن من أن يضيع في العمل والتنافس من أجل الوصول، مع مصارعة الزملاء ودهسهم من أجل الحفاظ على ما وصلنا إليه.. إنه يقول: عندي المال الذي يفني الناس أعمارهم للحصول عليه.. لقد اشترى لي أبي عمراً إضافياً عندما حفظ عمري هذا من التلف وجعله قابلاً للاستمتاع به إذا ما أحسنْتُ استخدامه.

أبدت نادية استحسانها لهذا الكلام: والله إنها فلسفة رائعة من شاب يبدو أنه يفهم أفضل منا جميعاً. أضافت تونيا: عندما حدثته عن أهمية العمل في بناء الشخصية واكتساب الخبرات وتعرُّف الذات من خلال ما نقدمه؛ فإنه ضحك بشدة ولامني على ترديد هذه المحفوظات الكاذبة التي يبائعونها للناس للحصول على ناتج جهدهم

وعرقهم؛ بزعم أن هذا يفيد ويبني الشخصية مع الحصول على بعض المال.. وأكملت تونيا: لقد رحلت والدته وهو صغير وعاش مع والده كصديقين، والعجيب أن الأب لا يضيق بتوجهات ابنه ولا يملي عليه النصائح المعتادة عن أن المال الذي يأتي بسهولة يضيع بسهولة، وعن أن الفلوس في يد الشباب تدفع للاستهتار والانحراف.. لا، لا.. أخبرني أن والده لا يردد شيئاً من هذا، لكنه يمنح ماتيوس المال وهو يشعر بسعادة؛ لأن ناتج تعبهم يسهم في إسعاد ولده الوحيد ولا يذهب هباءً! ضحكت نادية قائلة: يا لهما من أب وابن رائعين! إنني أتمنى أن أتبنى نفس فلسفتكما لو صار لي أبناء في المستقبل.. هذا طبعاً إذا اغتنيت وصرت مليونيرة مثل السيد والد ماتيوس.

عقبت مادلين: الغريب أنه لا تبدو عليه كل هذه الحكمة، فالذي يراه يظنه شاباً عابثاً من الذين أبطرتهم النعمة وأصابتهم بالتخمة والفساد العقلي. ردت تونيا: بالعكس، من أين أتيت بهذه الفكرة الغريبة؟ إن النعمة قد نقت سريرته وجعلته يرتفع فوق الصغائر.. يكفي أن تعرفي أنه يقضي معظم وقته في القراءة.. هل هناك شاب فاسد أو متبطر يجلس في المساء يقرأ بدلاً من البحث عن النساء ومطاردتهن وشم الكوكايين ومعاقرة الخمر والقمار؟

سرحت مادلين وهي تنظر عبر الباب الزجاجي للشاليه المطل على حمام السباحة الخالي من الرواد بسبب البرودة، ثم قالت: تمسكي به يا تونيا، إنه يحبك وهذه فرصة تحلم بها أي واحدة.. يكفي أن تعلمي أن هناك من يقاسين في هذه الحياة لكسب المال لسنوات طويلة بغرض الوصول للنقطة التي تقفين عندها الآن، ومثلما اشترى والد ماتيوس له عمراً خالياً من الكدح والعناء، فإن ماتيوس يفعل نفس الأمر معك ويعفئك من الحرب الأهلية التي لا مفر منها بالنسبة لمعظم الناس. ضحكت تونيا قائلة: إذا كنت تقصدين نادية بكلامك هذا؛ فأنا أطمئنك؛ لأنها تعرف نهاية الطريق، وهي ليست بعيدة عنه، فبعد التخرج يمكنها العمل بالجامعة أو بأي من مراكز البحوث الأوروبية والسفر إلى أفريقيا وآسيا وبلاد العرب؛ حيث الحضارات القديمة

التي ندرسها. قالت مادلين بصوت خفيض: إنني لا أتحدث عن نادية.. أتحدث عن نفسي.

كانت نادية قد ابتعدت إلى حافة الغرفة وأخذت تتطلع إلى لوحة على الجدار؛ حتى لا تلتقي عيناها بعيني مادلين في أثناء حديث الأخيرة. أبدت تونيا الدهشة: وما مشكلتك يا حلوتي؟ إن لديك والدين تعيشين في كنفهما، ولم يضيقا بك أو يدفعاك للاستقلال والخروج من البيت كما يفعل بعض آبائنا. نظرت مادلين نحو نادية التي علقت بصرها باللوحة وقالت: تكلمي يا نادية، قولي لتونيا ما عرفته عني.. لا تمنحيني سماحتك التي تليق بنبلاء القرن الثامن عشر؛ لأنها تقتلني. اقتربت نادية منها وانحنت إليها ثم أمسكتها بين يديها واحتضنت رأسها قائلة: أي سماحة يا مغفلة؟ إنني لم أنظر إلى الأمر على أي نحو ينتقص منك.. بالعكس، رأيت فيه قدرتك على اتخاذ قرارات شجاعة لاختصار السكة وتحقيق الطموح.. فقط أشفقت عليك من وعشاء هذا الطريق وخشيت أن ما ستحققينه قد يكون فادح الثمن على مستوى الروح، لكني لا أحمل إدانة، ومَن أكون أنا لأدين الناس؟ خاصة لو كان الكلام عن مادلين الجميلة الرقيقة.

كانت تونيا تنظر إليهما في دهشة وهي لا تفهم عما تتكلمان؛ لذلك علا صوتها: ماذا يا طفلتَي الحلوتين؟ ألا تشعر أيُّ منكما بأنها تدين لي بتفسير عما تتحدثان عنه؟ من الواضح أنكما راكمتما أسرارًا من وراء ظهري أيتها اللئيمتان. سكتت نادية، أما مادلين فقد انطلقت تحكي عن عملها الذي أخفته عنهما في السابق، وعرفته نادية ليلة صارحها كارل برغبته في ضمها هي الأخرى للمؤسسة!

(5)

نزل محمد من البيت وسار في اتجاه محطة الترام. ورائه كان يسير طه، ومن بعدهما عزت كلوت. لقد تصادف نزولهم معًا في يوم الأحد هذا وكل منهم له شأن

بعيداً عن الآخر. محمد كان يعتزم التوجه إلى محطة «هيليجين شتات»؛ ليأخذ القطار إلى «تولن»؛ حيث دعاه عادل لزيارته وقضاء اليوم معه. وطه كان يسعى إلى رزقه؛ حيث واعد صيداً جديداً آملاً أن يحصل منه على كاميرا وعده هذا بشرائها له. أما عزت فقد كان متوجهاً إلى محطة الدانوب القديم؛ حيث الجسر المبارك.

على سلم العمارة كان حسنين يتسلل خلفهم في خفة حتى بلغ رصيف الشارع. وقف يتلفت يمناً ويسرة متسائلاً بينه وبين نفسه: هل أتبع عزت إلى الكوبري الذي يذهب إليه وأقضي النهار معه في مطالعة السيقان، أو أنطلق خلف طه؛ عسى أن أكون محظوظاً وأقضي وطراً مع أحد أصدقائه، أو يا ثرى أمضي خلف محمد أبو الفتوح الذي قال إنه سيزور عادل في مدينته الجديدة، وبهذا يمكنني معرفة أين يسكن، وقد يكون في هذا خير كثير بدلاً من العمل المضمي في الجرائد؟ الأمر محير، لكن عليك يا حسنين أن تحسم الأمر سريعاً قبل أن يبتعدوا. إن الذهاب خلف عزت كلوت ليس به جديد، خاصةً وأن برد الشتاء قد قلص كثيراً من مساحات الأفخاذ والوراك التي كانت متاحة حتى وقت قريب، وصارت النساء الآن تتدثر بالأثواب الطويلة والبنطلونات تحت الفساتين القصيرة.. أما الذهاب خلف محمد فإنه قد يغضبه فأخسره وربما يطردني من الشقة.. لقد حسم الأمر نفسه.. أنا قادم ورائك يا طه.

عند عجلة «البراتر» الشهيرة في مدينة الملاهي وقف طه ينفخ يديه من البرد. كانت الملاهي شبه مهجورة؛ بالرغم من أنه يوم أحد؛ حيث أغلقت معظم الألعاب وأغلب المطاعم بسبب الشتاء. تلفت طه حوله فأبصر حسنين يضحك متقدماً نحوه، فصاح به:

• ما الذي أتى بك ورائي يا بن الكلب يا ملعون؟

- اسمع يا طه، أنت تعرف أنني أحبك وأعدك مثل أخي الكبير.. أنا لا أنافسك في أكل عيشك، أنا عملي في الجرائد يكفيني، وكل ما أريده هو ممارسة الجنس.. لقد كنت أظن حين أتيت هنا أن النسوان في المتناول طوال الوقت، وما على المرء إلا أن يمد يده ويختار من يضاجعها.
- أنت عبيط يا بني؟
- لا لست عبيطًا، لكن هذه هي الأفكار المتداولة في قرينتنا؛ حيث ينهش الحرمان الجنسي كل الطلبة، وحيث يمارس بعض الشباب الجنس مع الحيوانات!
- حيوانات؟! روح الله يقرفك يا شيخ.
- أنا لست مثلهم.. لقد حلمت بأن تحبني امرأة لأنني مصري.. هكذا قال أصدقائي بينما كنت أستعد للسفر.. قالوا إن الرجال في أوروبا مخنثين، ولذلك فإن المرأة تنتشق رائحة فحل مصري يشطرها نصفين!
- يا سلام؟! أنت تظن أن النساء هنا يمضي بهن العمر في حرمان حتى يتعطف عليهن شاب مصري قادم هنا لبيع الجرائد.. أنت أكيد مجنون يا حسنين.. ما الذي يجعل أوروبية جميلة تفكر في إقامة علاقة مع متشرد مثلي ومثلك؟ إن مبلغ أملك هو أن تقيم علاقة مع واحدة ضائعة بفعل الإدمان أو علاقة شاذة مع حيوان سيكون في الغالب عجوزًا مثل الذين أعرفهم.
- لا بأس بالتجربة، فربما أنّ التجربة تنفرتني وتجعلني أبتعد عن سكة هؤلاء، لكني دون أن أجرب سأظل على شوق بأن الجنس معهم ممتع وجميل!
- وماذا إذا أعجبك النظام؟
- هذا هو عز المطلوب، وسأكون لك من الشاكرين.
- هل تعرف يا حسنين أن الفرق الذي تظنه بين الشاذ السلبي والشاذ الإيجابي لا وجود له هنا، فكل منهما تدل عليه كلمة واحدة.
- لا أفهم ماذا تقصد؟!
- أقصد أنني أعرف أنكم في قرينتك تظنون أن الشاذ الذي يقوم في العلاقة بدور الأنتى هو الجدير بالتجريس والاحتقار، بينما الآخر ترونه عنيتيلاً يستطيع أن يزهو

- ويفخر بفحولته وغزواته.. هذا غير صحيح يا سيد حسنين، والكلمة التي تبدأ بحرف الخاء في الوصف الشعبي للشاذ سوف تنطبق عليك كما تنطبق على مَنْ تعتليه!
- والله يا أخ طه لكم مصطلحاتكم ولنا مصطلحات!
 - آه يابن الكلب يا فاجرا!

وقف طه حائرًا لا يدري ماذا يقول لهذا الإنسان البدائي الذي يريد أن يضاجع أي كائن حي! إنه هو شخصيًا يعصر على نفسه ليمونًا وهو يفعل ما يفعله من أجل المال. نظر إلى حسنين يتأمله ثم قال له: هل تظنني سعيدًا بهذا الأمر يا صاحبي؟ إنني أحكي لكم حكاياتي مع هؤلاء؛ حتى أخفف وطأة الأمر على نفسي عندما أجعلكم تضحكون وتندمجون معي في الحكايات، وربما أنني بهذا الحكي أقنع نفسي أن ما أفعله هو شيء مضحك غير مستهجن؛ بدليل أنكم تستمعون ولا تستنكرون، لكني في الحقيقة أتمنى عندما أرجع إلى مصر أن أفقد الذاكرة ولا أعود أتذكر أي شيء من هذا، وذلك حتى أستطيع أن أنظر في وجه زوجتي وابنتي.. هذه العلاقات التي تسعى إليها هي شيء رهيب، أفضح مما تحس به المومس وهي تبيع جسدها من أجل المال.. أنا مومس يا حسنين، فهل تريد يابن الناس أن تكون مومسًا مثلي؟!

قبل أن يرد حسنين كان نمساويًا في الخمسينيات من عمره قد هبط عليهما فاتحًا ذراعيه لطفه، ومبدئيًا الأسف والاعتذار نتيجة تأخره عن الحضور في الميعاد.

قال طه بلهجة غلب عليها الحزن موجهًا الحديث لحسنين: هذا نموذج ممن كنت أحدثك عنه.. هل هذا الدميم التعس الذي تفوح منه رائحة الخمر في الصباح قادر على أن يمنحك السعادة؟

- سعادة؟! مَنْ قال شيئًا عن السعادة؟ إن كل ما أريده هو أن أتخلص من التوتر الذي يسببه لي الالتهياج والحرمان الجنسي.. هذا كل ما في الأمر.

ردد الرجل النمساوي البصر بينهما، ثم قال وهو يتطلع إلى حسنين باهتمام: أشرف،
ألا تُعرِّفني إلى صديقك؟

فهم حسنين أن طه يخفي عن الرجل اسمه الحقيقي. قال طه: قبل أن أعرفك
بصديقي.. هل أحضرت الكاميرا التي طلبتها منك؟ رد الرجل: نعم، نعم.. إنها معي في
السيارة.

سار الثلاثة إلى السيارة، وهناك أخذ طه الكاميرا، ثم قال للرجل: سأترك اليوم مع
هذا الشاب وأرجو أن يروق كل منكما للآخر.. آه، نسيت أن أعرفكما ببعض.. هذا
حسнин صديقي.. وهذا السيد هانز أورليش!

(6)

ذاع صيت عادل في مقهى جرايين بعد أن لعب مباريات متنوعة مع أكثر من لاعب،
وأصبح له جمهور يتابع الجدول الأسبوعي للمقهى ويعرف المباريات التي يكون
عادل طرفاً فيها، وقد سموه اللاعب المتهور أو خليفة «بول مورفي»؛ ذلك أنه كان
كثير المجازفات والتضحيات، وقد وضح لمحبي اللعبة والمتمرسين فيها تأثر هذا
اللاعب المصري بالأسطورة الأمريكي «بول مورفي» الذي عاش في القرن التاسع
عشر، وكانت له مجازفات أذهلت اللاعبين الآخرين والجمهور، كما أن المخضرمين
في اللعبة ربطوا بين تكتيكاته وتكتيكات اللاعب الكوبي الكبير «راؤول كابابلانكا».
ورغم إتقان عادل معظم الافتتاحيات وقدرته على المضي في تفرعاتها المختلفة؛
فقد كان يُفضّل حينما تعطيه القرعة اللون الأبيض أن يبدأ بافتتاحية جامبيت الوزير،
وفيهما يقوم بالتضحية منذ البداية بثلاثة بيادق، وطبيعي أن اللاعب المقابل كانت
يدفع ثمن الشره والرغبة في الحفاظ على البيادق التي كسبها بسهولة عندما يجد
نفسه مكشوقاً ومَلِكُهُ مُعَرَّضاً للهجوم من الأمام ومن الأجنحة.

اليوم قرر عادل وهو يواجه ذلك الرجل النمساوي الأصلع «برونو» الذي يغطي رأسه ببيريه أن يبدأ بافتتاحية مختلفة، لكنها تحمل نفس المغامرة والاستهانة وهي جامبيت الملك.

عادل يدرك أن هؤلاء اللاعبين يعرفون هذه الافتتاحيات مثلما يعرفها، لكن المعرفة فقط ليست كافية إذا لم توجد الروح الوثابة؛ لذلك فإنهم كانوا يُؤثرون إذا لعبوا باللون الأبيض الذي يتيح ضربة البداية أن يلعبوا من خلال افتتاحيات كلاسيكية تفريعاتها محفوظة وأضرارها محدودة، ولعل اللاعبين النمساويين الذين التقاهم كانوا متأثرين بأساليب بطل العالم النمساوي الكبير «ويلهيلم شتاينيتز» الذي تربح على عرش اللعبة بين 1886-1894.. وكان عادل يعرف مباريات هذا البطل، وقضى وقتًا في دراستها، لكن لا يميل إلى أسلوبه التقليدي الخالي من المجازفة، ولم يتزعزع يقين عادل بأن «شتاينيتز» سيّد اللعبة لسنوات بسبب غياب المغامر عن الساحة بعد تقاعُد بول مورفي، والدليل أنه فقد العرش على يد «إيمانويل لاسكر» الذي طوّر التكتيكات الهجومية، وذلك قبل أن يواجه «كابابلانكا» الذي استولى منه على العرش وفاز ببطولة العالم.

اعتاد عادل -مثلما يفعل الآخرون- أن يقوم بتسجيل الأدوار بنفسه في أثناء اللعب في دفتر يحمله في جيبه، وقد سجّل المباراة كما جرت على النحو التالي:

ب 4 م	ب 4 م	1
ب × ب	ب 4 فم	2
ب 4 حم	ح 4 فم	3
ب 5 حم	ف 4 فو	4
ب × ح	ب 4 و	5
ف 3 رم	تبییت	6
ح 3 فو	و × ب	7
م × ف	ف 7 فم کش	8
م 2 حم	و 5 رم کش	9
ف × ف	ف × ب	10
ح 3 رم	ر × ف	11
و 1 م	ر 1 فم	12
ب 3 و	و 4 رم	13
م 1 حم	و 6 ف کش	14
ف 2 و	و × ح	15

بعد هذه النقلة كان بإمكان عادل أن يمضي في نفس السكة التي سلكها اللاعب
القديم بول مورفي في مبارياته الشهيرة مع مواطنه توماس هيربرت، والتي مضت
كالتالي حتى تحقق لمورفي الفوز:

16 رم 3 فم ح 2 م

17 ب 4 رم ح 3 حم

18 ب 5 رم ف 5 ح

19 ب × ح ب × ب

20 ر 8 فم كش و × ر

21 ر × و ر × ر

22 و × ب (6 حم)

لكن عادل اختار أن يسلك طريقًا آخر يؤدي إلى نفس النتيجة؛ فمضت المباراة بينه وبين برونو على النحو التالي:

بعد هذه المباراة التي انتشرت أخبارها أصبح من حق عادل أن يدخل المقهى كالطاووس إذا شاء، وذلك بعد أن تناقل المهتمون بالشطرنج في المدينة أخبار مبارياته مع برونو، لكنه للحق كان يُؤثر أن يظل وجوده بالمدينة خفيًا قدر الإمكان، ولهذا فقد رفض إجراء حوار صحفي مع جريدة «بوست أجمائنه»، كما أصر على رفض التصوير، وانقطع عن الذهاب للمقهى لمدة أسبوع، وأبلغ مسئول المسابقات بضرورة تعديل جدولته، وهو ما تم له بالفعل.

(7)

كان عادل في انتظار محمد أبو الفتوح عند محطة قطار تولن شتات. أخذه وسار معه في جولة سريعة في طرقات البلدة، ولاحظ أن سحابة من الكدر تغطي محيطه. سأله إذا كان هناك ما يضايقه، قام محمد بتغيير الموضوع، وأبدى إعجابًا بالبلدة الهادئة الواقعة في حضان الدانوب. عرج عادل به على المطعم الوحيد بالبلدة الذي تديره امرأة نمساوية ذات ملامح جميلة رغم تقدّمها في السن، وكان لعادل علاقة طيبة بها بحكم تردده اليومي عليها. سأل عادل صديقه: هل تحب أن تختار أو أختار لك؟ قال محمد: هل تظني أفهم شيئًا من هذا المنيو؟ اطلب لي مثلما تطلب لنفسك. قال عادل: أنا أحب الجولاش وهي أكلة بلقانية عبارة عن لحم بقري مطهو على نار هادئة حتى يكاد يتفتت، ومن الممكن أن تأخذ معه كارتوفيل أو شوربة. قال محمد: بل آخذ كارتوفيل وشوربة إلى جانب طبق اللحم، ومعهم طبق سلطة أيضًا إذا لم يكن عندك مانع؟

• ولماذا يكون عندي مانع يابن الناس الطيبين وأنا الذي دعوتك للغداء؟

في هذه اللحظة فُتح باب المطعم ودخلت جارة عادل اليوغوسلافية، ثم اتخذت لنفسها مقعدًا إلى مائدة قريبة منهما. لمحها عادل فلم يدر هل يحييها أو يتجاهلها؟

لكنها كانت أسبق؛ فحيته بإيماءة من رأسها مع ابتسامة، بادلها التحية في ارتباك ملحوظ.

نظر محمد إليها وأطلق صفيراً.. واو.. يا لك من محظوظ يا بن الإيه! قال عادل: هل تعجبك؟

• تعجبني.. إنها مثل القمر يا حبيبي، فكيف لا تعجبني؟! قل لي ما حكايتها وما حكايتك معها؟

كان يبدو عليك الكدر منذ قليل، لكني الآن ألحظ أن غدد الشقاوة والصياعة بدأت تفرز عندك!

- قل لي بسرعة حكايتها.
- لا حكاية ولا رواية.. هي تبيع الورد في محل الزهور الوحيد في البلدة، وهي في الوقت نفسه جارتني، تسكن بالغرفة المجاورة لي، وقد عرفتُ منذ وقت قريب أن اسمها إيريانا. نطق عادل اسمها بصوت خفيض؛ حتى لا تسمع.
- ألم تحاول مصاحبتها؟
- بلى، حاولت، لكن بضعة أشياء قليلة حالت بيننا!
- مثل ماذا؟
- مثل أنها لا تتحدث سوى لغتها المحلية مع بعض الألمانى، وبالتالي لا تفاهم بيننا.. والأهم أن عقلها خفيف.. ولا أخفيك أن رغبتى بها كانت سابقة على تعرُّفي بنادية.. أما الآن فلن تحركني ملكة جمال الكون ولو جلست عارية في فراشي.
- يا عيني على الحب! صحيح، شكوكو لم يكذب عندما قال إنه أصعب من عضة الكلب.. أنت حظك حلو مع النسوان ياد يا عادل، على العكس من أخيك الشقيان.. لكن بالله عليك حدّثني عن هذا الغزال الجالس أمامنا.
- قلت لك إن عقلها خفيف وصوتها عالٍ.
- آه يا معلّي حسي!

• اعقل يا أبو الفتوح.

قال محمد في إعجاب صريح: من زمان نفسي أصاحب واحدة عقلها خفيف.. أعتقد أن صحبتها ستكون خالية من الملل، وسوف تكون لديها مفاجآت كل يوم.

• يبدو أنك لا تفهم الأمر.. هذه المرأة الحلوة التي تراها أمامك اعتادت أن تجلس بغرفتها تُحدّث نفسها من بعد المغرب حتى مطلع الفجر، وكثيرًا ما يرتفع صوتها بالصراخ؛ فأستيقظ من نومي على ديالوجها الصاخب مع نفسها.

ضح محمد بالضحك؛ فبادره عادل بالأ ينظر نحوها؛ حتى لا تفهم أن الكلام عنها، وقال: لقد سعت ذات مرة من فرط شعوري بالوحدة أن أتعرف إليها وأدعوها للعشاء.

• جميل، جميل.. ثم ماذا؟

• ثم أنها ظلت تتحدث وأنا أنظر إليها، وبعد ذلك صرخت في وجهي؛ فخفت وجريت عائداً إلى غرفتي! لقد خايلني الأمل في تلك الليلة، وكنت بينما أنظر إلى جسمها الملفوف أظن من الممكن أن أقضي معها ليلة دافئة، لكنها قتلت الحلم فوراً.

• لكنها قامت بتحييتك الآن، فربما أن هذا يعني أنها راجعت الأمر بشأنك وتريد أن تتعرف إليك.. ما رأيك أن ندعوها لتجلس معنا، وإذا لم يكن لك معها نصيب، اتركها لي فأنا أخوك الغلبان الذي يحلم بعلاقة مع واحدة حلوة.. ما رأيك؟

• رأيي في ماذا يا مجنون؟ لقد علمت من بعض الناس هنا أن عقلها خف بعد أن تعرضت للخذلان في علاقة، أو بالأحرى أخذت «زومبة» من رجل كانت تحبه.

• أنت عارف الواد حسنين الصعيدي الذي يعتريه الشوق لأي علاقة مع رجل.. أنا أشبهه في شوقي لعلاقة مع امرأة.. ولعلمك ليس الجنس فقط هو دافعي، لكني أحلم بالتعاطف والمواساة.. هل تصدقني لو قلت لك إنني أتمنى مصادقة فتاة أستطيع أن أطلق بين يديها مخزوني المحبوس من الدمع الذي لم أسمح لأحد أن يطالع شيئاً منه؟

- بوذي أن أعارضك وأسخر من كلامك وأسفهه، لكني مع الأسف أفهمك وأصدقك، لكن هذه المرأة لا تطابق المعايير التي نتحدث عنها، فمن أجل خاطري يا صاحبي انسها.. أنا لا أريد أي هزة في المكان الذي أسكن به.. إنها قد تطاوعك في لحظة، وفي اللحظة التالية تطلب لك البوليس!

بينما كانا يتحدثان عنها قامت إيرينا في حركة مفاجئة وتقدمت منهما، ثم أخرجت من حقيبة يدها وردة حمراء وضعتها على الطاولة بينهما وهي تبتسم في ود، ثم غادرت المطعم، في الوقت الذي كانت عينا أبو الفتوح الجائعتان تجتاحان تفاصيلها وتلتهمانها في نهم!

قال محمد وهو يجلس بغرفة عادل التي اصطحبه إليها ليشربا الشاي بعد الغداء: حلوة حياة الراحة والسكن المستقل والأكل في المطاعم، ومن الجميل أنك دخلت في دنيا الشطرنج، وأصبح لك جمهور يتابعك ويراهن عليك.

- وأنت ألا تنوي أن تكون من جمهوري؟
- أنا للأسف لست خبيرًا بالشطرنج، وأخشى أن أراهن عليك فأخسر ويضيع مالي!
- من المؤسف أن جمهوري معظمه من الأتراك والنمساويين، أما أنتم فأشعر أنكم إذا ما قررت المراهنة فسوف تراهنون على خصمي لا علي! لكن عمومًا الشطرنج أصبح وظيفتي وأصبحت أسهر أذاكر كل ليلة قبل أن أنام؛ حتى أكون جاهزًا لمباريات اليوم التالي.
- عظيم، عظيم.. إن مدينة فيينا هي في حقيقتها ملعب كبير للشطرنج.. في كل مكان تجد أناسًا يلعبون، وعليك بالغوص في دهاليز المدينة لتعرف شروط اللعب والمبالغ التي يقامرون بها.

- الحمد لله، لقد تحسنت الأوضاع، ولم أعد مهددًا كما كنت في السابق.. لقد كنت أسبق الزمن؛ حتى أتمكن من دفع إيجار الغرفة، وحتى أتفادى أن تجدني أطرق باب شقتكم في شارع سلساخ طالبًا منك أن تأويني عندك بجوار حسنين وطه!
- احذر النوم بجوار حسنين؛ لأنه قد «يقرطك» دون رحمة.

أطلق عادل ضحكة عالية قائلاً: كله إلا حسنين.. ربنا يكفيننا شره!

- هل تحتاج إلى مال من أجل الإيجار؟ قل.. لا تخجل.. يمكنني أن أقرضك.
- قلت لك إنني تجاوزت شبح الإفلاس من زمن.. لكن هل تقصد أنك أصبحت من الموسرين الذين يُقرضون الغلابة من أمثالي؟
- ليس لهذه الدرجة، لكنني أصبحت أعمل في وردية صباحية وأخرى مسائية، وللمرة الأولى أجد في يدي نقودًا تزيد على حاجتي؛ بحيث إنني أصبحت أشتري ملابس جديدة من شارع ماريا هلف، بدلًا من «ناش ماركت» أو سوق البراغيث الذي يذهب إليه أصدقاؤنا يلتمسون منه المُستعمل من الملابس الذي لم يبَلْ بعد، وكان هذا حلمًا في السابق.

أحس عادل بمحبة جارفة تجاه صديقه الذي يتحدث بفرحة طفولية عن شرائه ملابس جديدة. واصل محمد بوحه: هل تعلم يا صديقي أنني في مصر كنت أتمنى الحصول على بنطلون جينز مستورد من بورسعيد دون جدوى؟!

- إنني أراك اليوم ترتدي بنطلونًا من الجينز المفتخر، وهذا يعني أن الأحلام البسيطة ليست مستحيلة.
- اسمع هذا الخبر.. لقد قررت أن أظل هنا لأطول فترة ممكنة؛ حتى أستمتع بإنفاق الأموال التي لم أعرف طعمها أبدًا؟ لم أعد منشغلًا بالجامعة أو باستكمال الدراسة.. إنني لم أحك لك كيف استطعت الحصول على ثمن تذكرة الطائرة حتى أستطيع المجيء إلى النمسا، ولا أظنني أريد أن أحكي.

لمح عادل شبح دمعة تفكر في أن تتكاثر في عيني محمد؛ فقال: وأنا لا أريد أن أعرف أي أشياء محزنة.. حدثني فقط عما يبهج. كانت ملحوظة عادل هذه كفيلة بأن تجعله يخرج يده من جيبه فارغة بعد أن كان يهيم بأن يخرجها وبها خطاب أراد أن يريه لصديقه.

ساد بينهما صمت قطعه عادل قائلاً: إذا كانت تعجبك هذه الغرفة يمكننا أن نقتسمها.. ما رأيك أن تأتي لتسكن معي؟ أنت الوحيد يا أبو الفتوح الذي أقبل أن يشاركني السكن. إذا كان هذا يناسبك، يمكنني أن أتحدث إلى صاحبة المكان، وإذا أرادت زيادة الإيجار فلا بأس.. إنك لا شك تدري أن بقاءك هنا يسعدني، ومع ذلك أشعر بضيق لأنك تتجاهل العودة للجامعة، وتتخذ قرار البقاء سنة وراء سنة دون أي تردد، مع أن شخصاً مثلي مستعد للتنازل عن أي شيء من أجل العودة للجامعة.

رد محمد: أنت تقول هذا لأن الفقر لم يقرصك مثلي، وعلى أي حال أشكرك على دعوتك باستضافتي معك، وليتني كنت أستطيع.. لكن من واجبات عملي -كما تعلم- أن أستلم الجرائد في الخامسة صباحاً، وهذا لن يستقيم لو سكنت هنا على مسافة أربعين كيلو من إشارة المرور خاصتي.. لا أريد أن آخذ سكناً مريحاً وبعدها أجد نفسي بلا عمل.. خلّني مع أصدقائي المجانيين في شقة شارع سلساخ حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

- أوكي، لكن خذ حذرک منهم؛ فليسوا جميعاً يؤتمنون.
- كلهم غلابة طيبون، لكن وراء كل منهم حكاية.
- لا أريد حكايات عن رفاقك الذين يتشكلون ما بين حرامي، وداعر، وهائج، وآخر لا يستحم أبداً.. إن الوجود بينهم يُفقد المرء سكينته ويوقعه في المشكلات على الدوام.
- غريبة! هل تذكر عندما كنت تريد أن تستمع إلى حكايات المومسات لتكتب عنهن في المستقبل؟ والآن لا تريد حكايات لأن الأمر يتعلق بالرجال! هل تخصصك هو حكايات مأساوية حريمي فقط؟!

ارتبك عادل وشرد قليلاً، ثم قال: ربما كنت على حق.

بعد الشاي اصطحب صديقه إلى خارج الغرفة، وسارا في الشارع الرئيس بالبلدة صوب النهر، وأشار عادل إلى محل الزهور؛ حيث كانت تقف داخله إيريانا. وقف محمد ينظر إليها من بعيد، فلکزه صديقه يستحثه على السير. بعد قليل كانا قد وصلا إلى حافة الدانوب، فجلسا على أحد المقاعد الخشبية في تكاسل.

بعد قليل وقف محمد وقد تغيّر وجهه وبدا أنه حسم تردده عندما أخرج من جيب سترته خطاباً لوّح به في الهواء قائلاً: اليوم تسلمت هذا الخطاب.. إنه من أمي.. هل تريد أن تعرف ما به؟

شعر عادل بالحرج والارتباك، لكنه قال: أهم شيء أن تكون أمك بخير، أي شيء آخر مقدور عليه. ندت عن محمد ضحكة قصيرة ساخرة: هل أنت متأكد أن أي شيء آخر مقدور عليه؟

• هذا ما أعتقده.

• إذن خذ الخطاب اقرأه لتعرف أنك مغفل.. ليس كل شيء آخر مقدور عليه!

للمرة الثانية يشعر عادل بالارتباك.. هو لا يريد أن يأخذ الخطاب منه، بل لا يريد أن يعرف فحواه؛ لأنه أدرك بغريزته أنه يحوي أخباراً لا تسر. كانت صراحة محمد معه في رواية مظاهر الفقر التي عاناها تحرج عادل؛ لأنها تضعه وجهاً لوجه أمام مواقف مؤلمة يضطر معها أن يكبت تعاطفه ويتظاهر بأنها أمور عادية؛ حتى لا يزيد صاحبه حرجاً، لكن محمد أمسك يده وهوى بالخطاب على كفه المفرود.

أخرج عادل الورقة من داخل المظروف وشرع يقرأ بينه وبين نفسه. كانت عضلات وجهه تتقلص في أثناء القراءة، بينما محمد يتابع النظر إليه في لا مبالاة ساخرة.

بعد أن فرغ من الخطاب وبدأ يفكر في شيء يقوله تعليقًا على ما قرأ، بادره محمد: ها.. ما قولك؟ إن أمي تطمئنني على صحتها وتقول إن كل شيء تمام باستثناء أن أختي الوحيدة التي لم تتزوج بعد اتضح أنها حامل، وأن الشاب الذي أقامت معه علاقة قد اختفى وترك البلد، وأنها عندما هددت أختي بأنها ستكتب لي وتخبرني بما حدث فإن سهير -وهذا هو اسم شقيقتي- قد هربت تاركة البيت، ومودعة أمي برسالة تركتها لها قبل الرحيل.. ما رأيك؟

شعر عادل بالحمولة التي تثقل كاهل صديقه وأراد التهوين عليه؛ فقال: رأيي أن هذه الأشياء تحدث، وأن هذا الأمر لا يجب أن يُشعرك بالخزي.. شرفك الحقيقي هو ما تفعله وما أنت مسئول عنه، ومع ذلك فيتعين عليك أن تبادر بالنزول إلى مصر؛ حتى تقف إلى جانب والدتك وتبحث عن شقيقتك وتسعى لحل الموضوع.

- المشكلة يا صديقي أن نزولي لن يسفر عن شيء.. لقد فرت أختي ولن تعود.. إنها للأسف محدودة التعليم؛ لأن أمي ركزت كل جهدها في تعليمي، ولم تحتمل أن تنفق على تعليم كلانا.. كانت والدتي تظن أنني بعد أن أصبح مهندسًا قد الدنيا سوف أعمل على تزويج سهير وسترها وتجهيزها، وأحمل عن عاتق أمي بعض العبء.
- اسمع يا أبو الفتوح، ما حدث ليس نهاية الدنيا و...
- اهدأ يا فتى، إن المسألة بالنسبة لي ليست كما تظن.. أنت لا شك تعتقد أن عرق الشرف أخذ ينقح عليّ، وأنتي أرغب في قتلها وغسل عاري.. أليس كذلك؟
- أنا لم أقل ذلك.
- نعم، لم تقله، ولكنك قد تتصوره، والحقيقة أنني لا أشعر بأي عار إلا عار الفقر، إنني أشفق عليها، ولو أنني موجود هناك لأخذتها في حضني وحميتها بين أضلاعي من أي أحد يحاول أن يمسه بكلمة.. هي لم تجرم في نظري، لكنها اختارت الشخص الخطأ؛ بسبب صغر السن وقلة التجربة.. والمشكلة أن نزولي مصر لن يجعلني أعثر عليها.. لقد ضاعت ولن تعود.. النزول سيعيدني إلى نقطة الصفر، وسأصبح من جديد الطالب

الغبان الكحيان المفلس الذي يأخذ مصروفه المتواضع من أمه الفقيرة التي تشقى لتطعمه.. ويا عالم متى أستطيع تدبير ثمن تذكرة وتأشيرة لأعود إلى هنا من جديد؟

عند هذا الحد هبّ فيه عادل صارخًا: اسمع وحياء أمك، هذا الفيلم الهندي الخاص بالطالب المظلوم الذي جارت عليه الدنيا، من الممكن أن تحكيه للمخرج حسن الإمام ليُقدّم عنه فيلمًا ميلودراميًا تكون بطلته أمامك شابة منكسرة اسمها نعمت! أما أنا فلا أشتري هذا الكلام الفارغ.. نعم، كلامك فارغ وعادي تمامًا.. ليس في الأمر أي مأساة.. الكثير من الأمهات يعملن لإعالة الأسرة، وهناك من الفتيات من تضل السبيل، لكن بالحب والتعاطف تعود الأمور لمجاريها.

ارتفع صوت محمد صارخًا وهو يلطم خديه بصورة أفزعت عادل: أنا لا أريد للأمر أن تعود لمجاريها.. لقد كانت مجاريها مسدودة على الدوام.. هل قلت لك من قبل إنني وعيت على الدنيا فوجدت أمي تخدم في بيوت الجيران، ولبعضهم أبناء كانوا معي في المدرسة؟

ساد الصمت.

سكت الكلام على لسان عادل، وأحس أن أي تعليق سيكون سخيًّا.. حاول أن يلف يديه حول صديقه ليحتويه، لكن هذا دفعه في رفق وأعطى وجهه للدانوب، وظل ينظر إلى المراكب التي تعبره صامتًا.

في ذلك اليوم عرف عادل عن صديقه الكثير. كان محمد كتومًا بطبعه، لكنه اليوم فتح قلبه، وأغرق عادل بفيضان من الحكايات، وقد كانت حالة الحزن التي غلفت وجه عادل وهو يودع صديقه عند محطة القطار تشي بأنه لا يتأثر بالمآسي الحريمي فقط كما وصفه محمد وكما تصور عن نفسه.

في منتصف مايو 1980 نشر الصحفي جورج إبراهيم الخوري، رئيس تحرير مجلة الشبكة، حوارًا له مع الموسيقار رياض السنباطي بمناسبة زيارته إلى بيروت، حاملاً معه ثلاثة ألحان أعدها لفيروز. كان الحدث مدويًا، والأوساط الفنية تترقب نتيجة التعاون الأول بين جارة القمر والموسيقار الكبير. وكان السؤال الأول الذي وجهه الخوري هو:

- قلت في المؤتمر الصحفي أن فيروز لديها مقامات لم تطرق بعد سمع الجمهور.
- السنباطي: أنا أظهرت هذه الطبقات التي كانت لا تزال مخنوقة، سأتعبها وسأجعلها تغني وتتعب.. طبقات عالية وأنا مضطر لأعطي في الألحان لبعض الأبيات طبقات عالية تناسب الكلام، المعنى نفسه يدفعني لذلك، وهي راضية كل الرضى.. في البدء كانت متخوفة، لكن مخاوفها زالت.
- جورج الخوري: هل السنباطي مقتنع بصوت فيروز لتغني أغنية من نصف ساعة؟
- السنباطي: لو لم أكن مقتنعًا كل الاقتناع لما وضعت لها تلك الألحان بهذا الشكل، وخاصة قصيدة: أه لو تدري بحالي.. فيروز قادرة وعندما تسمعها ستندهش، وأنا سعيد جدًا.. إنها تغني بالطريقة التي أريدها.. عندما تستمع إليها ستري أنها مختلفة اختلافًا كليًا، وقد وفقها الله لأنها تنطق الشعر بشكل سليم، وأنا لدي قدرة توجيه المطربة. أنا سعيد وهي فرحانة من هذا التغيير جدًا، وفي الأيام الخمسة التي أمضيتها في بيروت كنا نجلس معًا يوميًا جلستين من العاشرة صباحًا إلى الثانية، ومن الخامسة والنصف حتى التاسعة، ويمكنني اليوم أن أقول إنني قررت أن أمنح المقبل من عمري لفيروز.

سادسًا

(1)

عند محطة شويدين بلاتز المطلة على الدانوب بوسط فيينا كان اللقاء. كان عادل قد فرغ لتوه من مباراة شطرنج عسيرة مع لاعب نمساوي عُقر لم يستسلم للهزيمة، وقد كاد عادل أن يخسر المباراة «بالوقت»؛ لأنه استغرق زمنًا طويلًا في التفكير؛ حتى كاد الوقت المخصص له أن ينفد؛ لولا أنه أغمض عينيه وقام بعدة عمليات في مخه، ثم وجد الحل في أن يحصل على التعادل بالكش المتتابع.

خرجت نادية من محطة الترام فوجدته في انتظارها وقد تورد وجهه وكأنه خارج من معركة حقيقية وليس مباراة في الشطرنج! كانت نادية هي التي اقترحت هذا المكان للقاء؛ لأنه يقع على القنال الجنوبي للدانوب في الجزء الذي يضيق فيه النهر وترسو عنده المراكب السياحية التي تقلع من المرسى المجاور في رحلات إلى المدن والقرى القريبة من فيينا، وبعضها يتجه في رحلة اليوم الواحد إلى براتيسلافا أو بودابست. اختارت واحدًا من المقاهي المنتشرة على طول الكورنيش الممتد وجلست يقابلها عادل، وما زالت آثار المباراة مرتسمة على وجهه. قال إنه لا بد أن يُعلّمها الشطرنج حتى تشاركه هذه الانفعالات وتكون متفهمة لها.. هذا من أساسيات الحب يا أخ عفركوش.. أن نتشارك ما نحب. هكذا قال لها، فردت: والله يا أخ عفركوش، ليس لديّ مانع من مشاركتك ما تحب وأنا جاهزة لتُعلّمني، لكنه الوقت يا عزيزي.. العمل والدراسة يسلباني كل وقتي، حتى إنني أتحايل عليهما كي أقابلك كما فعلت اليوم. سألها عادل في انزعاج مفتعل: معنى هذا أنك لن تقومي بإعطائي دروسًا في اللغة الألمانية كما وعدتني؛ لكي لا أظل كالأطرش في الزفة في هذا البلد؟ ردت باسمه: أنا تحت أمرك وإن كنت أعتقد أنك تتقدم في الألمانية بالممارسة.. لقد لاحظت ذلك

وأنا أراك ترد على كلام الآخرين.. صحيح أنك تسارع باستخدام الإنجليزية إذا زاد الكلام وتشعب، لكنك على الطريق.

قام عادل إلى حافة النهر ومال بجسمه مائداً يده، فلمس الماء وغمر به وجهه، ثم عاد إلى نادية فجلس إلى جوارها، ووضع يده على كتفها، ثم قال فيما يشبه الهمس: ربما ما سأقوله لك يبدو طفولياً ولكني أحتاج لأن أعرف هل تحبينني؟ غمرت الضحكة وجهها حتى بدت أسنانها وكأنها لؤلؤ منضد وهي تقول: كنت أحسبك تحتاج إلى أقل قدر من الكلمات حتى تقول لي وأقول لك كل شيء كما سبق أن أخبرتني.. يبدو أنك كنت تضحك عليّ! أمسك يدها ورفعها إلى وجهه، ثم لثمها برفق قائلاً: إذا كنت تحبينني قولها.. أنا أدري أنك تفعلين، لكنه الاحتياج.. قاتل الله الاحتياج! رفعت حاجبيها دهشةً وهي تصيح: لا تدعو على الاحتياج، بل اشكره؛ لأنه دل كلاً منا على الآخر وهداه إليه، وهو أيضاً الذي جعلني أحبك وأسهر الليالي أفكر بك وأصحو من النوم وفي رأسي صورتك وأحلم بأيام وسنين أقضيها معك. أحس عادل برجفة وهو يستمع إليها تبثه مشاعرها، ومع ذلك فقد اعترض قائلاً: لكنك لم تجيبي عن سؤالي بعد! شهقت نادية وهي تقوم مبتعدة في اتجاه عربة الأيس كريم الصغيرة التي مرت بجوارهما: كل هذا ولم أجبك يا مجنون؟

عادت تحمل الأيس كريم وناولته نصيبه وهي تقول: أنت طماع. قال وهو ينظر إلى عينيها السوداوين اللتين أضافت إليهما الكحل الخفيف فزادتهما جمالاً: لست طماعاً، لكني جائع إلى عطف قلبك.

- هل أحببت يا عادل من قبل؟ لم تخبرني عن حياتك كثيراً.
- كانت هناك قصة في الجامعة، لكنها شديدة الغرابة.
- وماذا كان وجه الغرابة فيها؟
- كانت مبتورة.. لقد انتهت قبل أن تبدأ.
- احكيها لي.

الدانوب عند آخر الممشى هناك حيث الهدوء.. قالت هذا وهي تنظر نحوه نظرة
حنونة قبل أن تضيف: أنت خُلقت يا حبيبي لتكون مغنيًا.

مال عادل للخلف وهو يضحك بشدة: أنت تقولين لقد خُلقت لتكون مغنيًا، وصديقي
محمد أبو الفتوح يقول لي: أنت خُلقت لتكون لاعب شطرنج، وأنا دخلت كلية الإعلام
لأكون صحفيًا.. وفي حقيقة الأمر لست سوى شخص ضائع لم يحقق شيئًا في أي
شيء! قبل أن تعترض نادية أوقفها بإشارة من يده كمن تذكّر شيئًا: عارفة يا نادية..
إن مشكلتي هي أنني لا أستطيع أن أفخر بنفسى كمناضل يدفع ثمن الموقف النضالي
الذي اختاره.. أنا دون ذلك بكثير، وهناك من أصدقائي من انخرطوا في نضال
سياسي له قيمة وبأشكال عديدة فدخلوا السجن وخرجوا يواصلون ما بدءوه.. أما أنا
فلم أشارك إلا بصحيفة حائط كنت أتسلى في كتابتها مع بعض الأشعار دون أن تكون
لي صلة بأي تنظيم أو حزب أو كيان سياسي.. وبصراحة أكثر كانت سيرة الشيخ إمام
ونجم تلهمني في أن أتصعلك مثلهما وأغني وأكتب أشعارًا وأدخن الحشيش! ولم أكن
وسط هذا كله سوى عابر طريق في أثناء وصول كبسة البوليس أو مداهمة الشرطة
للمكان، ففررت وأصبحت مطلوبًا، وزاد الحنق لأنهم لم يطالوني، وربما لو أمسكوني
لأطلقوا سراحي بعد يومين.. لا أعتقد أنني أساوي شيئًا لديهم، لكنني أخشى من أن
سخط السادات على الرافضين لصلحه مع إسرائيل يجعله يوجه أجهزته لممارسة
القمع الاستباقي!

قالت نادية بعد أن صمت عادل وتأكدت أنه أنهى مرافعته ضد نفسه: أنت تحاول
الإقلال من قيمة نفسك.. ربما لا يكون لك إسهام دراماتيكي يقلب المعادلات ويغيرها،
لكنك فعلت ما رأيتته واجبك نحو نفسك وأهلك، وهذا ليس بالشيء البسيط.. انظر
إلى رفاقك المصريين من الذين شاركتهم السكن وعملت معهم هنا.. هل من بينهم من
ينشغل بمصير الوطن على أي نحو؟ هل منهم من يتابع الصحف أو يستمع حتى إلى
نشرة الأخبار؟ نحن ننتمي إلى أوطان مهزومة، ولذلك ليس من العدل أن نتسامح مع

مَن يرحبون بالهزيمة أو لا يبالون بها وندين مَن حاولوا أن يخذشوا جدار اليأس.. قد لا تكون بطلاً بمعايير التاريخ، لكني أقبل بك بطلاً لي، أفلا يكفيك هذا؟

رد عادل متأثراً: يكفيني ويفيض يا منية روجي.

دنت نادية منه أكثر فضمها إلى صدره، فانكملت في داخله، ثم رفعت رأسها، وطبعت قبلة على شفثيه قبل أن تسأله: ما زلت لم تجب عن سؤالي.. قلت لي كانت لديك علاقة حب مبتورة.. كيف كان هذا؟

• لا أستطيع أن أسميها علاقة، لكنها كانت مجرد إرهاصات.. أحسست بالميل نحو زميلة بالجامعة اسمها وفاء، وكان لي صديق قام برصد هذه المشاعر الوليدة؛ رغم أنني لم أحدثه بشأنها، استشف الأمر عندما وجدني أطيل الوقوف معها، وكذلك عندما رأنا نقطع طريق العودة للبيت معاً سيراً على الأقدام، وقد كانت لنا هذه العادة في المشي مسافات طويلة مع مَن نحب من الأصدقاء والزلاء، وفي هذه التمشيات يسهل التعبير عن الآراء والأفكار السياسية والأدبية، وأيضاً مشاعر الحب.. كان هذا الشخص من أعز أصدقائي وكنت أنوي أن أحدثه عن مشاعري عندما تتبلور، وكذلك بعد أن أتأكد من موقف هذه الزميلة نحوي.. لكن شيئاً غريباً حدث، أُصبت بالتهاب مفاجئ في الزائدة الدودية ودخلت المستشفى حيث خضعت لجراحة، وفي أثناء خضوعي للعلاج كان هذا الصديق يزورني كل يوم، وفي أحد هذه الأيام أخبرني بأنه قد وقع في الحب وأنه يقضي أسعد أيام حياته مع وفاء! من الطبيعي أنني أُصبت بالذهول؛ إذ إنه يتحدث عن فتاتي.. أحسست بالغدر لأن الأخ استغل أنني لم أبح له بالأمر ليمارس الاستعباط الكثيف ويتظاهر بعدم درايته بميلي نحوها ويلقي شباكه حولها في غيابي. لم أدر ماذا أفعل، لكني تمنيت له الخير وقلت لنفسي ربما كان صادقاً، ولم يقصد أن يزاحمني في حبها.. المهم بعد أن خرجت من المستشفى وعدت إلى الجامعة صرت أتفادى هذه الفتاة وأتجنب الحديث إليها.. كنت مندهشاً منها! صحيح أنه لم يقع بيني وبينها علاقة حب صريحة حتى ألومها أو أتهمها بالخيانة،

لكن ما حدث هو أننا وصلنا معًا لمنتصف الطريق، وجاء المرض المفاجئ ليبعدني ويفسح السكة لصديقي.

قالت نادية متأثرة: ما أغرب ما أسمع! ولكن الحياة تنطوي على ظروف أشق من هذا وأصدقاء أخس من صاحبك.

رد عادل ضاحكًا: الباقي هو الأغرب يا حبيبتي. قالت: وهل ثمة باقي؟ اتسعت ضحكته وهو يقول: بعد فترة قصيرة أخبرني صديقي بأنه قطع علاقته بوفاء؛ لأنه أحس بأنها لا تناسبه، ثم صار يتجنب الحديث عنها.. إلى هنا والأمور عادية ويمكن التعامل معها ببساطة، غير أن العجيب أن الصدفة جمعتني بوفاء بعد الامتحانات وكانت في طريقها للعودة للمنزل.. تمشينًا معًا كما كنا نفعل في السابق ووجدت نفسي أسألها عن سبب انتهاء علاقتها بفلان صديقي؛ فإذا بها ترد مذهولة: أي علاقة؟ لم يحدث في أي وقت أن كان بيني وبينه أي شيء.. إنه حتى بالنسبة لي لا يرقى لأن يكون صديقًا! لكن لماذا أوهمني أنه يعيش معك قصة حب؟ ثم لماذا زعم لاحقًا أن هذه القصة قد انتهت؟ هكذا سألتها! قالت: ائمني به وأنا مستعدة أن أواجهه أمامك لأثبت لك أنه كاذب ودنيء.

• وطبعًا لم أفعل؛ لأنني رأيت أن مواجهة كهذه لن تفيد، خصوصًا وأن ميلي نحوها كان قد انحسر ولم يعد ممكنًا استئناف السير في طريق تم حفره وتجريفه!

قالت نادية وعلامات الألم على وجهها: ولكني أراها ضحية تعرضت للغدر بنفس مقدار تعرُّضك، بل إن النذل لك سمعتها من خلال قصته الوهمية المزعومة.

• أعرف هذا، ولكن لم يكن بيني وبينها ما أحارب لإنقاذه.. الوغد قطع علينا الطريق ومنع القصة من أن تنمو، وقد فعل ذلك بطريقة فنية ومبتكرة وغير مسبوق!

• لماذا يفعل الناس هذه الأشياء؟

• لأنهم بشر ولأنهم ضعاف، لكن حتى أكون منصفًا فإن لي أصدقاء لا يخونون، منهم عادل عبد الرحمن الذي أحمل جواز سفر باسمه، وآخرهم هو محمد أبو الفتوح الذي

حدثك عنه من قبل.

أمسكت نادية بيده وهي تقوم؛ فقام معها وسارا إلى جوار النهر حتى ابتعدا عن منطقة المقاهي والمطاعم وأصبح الهدوء شاملاً، فأخرجت الكاسيت الصغير ووضعت داخله الشريط، ثم جلست وعادل إلى جوارها على الأرض العُشبية مستندين إلى شجرة ضخمة. ضغطت نادية الزر فانطلق العزف على العود، ثم دخل رياض السنباطي ومن ورائه فيروز في أداء بديع لقصيدة «آه لو تدري بحالي» كلمات عبد الوهاب محمد:

آه لو تدري بحالي.. أثري كنت تبالي؟

أم تغالي ويرضيـك انشغالي؟

أم سيفريك اشتغالي بالتغالي؟

أو كما أنت ستبقى.. شاغلاً بالصمت بالي؟

ذاك ما تخشاه نفسي.. بل يفوق عن احتمالي

رغم حبي وحنيني وشقائي بالتنائي

رغم وهمي وظنوني وعنائي اللانهائي

رغم علمي ويقيني أن في الوصل دوائي

لست أَرْضَى أن تجيء مجاملاً دون انفعالٍ

ولذا كان سُؤالي.. آه لو تدري بحالي

كان حبي لك نبعاً دافقاً بين الضلوع

صادقاً صدق الطفولة طاهرًا ظهر الدموع

ولهذا عشت أرجو منك يا سر الولوع

أن تكون بمستواه من العطاء بلا افتعال

ولذا كان سؤالي.. آه لو تدري بحالي

يا حبيبي إن قيم الحب من نعم السماء

واكتمال الصفو يأتي من قلوب لا ترائي

لا تضحى بالكرامة أو بقدر الكبرياء

إن أردت العود أهلاً بعد هذا بالوصال

ولذا كان سؤالي.. آه لو تدري بحالي.

(2)

هبط عادل على الميدان حيث يقف أبو الفتوح يبيع جريدة الكوريير، وفاجأه قائلاً:
هيا يا رجل، ألم تطلب مني أن أعرفك إلى نادية؟ لقد اتفقت معها أن نلتقي اليوم في
كوفي شوب مجاور للجامعة، وستكون بصحبتها صديقتها المقربتان تونيا ومادلين.
رد أبو الفتوح وقد تألقت عيناه فرحاً: بركاتك يا شيخ عادل.. إن هذا الخبر يساوي
خمسمئة شلن.. لقد شوقتني لمعرفة نادية بعد ما حكيت لي عنها، ومن الجميل أن
نلتقي بالصديقتين أيضاً.. تُرى هل هما جميلتان؟ قال عادل: والله لا أدري، أنا لم ألتقي
بهما من قبل، لكني أعرف عنهما من حكايات نادية، ولعلمك فصديقتها تونيا مرتبطة

- بشباب قد يأتي هو أيضًا.. هل يناسبك هذا أو أتركك في رعاية الآلهة التي تؤمن بها
وأمضي وحدي؟
- لا.. لا، إني قادم معك أيها الفتى العاشق ما دامت الفتاة الأخرى ستكون وحدها.. هل هي مرتبطة أيضًا؟
 - في حدود علمي لا.
 - عظيم، ربما تكون الريح مواتية فلا أخرج خالي الوفاض، وحتى لو لم يحدث، يكفيني التعرف إلى نادية.
 - اسمع يا أبو الفتوح، هذه ليست طلعة قنص.. إننا سنذهب في جلسة ودية مع أصدقاء، فلا تطير على أجنحة الخيال وتذهب بعيدًا، وأنت بالتأكيد تعلم أنني لم أكن لأصطحب أحدًا غيرك أو أئتمنه على خصوصياتي.. أوكى يا أخ عفركوش؟
 - أوكى يا صاحبي.

كان المقهى يمتلئ بالطلبة يجلسون إلى الموائد وكتبهم متناثرة، فهناك من يكتب
ومن يقرأ ومن يفكر بصوت عالٍ ومن يتأمل في صمت. نظر محمد إلى صاحبه قائلاً:
فاكر لما كنا طلبة؟ قال عادل ضاحكًا: أنت على الأقل ما زلت طالبًا.. كل ما في الأمر
أنك ستخسر عامًا أو عامين ثم تعود وتصبح مهندسًا قد الدنيا، أما أخوك الصايغ
فهذه المناظر تطعنه في الصميم. رد محمد: والله أخويا الصايغ يمتلك حظًا من نار،
فهناك من يحبها وتحبه، غير المجنونة جارتته التي تهاديه بالورود، وعلى رأي
مصطفى حسين الرسام.. جتنا نيلة في حظنا الهباب!

شعر عادل بشيء من الامتعاض للملحوظة الأخيرة، لكنه ما لبث أن ضحك في داخله
على أنه ما زال يملك ما يُغبط عليه.

يبدو أننا أتينا مبكرين. قالها محمد، وقبل أن يجيبه عادل لمح الشلة تدخل من باب المقهي، فقام واقفًا فأقبلت عليه نادية متهلة وقبلت وجنتيه، ثم قدمت له أصدقاءها مادلين وتونيا ورفيقها ماتيوس، فقام بدوره بتعريفهم بنفسه وبصديقه محمد.

ما رأيكم بجو فيينا البارد؟ تساءل ماتيوس. رد عادل: لم نعتد مثل هذا الجو في بلادنا، فشتاؤنا يخلو من الثلوج، وقد يكون دافئًا في الجنوب. قال ماتيوس: أه الجنوب.. لكم وددت أن أقوم بزيارة أسوان والنوبة، وربما أصحب تونيا معي إذا سمحت ظروفها. سارعت تونيا: ظروفي تسمح في كل وقت فلا تتعلل بي. ضحكوا جميعًا وأبدى عادل دهشته من معرفة ماتيوس بأسوان والنوبة، فردت تونيا: احذر التوغل مع ماتيوس في النقاشات؛ لأنه قارئ نهم، وقد يعرف بشكل نظري عن بلادكم ما لا تعرفونه.

كان محمد يستمع إليهم وعقله سارح في مادلين الجالسة أمامه.. ساقاها المرمريتان وهي تضع واحدة فوق الأخرى مع انحسار تنورتها إلى منتصف فخذاها، فضلًا عن ملامح وجهها الحلو، صحيح أنها ليست بجمال نادية، لكنها بيضاء مليحة ذات شعر أسود قصير وقوام رفيع من النوع الذي يفضله.. صحيح أنه لم يسبق له أن صادق أي نوع، لكنه يُفضّل الرفيعة التي يسهل حملها والدوران بها حول المكان، كما يمكن إذا تزوجها أن يحملها بين يديه بينما يفتح الباب حتى يجعلها تدخل عشاها مرفوعة على أجنحة الحب. أفق يا أبا الفتوح.. هكذا حدّث نفسه بعد أن انتبه إلى أنه لم يشارك في الحديث وتفرغ لتأمل مادلين. إن بصحبته الآن ثنائيين، الأول مُكوّن من عادل ونادية، والثاني مُكوّن من ماتيوس وتونيا.. تتبقى فردتان شاردتان، فهل يجمعهما هذا اللقاء فيصيران ثنائيًا ثالثًا؟ ربما أن الأقدار قد رتبت هذا اللقاء، أو لعل نادية هي التي رتبته مثلما يفعلون في الغرب دائمًا في لقاءات من هذا النوع يسمونها «لقاء عمياني» أو «بلايند ديت»؛ حيث تقوم المجموعة بدعوة شاب جديد حتى يكتمل عدد الثنائيات في الرحلة أو في الجلسة ولا يتركوا صديقة لهم وحيدة.

قالت تونيا ضاحكة: أريد أن أسأل سؤالاً بكل نية حسنة ودون غضب.. هل ثلاثة أرباع الناس في بلادكم اسمهم محمد؟ ضحك عادل وهمّ بالرد؛ فأوماً إليه أبو الفتوح أن ينتظر، ثم توجه إلى تونيا قائلاً: هذا ليس غريباً، فالناس في كل زمان ومكان تتبرك بأسماء الأنبياء والصالحين، وهو يشبه عندكم أن تُسموا بأسماء القديسين والشهداء أو مَنْ تُعدونهم كذلك، ولعلمك فهذا شائع في بلادكم أكثر من شيوعه عندنا، وإذا نظرتم إلى أسماء الشوارع والميادين في أوروبا فسوف تجدون غالبيتها تحمل أسماء مثل: سان مارك، وسان بيتر، وسان شتيفانز، إلى آخر مجموعة سان وإخوانه، وإذا أردتم التركيز أكثر، وأنتم كما علمتُ تدرسون الأنثروبولوجي فانظروا إلى أسمائكم أنتم شخصياً، فالأستاذ ماتيوس الجالس إلى يميني يحمل اسم القديس الذي ندعوه في بلادنا «مَتَّى» وباقي الجالسين في المقهى حولنا يتراوحون بين: جون، وجوني، وجونسون، وجوهانسون، وهي كلها أسماء للقديس يوحنا المعمدان، ونجد عندكم فيرجينيا وهو تدليل للعذراء، فضلاً عن: جاكوب، وجوزيف، وديفيد، وسولومون، وجورج، ومايكل، وكريستين، وماري، وماريا، وماريام، وماريكا، وهي أسماء لرسل وقديسين.. ثم لماذا نذهب بعيداً؟! إن مادلين صديقتكم.. قال هذا ثم نظر إلى مادلين.. إنها تحمل اسم مريم المجدلية، فمادلين هي ما نسميه بالعربي «مجدلية»؛ نسبةً إلى بلدة مجدل بفلسطين، والتي يقال إن مريم المجدلية عاشت بها.. أما بالنسبة لتونيا فلا أعلم أصل الاسم، ولعله لقديسة لا أعرفها.. هل هذا يكفي أو أقول المزيد؟

ضحك ماتيوس وأثنى على رأي محمد الذي أعجبه، كما شعرت تونيا بالانبهار مما سمعته، أما مادلين فأبدت دهشتها؛ لأنها لم تعرف أبداً حكاية مريم المجدلية هذه، وقالت نادية: إن منطقتنا في بيروت كانت بها كنيسة بنفس الاسم، فكيف لا تعرفين يا صديقتي مغزى اسمك؟ ردت مادلين: إن أهلي -كما تعلمون- ليسوا متدينين، ولم يأخذوني للكنيسة أبداً، وقد شكرتهم على ذلك عندما كبرت؛ لأنني كنت سأخذلهم إذا كانوا من أرباب الكنائس. عَقَّب ماتيوس: إن الناس في كل مكان تتشابه.. يحتاجون

للإله فيتقربون منه من خلال أسماء أبنائهم ذات السَّمَت الديني، وفي الوقت نفسه يتفكرون من تكاليف نفس الإله التي تعوق طموحهم وتكبح أطماعهم، وأعتقد أن تسمية الأبناء هي في الحقيقة بمثابة تعويذة أو قربان، وهي لا تفترق عَمَّن يضع الصليب بالسيارة أو يُعلِّقه حول رقبتة من أجل الحماية، بينما لا يؤمن به حقيقةً!

سأله عادل: هل تؤمن بالله يا ماتيوس؟

ابتسم ماتيوس وهو يرفع حاجبيه دهشةً: هذا أصعب سؤال في الوجود، وحتى مَنْ يتصور أن لديه إجابة قاطعة فإنه في داخله يعلم أنه لا يعلم.. وبحكم معرفتي بالفلاسفة واتخاذهم مواقف غير ودودة تجاه فكرة الإله؛ فإنني أدرك الانقسام حول هذا الأمر، وإذا كنت تريد الصراحة فإنني لا أرحب بإله يفكر في أن يحرق بالنار مَنْ يخالفوه! ومع ذلك إذا كنت ترغب في الحصول على رد فوري فإن إجابتي هي: أحيانًا!

ضحك عادل قائلاً: متى بالضبط؟

- عندما أشرب كثيرًا ثم أقود سيارتي بسرعة آخر الليل وأصل إلى المنزل سالمًا بعد كسر عدة إشارات حمراء.. وقتها أكون شاعرًا بالامتنان لقوة عليا أنقذتني من الموت ومن مخالفات المرور! أما باقي الوقت فلا يشغلني هذا الموضوع، وبالرغم من أن والذي متدين ويحرص على الذهاب للكنيسة بانتظام؛ فإنه يتفهم أنني لا أنشغل بموضوع الأديان؛ رغم اعتقادي بوجود إله.
- وجوده أحيانًا؟
- نعم، أحيانًا!

عند هذا الحد قامت مادلين واقفة، وقالت إنها مضطرة للاستئذان؛ حيث إنها مرتبطة بموعد مهم مع زميلهم كارل كيسلر لا تستطيع التأخر عنه. سلموا عليها جميعًا فمضت إلى الباب وخرجت، بينما نظرت نادية إلى تونيا نظرة ذات معنى، فكلاهما تعلمان إلى أين تذهب صديقتهما، وتعرفان أيُّ موعد هذا الذي تمضي إليه.

على الرصيف وقفوا يودعون بعضهم، فمضت تونيا بصحبة ماتيوس، أما نادية فكانت متوجهة إلى عملها حيث اقترب موعد نوبتها، فركبت الترام وركب معها عادل وأبو الفتوح، حتى أوصلاها إلى بار دولفين بشارع ماريا هلف.

سار الصديقان وسط مشاعر متباينة، فبينما كان السرور بادياً على وجه عادل بعد الجلسة اللطيفة، فإن محمد كان محبباً بعض الشيء.

قال محمد يغالب حنقاً يخشى أن يظهر: بنت اللذين مادلين قامت وانصرفت بينما كنت أخطط في خيالي وأرسم سيناريو لأعرض عليها أن ألتقي بها مرة ثانية، لكن رحيلها السريع أحبط هذا المخطط. ضحك عادل معقّباً: لقد كانت عينك متسمرتين عليها معظم الوقت، وفي ظني أنك كنت تُجردها من ملابسها في خيالك!

قال محمد مندهشاً: يابن العفاريت.. وكيف عرفت؟ أجاب عادل: هذا شيء لا يحتاج إلى فطنة.. عليك أن تهدأ، فهناك مرات أخرى بالتأكيد.

لم يجد محمد حرجاً في أن يصرح صديقه: عندك فكرة أنني لم أعرف أي فتاة في حياتي.. أكتفي بالنظر إليهن من بعيد.

نظر إليه عادل في دهشة، ولم يتمالك نفسه، قائلاً: غريب هذا الكلام! إنني لم ألق شخصاً اجتماعياً مثلك منذ وطأت أرض النمسا، ولقد رأيتك اليوم منطلقاً في الحديث بإنجليزية مبهرة؛ بحيث لم تترك لأحد محلاً ليشاركك الرد على سؤال تونيا، فكيف يتوافق هذا مع ذاك؟!

لم يُقدّم محمد إجابةً عن هذا السؤال، واكتسى وجهه بنظرة بائسة، ثم سار صامتاً كأنه يجتر حلمًا.. ولم يشأ رفيقه أن يكون لحوحاً.

لم يكن عادل على علم بمهنة «الإسكورت» التي تمتهنها مادلين؛ لأن نادية لم تخبره بالأمر؛ خشية أن تتغير نظرتة نحو صديقتها. كانت تعلم رجاحة عقله، ومع ذلك لم ترَ داعياً لهتك ستر صديقة تحبها؛ لهذا فإن تعويل عادل على مرّات مقبلة يلتقي فيها محمد بمادلين كان حقيقياً.

خرج أبو الفتوح عن صمته وأدرك عادل أنه عاد لحيويته من جديد عندما استعاد ابتسامته قائلاً: كن معنا يا رجل ولا تكن علينا.. أنا في انتظار دعوتك المقبلة للقاء الأخت مادلين ذات الوجه الحلو والقوام الرشيق والساقين الـ...

قبل أن يبدي عادل أي تعليق قفز محمد إلى موضوع آخر: لكن دعك من هذا وقل لي: ماذا كان إحساسك وأنت تستقبل قُبلتين مثل اللوز المقشر من صاحبتك نادية عندما أقبلتُ، ومثلهما عندما أدبرت؟

- يا ساتر يا رب.. اللهم احفظنا.
- أنا لا أحسدك يا عبيط، لكني أقول إن شعاعاً من النور قد ينبثق وسط الظلمة ليجعل الحياة مُحتملة.
- كف عن كلامك هذا وخبرني يا أخ عفركوش.. ما كل هذه الفتوح والتجليات في ردك على ملحوظة البنت تونيا بخصوص الأسماء؟
- عيب يا صاحبي.. ألسنت أنا أبا الفتوح؟ ماذا تنتظر مني غير الفتوح؟ لكن ما حكاية يا أخ عفركوش هذه؟

ضحك عادل قائلاً: أنا ألقبها، ومَن غضب منها أو امتعض أدركت أنه شخص سيئ ولا يصلح صديقاً، ومَن تعامل معها ببساطة أو قام بردها أحبته واطمأنت إليه. تساءل أبو الفتوح: وأنا من أي نوع؟ رد عادل: من النوع العفركوش طبعاً!

شعر عادل بالرضا عن صحبة محمد، وتمنى لو يجد مَن تحبه ويحبها؛ حتى تنتزع من داخله المرارة التي يلمسها حتى دون أن يبديها صاحبه.

لم تمنع خيبة الأمل أبو الفتوح من أن يُظهر بعض الامتنان: عارف يا عادل، هذه أول مرة منذ قدومي إلى هنا أجلس مع أناس عاديين طبيعيين..

- وهل كنت تجلس قبل ذلك إلى أنواع من القردة العليا؟
- أنت فاهمني لكنك تستعبط.. أقصد أول مرة أقابل شخصيات غير مأزومة وغير معطوبة من أمثال أصدقائنا الذين رافقونا في أثناء النوم في الشوارع وفي الغرف البائسة، وكذلك زملائنا في بيع الجرائد الذين يبدو عليهم الاستعداد للقتل حتى يأخذوا إشارة المرور الخاصة بك، لكن أصحابك هؤلاء تبدو عليهم النظافة، وروائحهم طيبة وحوارهم شيق ويفتح النفس بخلاف حديث الـ...

قاطعته عادل بهدوء: يا أبو الفتوح، أنت سيد العارفين.. رفاقنا المصريون هم أناس طبيعيين، ومع ذلك يعيشون هنا ظروفًا غير طبيعية، وأنت نفسك الذي نبهتني إلى هذا أكثر من مرة عندما كنتُ أشطط في الحكم عليهم.. من الجميل أننا نتبادل تذكير بعضنا بهذا.

- لا أدري إذا كنت قد أخبرتك بهذا من قبل أم لا، لكن في المرة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى النادي المصري التقيت بشخصيات مصرية محترمة بعيدًا عن دنيا الطلبة وبيع الجرائد، فكان منهم الطبيب والمهندس ورجل الأعمال الحقيقي، وليس المضروب كصاحبنا مجدي زينهم، وكلهم من المهاجرين القدامى الذين أتوا للدراسة ثم استقروا وتزوجوا زيجات نظيفة، ومع ذلك لم يحدث ائتلاف بيني وبين أيٍّ منهم؛ رغم أنه من المفروض أنني في طريقي لأصير مهندسًا في يوم ليس ببعيد.. لقد أحسست بأنهم يأنفون منا ولا يتحمسون للحديث والتعارف.. كلامهم معي كان مقتضبًا وأحسست أنهم يستنكرون دخولنا إلى ناديهم؛ لأننا بائعو جرائد سناكيح، وبالتأكيد ليس من بينهم من على استعداد لأن يُعرِّفك بأسرته أو يأخذ بيدك ويجلب لك عملاً.

- أنا أيضًا ذهبت إلى هذا النادي، لكن لم يداخني نفس الشعور.. هناك لعبت دور شطرنج مع طبيب من أصل مصري، وقد غلبته وسط أصدقائه، والشيء الذي

أسعدني وسط هذا الجمع النظيف من المصريين أنني وجدتهم ضد ما فعله السادات على طول الخط، وكانوا يشاركوننا الرأي في الخطيئة التي يمضي إليها.. لقد كنت أخشى أن يكونوا جزءًا من السلطة الرسمية بحكم أن السفارة تبعث أعضائها إلى هناك باستمرار ليندمجوا مع أفراد الجالية، لكنهم كانوا أحرارًا.

- من الواضح أن لكل منا زاوية للرؤية ينظر من خلالها.. أنت مهوم بالقضية الوطنية، أما أنا فلا يعنيني حتى لو ذهب هذا الوطن إلى الجحيم.

(3)

كانت نادية تشعر بالسعادة لعثور أمها على صديقة بعد زمن طويل قضته لا تعرف أحدًا في النمسا.. صحيح أن لأمها بعض تحفظات على شخصية «فراو مانهاين» أو جيرترود جارتها العجوز، لكن انطلاقاتهما معًا تكررت وصار خروجهما معًا وذهابهما للسينما أمرًا مألوفًا. كانت جيرترود تبدي الدهشة من إتقان ماجدة لأكثر من لغة وقدرتها على التفاهم بالألمانية التي تعلمتها من التلفزيون وحده، وقد عزز هذا الإعجاب من استنكارها أن تقع امرأة متميزة وجميلة مثلها في يد شرير مثل أورليش.

وقد أرادت ماجدة أن ترد لجارتها الكرم الذي تبديه في أثناء تنزههما معًا؛ فاعتادت أن تقوم بتحضير مائدة إفطار عامرة تضع فيها كل الفنون التي تعلمتها بلبنان، فأتحفت جيرترود بأطباق من الفطائر المتنوعة، بالجبن واللحم وبالسبانخ، علاوة على اللبنة بالزعتري إلى جانب الزيتون الأخضر.. كل ذلك مع الشاي بالنعناع والقهوة العربي.

في هذا اليوم أصرت جيرترود بعد الإفطار على أن تأخذ ماجدة في جولة بالسيارة طافت بها معالم فيينا وأدخلتها إلى قصر الشومبرون للمرة الأولى، كما صعدت بها إلى جبل كالينبرج وجعلتها تنظر من أعلى الجبل بالنظارات المكبرة إلى معالم المدينة، ثم جلست معها على المقهى الوحيد الموجود بتلك المنطقة، والذي يتبع

الفندق الصغير الذي يقصده محبو الهدوء والسكينة والفرجة على الدنيا من علي.
جلست المرأتان تشربان الشوكولاتة الساخنة وتتبادلان الحديث. كانت جيرترود تميل
بطبعها إلى الثرثرة، بينما ماجدة ميالة للتحفظ الذي انكسر قليلاً إزاء سلاسل البوح
التي بدأتها جيرترود عن حياتها الحافلة وزيجاتها الثلاث التي انتهت اثنتان منهما
بوفاة الزوج. قالت جيرترود: هل تعرفين يا ماجدة أنني رغم إدراكي لسوء اختياري
لزوجي الحالي؛ فإنني أشعر أن كلاً منا يُعد عقاباً نموذجياً للآخر.. هو يريد المال وأنا
أمنعه عنه، وأنا أريد الامتنان ولا أتلقى إلا الزائف منه.. كلانا خاسر في هذه الصفقة.
أبدت ماجدة الدهشة من الاستمرار في علاقة مسمومة بهذا الشكل وقالت: اتركه يا
جيرترود.. اتركه وتمني له الخير بدلاً من تعذيبك إياه؛ فلعله يجد فرصة أخرى في
الحياة تخلو من محاولات الإذلال.. لقد قلت لي قبل ذلك إنك لا تسمحين له
باستخدام السيارة وتركبينها وحدك؛ رغم أنها تكون قابضة تحت البيت دون استخدام
في معظم الأحيان.. ألا تجدين ذلك ظالماً؟

قالت جيرترود: لن أختلف معك، ولكن كما ترين فإنه لا يغضب ولا يبدي التأفف، وهذا
إن دل فإنما يدل على سوء الخلق وانعدام النخوة.. لو كان ذا مشاعر طبيعية لما قبل
هذه المعاملة وكان طلب الطلاق، لكنه لا يجرؤ على فعل هذا.. أتدريين لماذا؟
لماذا؟

لأنه ينتظر بأمل أن أموت فيرث مالي ويحصل على ممتلكاتي، لكنه لا يدري أنني قد
أوصيت بكل شيء لمعهد أبحاث السرطان الذي أتلقى العلاج في مستشفاه.

أحست ماجدة بالصدمة وكأنما تعرضت للدغة ثعبان، فنظرت نحو صاحبتهما في
إشفاق قائلة: ماذا؟ هل تُعالجين من السرطان؟

انظري يا ماجدة، قالت هذا ثم رفعت شعرها فإذا هي صلعاء، وإذا الذي فوق رأسها
باروكة تخفي بها الرأس الذي أخلاه العلاج الكيماوي من الشعر.

• يا الله يا رحيم! قالتها ماجدة بالعربية، ثم قامت إلى جيرترود، وانحنت إليها تُقبّلها وتغمرها بدموع صادقة.

ساد بينهما صمت وكانت ماجدة تضم يدها على راحة يد جارتها التي فاجأتها بحكاية مرضها العضال، وبعد قليل غلب النعاس جيرترود وهي جالسة فتركته ماجدة على حالها، ولم تشأ هزها أو التحدث إليها حتى رفعت رأسها وابتسمت لصاحبته متسائلة: أنا نمت.. صح؟ أجابت ماجدة: غفوتٍ لدقيقة واحدة. قالت: العلاج والمرض يتنافسان حول مَنْ منهما يضعفني ويخمد أنفاسي أولاً.. هيا نقوم لناخذ جولة بالمنطقة قبل دخول الليل. قامت المرأتان تمسك كل منهما بذراع الأخرى، وشعرت ماجدة بالرائء لصاحبته؛ فبالغت في الإمساك بها؛ حرصًا وخوفًا عليها من الانزلاق على الأرض الرطبة المبللة بماء المطر. قالت جيرترود إنها تستمتع بالمشي في هذه المنطقة دائمًا؛ حيث حدائق الفواكه والبيوت أو الكبائن الصغيرة المطلة على المدينة. نظرت ماجدة للأفق في أسي، وقالت: هل تعرفين أن زوجي يمتلك بيتًا في هذه المنطقة لا أدري أين يكون، ولم يسمح لي أبدًا بالاقتراب منه.

• واو.. بيت على جبل كالينبيرج.. إنك إذن من الأثرياء الكبار!
• أي ثراء وأي كِبَر؟ إن الرجل يخفي عني كل شئونه المالية، فأنا لا أعرف دخله ولا وسائله في الحصول على المال، وهو يعطيني ما يكفي الطعام والشراب فقط دون زيادة.. إنني أبدو أمام الناس زوجة، لكن في واقع الحال أنا واقعة في الأسر لدى هذا الرجل، وهو يتخذ من ابنتي أيضًا رهينة يهددني بتدمير مستقبلها إذا فكرت في تركه أو في التمرد عليه.

• ماجدة، هل تعرفين بشأن علاقاته الشاذة الآثمة؟

أشاحت ماجدة بوجهها قائلة: كفي كفي يا جيرترود بالله عليك.

9 يوليو 1980 جريدة النهار

- اجتماع آخر لمعالجة الاشتباكات الحربية
- شمعون: اتخذنا تدابير لوقف النار
- الجميل: سيصدر غدًا شيء مفيد
- اتفاق وقف النار لم يُحترم فتجددت الاشتباكات بين الكتائب والأحرار في كسروان وجرود جبل.
- الأحرار أخلوا البيت المركزي والثكنة في الأشرفية بناءً على أمر شمعون وسلموا مفاتيح مراكزهم في المتن الشمالي لأمين الجميل منعًا للصدام.
- هجوم على فقرا انتهى بسقوطها ومغادرة داني شمعون وتراشق مع المردة في البترون.

سابقًا

(1)

خرجت مادلين من فندق راديسون بلو في منطقة بينتسج بالحي الرابع عشر فوجدت سيارة المؤسسة تنتظرها. أشارت للسائق أن يذهب بها إلى كارتر ستراشه وأن ينتظرها ريثما تشتري بعض الأطعمة من هناك. عرجت على محل نورد سي فأخذت سندوتشات الرنجة المدخنة مع شرائح البصل، إلى جانب سندوتشات الجمبري المخلوطة بالبيض المسلوق والمايونيز، ثم تحركت إلى مطعم ويلسون المجاور وأكملت بشراء سندوتشات شنيتزل (فراخ بانيه) مع طبق كبير من السلطة الخضراء، ثم عادت إلى السيارة التي وقفت تنتظرها إلى جانب دار الأوبرا. كانت ترتدي تايبرًا أبيضًا من قطعتين هو في الحقيقة من اختيار الوكالة التي تعمل بها، ولقد أمدتها الإدارة بمجموعة من الملابس المتنوعة وكانت تشير عليها بما ينبغي ارتداؤه على ضوء نوع العمل الذي تذهب لمقابلته.

لقد دعت اليوم صديقتها إلى العشاء عندها في البيت، فأحضرت لهما ما تحبانه من مأكولات. ورغم كونهما تدرسان معها بنفس الجامعة؛ فإنها في الفترة الأخيرة لم تعد تراهما كثيرًا؛ لانشغال كل واحدة من ثلاثتهن في دنياها الخاصة.. واليوم رأت مادلين أن تدعوها إلى بيت والديها حيث تقيم في شارع مارجريتين بالحي الخامس؛ منتهزة فرصة إجازة نادية الأسبوعية من البار، وكذلك زهاب ماتيوس صديق تونيا إلى بيت والده.

كان عميل اليوم الذي لم يشأ الخروج والتجول في المدينة هو ثري عربي اتصل بالوكالة وحدد طلبه في فتاة بيضاء شعرها أسود قصير، متعلمة، تجيد الإنجليزية وقادرة على إدارة حوار ثقافي، فأرسلوا إليه مادلين وتقاضوا منه سعرًا كبيرًا؛ لأن طلبه هذا لا يتوفر في الكثير من الفتيات. أثر الرجل الخمسيني الأنيق أن يظل في الفندق مع جليسته، وقد علمت

منه أنه لم يأتِ إلى فيينا وحده، وإنما اصطحب زوجته وأبناءه الذين حجز لهم جناحًا بفندق كونتيننتال، بينما حجز بفندق راديسون غرفة خاصة بمزاجه! طلب منها أن تشاركه الشراب فاعتذرت؛ لأن الشراب كان من الممنوعات التي لا يجب أن تُقدّم عليها فتاة (الإسكورت) طبقًا لتعليمات الوكالة. لقد حضرت دورة تدريبية قبل أن يجيزوها لبدء العمل تعلّمت فيها أشياء كثيرة، من ضمنها أنها يجب أن تكون يقظة؛ لأنها تؤدي عملاً ولا تقضي سهرةً أنس!

تحدّث الرجل كثيرًا وهو يشرب، ثم استخفه الطرب؛ فطلب منها أن تجلس على رجليه بينما يروي لها جوانب من سيرته الذاتية، ويستعرض كيف يكسب المال من بعض التوكيلات الأجنبية التي يستأثر بها مع عائلته في الوطن، وأخذ يُحدّثها عن البلدان التي زارها والأعمال الأدبية التي قرأها. كان واضحًا أنه يريد أن يستعرض معلوماته، فأجابته وأفسحت له مجالًا ليصول ويجول، وجعلته يشعر أنه اختار الفتاة الصح عندما وجدها قارئة جيدة للأدب، لكنه عاب عليها ضعف معرفتها بالأدب العربي.. أراد أن يستعرض فسألها إذا كانت تعرف الشاعر نزار قباني أو الأديب نجيب محفوظ، فاعتذرت له مع وعدٍ بأن تسعى لتدارك هذا في المستقبل؛ خاصةً وأنها ما زالت تدرس بالجامعة. حدّثها عن محاولاته لكتابة الشعر عندما كان طالبًا، كذلك عن الكتاب الذي ألفه وطبعه على حسابه عن إنجازات حاكم بلاده، وأفاض في الحديث عن جائزة التفوق التي حصل عليها عن هذا الكتاب!

أخذه الحديث فنسي الوقت، وعندما نظر في الساعة أدرك أن الساعتين اللتين حجزهما لم يتبقَّ منهما سوى ربع ساعة؛ فاستأذن منها أن يطلب الوكالة لتضيف إلى حسابه ساعتين آخرين، لكن مادلين اعتذرت بلطف متعلقة بموعد ضروري لأجل والدتها عند الطبيب، وأنه بالإمكان أن تأتي له في الغد إذا أراد، بعد التنسيق مع رؤسائها. تضحك مادلين والسيارة تقطع بها الطريق؛ لأن العميل قام بسرعة فخلع ملابسه قبل انقضاء الوقت وأخذها إلى الفراش.. ولعله قد شعر بالندم على كل الوقت الذي أضاعه في الثرثرة وادعاء الثقافة،

محاولاً أن يبهرها بالحكايات العبيطة عن إسهاماته في الحياة الثقافية ببلاده، غير عالمٍ أنها تنسى الزبائن في الغالب، وتُفرِّغ رأسها منهم بمجرد مغادرتها الفندق!

وصلت إلى البيت وبعد قليل استقبلت نادبة وتونيا بالترحاب، وأجلستهما مع والديها قليلاً، قبل أن تأخذهما وتصعد إلى صومعتها بالطابق الثاني من الشقة.. كانت شقة فسيحة من طابقين يربطهما سلم داخلي بعمارة قديمة، وقد ترك الأبوان لمادلين حرية البقاء في البيت ومنحاهما طابقاً بأكمله، لكن كان يدهشهما أنها لم تحضر أي «بوي فريند» إلى البيت؛ رغم أنها في الثانية والعشرين من العمر!

أدارت مادلين أسطوانة موسيقى، ثم تركتهما ودخلت إلى الحمام؛ حيث أخذت دشًا وعادت إليهما مرتدية بيجامة، في حين انصرفت تونيا ونادبة إلى الطعام. تساءلت تونيا إذا كان الوالدان لا يزالان في دهشة لعدم وجود رفيق في حياتها، فقالت وهي تضحك: نعم، وكأن هذا شيء أساسي في الحياة. قاطعتها نادبة: أوليس الحب أساسياً يا مادلين؟ ردت: لم أقل إنه ليس كذلك، لكن هناك أولويات. نظرت تونيا إلى نادبة وكأنها تحذرهما من التماذي، لكن مادلين بادرت مسرعة بطمأنة نادبة بأن أي أسئلة بشأن حياتها لا تحرجها؛ لأنها مقتنعة بما تفعل، ولأن صديقتها أقرب إليها من أي أحد، ثم أضافت: المهم أن تخبرينا أنتِ يا نادبة عن أخبارك مع عادل.. هل لا يزال للحب وقعه الأول أو أنه قد هدأ وأصبح روتينياً؟

• لم يهدأ.. وكيف يهدأ وقد وضعني في حالة من الصفاء والسلام لم أعرفها من قبل؟! لقد أصبح نومي أفضل بعد أن علمت أن هناك مَنْ يفكر فيّ ويحفل بي.. إنني أحبه من قلبي؛ رغم أن ظروفه معقدة، وربما أن هذه الظروف قد قرَّبتنا من بعضنا؛ لأنني بصراحة كنت أخشى من أي شخص له ظروف طبيعية وله مظهر بالغ الأناقة، وأشعر أنه قد يخفي أشياء صادمة ستفجعني مع الوقت، لكن مع عادل ليست هناك صدمات، فأوراقنا كلها مكشوفة لبعضنا البعض.

ابتسمت تونيا متسائلة: هل نفهم من هذا أنك تخليت عن العذرية وأصبحت فتاة ناضجة مثلنا؟ بادلتها نادبة الابتسام: ليست العذرية تمثالاً أقدس، وإنما كنت في

انتظار من أسمح له بقطف الزهرة.

- وهل قطفها؟
- لا، لم يقطفها.
- ولماذا أيتها الشرقية الحسنة؟
- هو لم يطلب وأنا لم أعرض.. يبدو أن كلاً منا حريص على وجود صاحبه في حياته أكثر من حرصه على ما يأخذه من هذا الصاحب، ولعله يخشى أن يفزعني إذا طلب مني هذا؛ رغم أن مخاوفه ليست في محلها؛ لأنني لم أكن لأرفض، ثم لا تنسي أننا قادمان من بلاد لا تمارس فيها الفتاة الجنس مع من تحب.. صحيح أنه لا توجد هنا قيود أو شخوص تمنعه أو تمنعني، لكن توجد جمجمة لدى كل منا تحتوي على رؤية للحياة لا يسهل تجاوزها أو القفز فوقها، وربما فوق هذا وذاك أنه يريد أن يكافئ نفسه عندما يحس أنه أنجز في الحياة ما يجعله جديرًا بي.. أنا أعلم أن هذا الكلام قد لا يكون مفهومًا هنا، لكنني أتحدث معكما بصدق.
- وهذا ما نحبه فيك.. نحن لا نريدك نسخة منا، وإنما قد أحببناك لأنك لطيفة على نحو مختلف.

قالت تونيا هذا ثم نظرت إلى مادلين، وهتفت بتحفز: وأنت يا مجنونة، ألا تعترمين أن تتخذي صديقًا؟ ابتسمت مادلين قائلة: لست أعارض في المبدأ، لكنني لست مهياة الآن.. لقد فات الكثير ولم يتبق سوى القليل حتى أكون جاهزة لبدء مشروعني الخاص، وأترك الوكالة التي أعمل بها، وعندها لن يكون سوى أن أفتح أحضاني على اتساعها للحب، أما الآن فلا أتصور أن أكون مع رجل بالفندق ثم أتركه لمقابلة حبيبي! هذا أمر لا أحبه ولا أقبله. نددت عن نادية ضحكة وهي تقول: لقد كان صديق عادل الذي أتى معه -ولعلك تذكرينه يا مادلين في لقائنا بالمقهى - يأمل في أن يتعرف إليك أكثر، لكنك فاجأته وانصرفت مبكرًا، وأعتقد أنه ما جاء إلا حين علم أن صديقة لي غير مرتبطة ستكون موجودة. فغرت تونيا فاهًا مستحضرة تلك الجلسة: واو يا مادلين، لقد كان حديثه رائعًا، ومن الواضح أنه واسع الاطلاع. هزت مادلين كتفيها

في لا مبالاة قائلة: للأسف لم أكن مركزة معكم في الحديث؛ فقد كان عندي موعد عمل، وكنت أنتظر وصول السيارة التي ستقلني إلى العميل.

أحست مادلين أن نادية لديها سؤال تتحرج من طرحه؛ فقالت مشجعة: أسألي ما شئت يا حبيبتي، فلن أضيق بأي سؤال. قالت نادية: هل تستمتعين بممارسة الجنس مع الزبائن؟

ضحكت مادلين قائلة: في الوكالة التي أعمل بها لا يسمونهم الزبائن، وإنما يقولون العملاء أو الأصدقاء.

- وهل هناك فرق؟
- عندي أنا لا يوجد، لكن الذين أرسوا قواعد هذا العمل ربما أرادوا له أن يكون «كلاسي» غير مبتذل، وأرادوا أن يميزوه عن أسلوب بيوت الدعارة التقليدية؛ فصاغوا دليل عمل أو «مانيوال» يجب الالتزام به في العمل.. وإجابتي عن سؤالك هي لا.. لا أستمتع؛ لأن هذا ممنوع، ولعلمك فمن غير المسموح لنا أن نترك العميل يُقبّلنا، فقبلات الشفاه تتنافى مع الاحترافية وقد تُحرّك شيئاً من المشاعر وتفتح الباب لعلاقة يمكن أن تستمر، كذلك ممنوع على العميل لمس النهدين أو حلمتيهما؛ لأن هذا من شأنه أن يثير الفتاة فتفقد السيطرة ويتحول الأمر بالنسبة لها إلى ممارسة جنسية، في حين أنه محض بيزنس!
- ما أغرب ما أسمع! ماذا بقي للزبون أو العميل بعد كل هذه الممنوعات؟
- الإيلاج باستخدام الواقي الذي أحمله في حقيبتي.. هذه هي القواعد، وفي الحقيقة لقد أعفتني هذه القواعد من شم أنفاس العميل المخمور وتفغيصه في جسدي!
- وماذا لو لم يلتزم أحد العملاء بالقواعد؟
- الوكالة في العادة وهي تتفق معه أو مع مَنْ يُمثّله تعطيه فكرة عن النظام، ولو حدث أنه أصر على التجاوز، فالسائق القابع بالسيارة أسفل الفندق -وهو ليس مجرد سائق - جاهز ليعيده إلى جادة الصواب بمجرد أن يتلقى على تليفون السيارة طلباً بالتدخل.

بعد هذا الدرس في أصول البيزنس قامت مادلين لتغيير الأسطوانة، فطلبت منها نادية أن تشغل موسيقى شرقية بها إيقاع منتظم، ثم بحثت معها عن شيء مناسب، ولما وجدته قامت إلى شالها، فأمسكت به وأحكمت ربطه إلى وسطها، ثم قَدَّمت إلى صديقتها على وقع الموسيقى فاصلاً جميعاً من الرقص الشرقي.

(2)

ركب محمد القطار من محطة «هوت بانهوف» قاصداً بلدة تولن. لن يكون عادل في انتظاره هذه المرة على المحطة؛ إذ إنه سيمضي اليوم في مقهى «لانثيرن» ليتابع أبطال الشطرنج ويعرف أين يكون موقعه بينهم، وربما يوزع وقته بين مقهى جرايين ومقهى لانثيرن كما أخبره.

لم يكن محمد موقناً من السبب الذي دفعه ليمضي يوم الإجازة في تولن بينما عادل غائب عنها. كان يشعر في هذا اليوم بأن الدنيا ضيقة، وأن ضيق حياته الذي لازمه في مصر قد انتقل معه إلى أوروبا، وإلا فما معنى أن يكون كل رفقاءه الذين تعرف إليهم منذ قدم إلى فيينا من نوعيات غريبة.. وقد تبدت الغرابة أكثر بعدما انقضت إجازة الصيف وانقضى شتاء ثم ذهب صيف آخر ودخلنا في شتاء جديد، ولم تسفر الأيام إلا عن الرفاق المضروبين المعطوبين الذين يتسلى معهم بحكم الاضطرار، لكن لا يجد معهم الأُنس الحقيقي أو السلوى، كما إنه لا يوجد بينهم ذو فكر أو ثقافة أو منطق.. إنهم يعيشون على هامش المدينة ولا يشعر بهم أحد، والسلطات تتغاضى عن إقاماتهم المنتهية وتأشيراتهم المكسورة؛ لأنهم يُقدِّمون خدمة يصعب على غيرهم تقديمها وهي بيع الجرائد بالشارع في الجو القاسي. لقد كان وجود عادل يعزيه ويمنحه الرفقة الحلوة، وكان ضامناً أنه لن يجد منه سلوكاً رخيصاً أو مقرفاً أو شاذاً، لكن عادل قد نجا وأفلت من حياة المجاميع العشوائية التي تشبه حياة قطعان الحيوانات في الغابة، ووجد لنفسه غرفة مع حمام ودُش بمياه ساخنة في بلدة

لطيفة لا تخطر على بال أحد، فضلاً عن صديقة حلوة تحيطه باهتمامها ومحبتها، ولا بد أنه يمارس معها الجنس أو شيئاً منه.. صحيح أن عادل كان يحيط علاقته بنادية بسياج من الاحترام ولم يتحدث عنها إلا بمحبة وتقدير، لكن هذا لا يمنع من وجود ملاطفات كما يحدث بين المحبين.. هكذا كان محمد يفكر. لكن الحق أن محمد صمد في وجه محاولات الرفاق لمعرفة مكان إقامة عادل.. الجميع حاولوا حتى يبوح باسم المنطقة.. لقد عرفوا أنه يمتهن لعب الشطرنج مصدرًا للرزق، حتى إنهم كثيراً ما زاروه في المقهى، لكنهم مع ذلك يتطلعون لمعرفة مكان إقامته وهي بالضرورة مكان به فرص عمل أفضل من فيينا! أبدى محمد الدهشة بينه وبين نفسه من فكرة أن خريطة النمسا كبيرة وتضم مئات المدن والبلدات والقرى، ويمكن لأي أحد أن يأخذ القطار ويجرب حظه في أرض الله الواسعة كما فعل عادل، لكنهم يريدون دائماً أن يقوم أحد المغامرين بالاستكشاف ثم يذهبون في ذيله!

عند هذه النقطة من التفكير توقف محمد؛ لأنه شعر بالخجل، والسبب أنه هو نفسه عندما أراد أن يقضي يوماً بعيداً عن الإزعاج ذهب للبلدة التي يقيم بها عادل، ولم يفكر هو أيضاً في استكشاف مكان جديد، مع أن كل المدن والقرى على طول طريق القطار تغري بالزيارة، لكن يبدو أن أحداً لا يريد أن يجرب!

خرج محمد من محطة القطار وسار في الشارع الرئيس، ثم عرج على كشك صغير يُقدّم سندوتشات الهوت دوج والدونر «الشاورما التركي»، ثم جلس على دكة بالشارع وأخذ يتسلى بمشاهدة العواجيز من النساء والرجال الذين لم يمنعهم البرد من الخروج والسير صوب النهر بصحبة كلابهم من كل الأنواع. إن هذه البلاد تمتلئ بكبار السن الذين تبدو عليهم السعادة والرضا. لا بد أن الدولة هنا ترعى الناس في شيخوختهم وتُقدّم لهم خدمات ومزايا اجتماعية وصحية تطيل العمر وتكفل الستر. لكن ألا تستطيع عائلة من زوجين عجوزين أن تتبناه وتمنحه المأوى في بيت لطيف به تدفئة وتلفزيون وحمّام داخل البيت بدلاً مما يقاسيه من الحمامات المشتركة؟! إنه لم يسكن منذ أتى إلى النمسا في مسكن له توأليت وحمّام.. دائماً دورة المياه تكون

خارج الشقة ومخصصة للطابق كله، وهذا يعني طابورًا صباحيًا طويلًا، فضلًا عن القذارة التي يتركها رفاقه بعد خروجهم. أما الاستحمام فقد اعتاد الذهاب إلى الحمام العمومي في «شنت هالي» والتضحية بثلاثين شلنًا مقابل الماء الساخن والصابون. غشيته كآبة مفاجئة وهو يتذكر مسكنه في منطقة حدائق القبة بالقاهرة، وهو عبارة عن بدروم بائس تحت الأرض في بيت قديم، وهذا المسكن -لسخرية القدر- ذو حمام يشاركه فيه الجار الذي يفتسم معهم البدروم؛ أي أنه ترك مصر وانطلق إلى أوروبا، فوجد نفسه نزيل مساكن لا تقل بؤسًا عما تركه خلفه!

في أثناء مرور الكلاب على الرصيف إلى جواره خطرت في باله فكرة كثيرًا ما راودت رفاقه في أثناء أحلام يقظتهم بالثروة، وهي أن يتهور أحد الكلاب ويغرس أسنانه في ساق الزبون الحالم فيضطر صاحب الكلب إلى تسوية ودية، ويمنحه مبلغًا محترمًا تعويضًا عن الضرر؛ حتى يتفادى رفع دعوى قضائية ومطالبة بأقصى تعويض! ضحك محمد من نفسه لهذه الفكرة الحمقاء، لكن غرابتها لم تمنع أنه تمنى تحقيقها بصدق!

واصل مسيره في الشارع حتى وجد نفسه أمام محل الزهور، ووجد إيربانا بالداخل تقوم بتنسيق وترتيب المعروض منها. لقد كانت بلدة تولن بحق هي مدينة الزهور، فالمزارع المحيطة بها تفوح منها روائح البانسيه والليلك والجاردينيا وباقي الأنواع البديعة. خرجت منه ضحكة متبوعة بشخرة عندما تذكر أنه عرف في مصر مدينة الزهور وحي الزهور وشارع الزهور، وكلها للغرابة كانت أماكن حاصلة على أرقى اسم؛ مع أنها عشوائية قذرة ولا تصلح لسكنى البشر!

اتخذ مجلسًا على الرصيف المقابل بعد أن اشترى لنفسه كوبًا من القهوة، وظل يتطلع إلى إيربانا بملامحها الحلوة وقوامها المغربي، وطاف بباله حديثه مع عادل عنها.. لقد ذكر عادل شيئًا عن فشلها في الحب. مَنْ يا تُرى واثته الجرأة ليعبث بمشاعر هذا

الغزال ويكسر قلبه؟ لو أنها أعطتني الفرصة لقمتم بترميم ما انكسر في داخلها ولمنحتها مشاعر لا تظماً بعدها أبداً.

- قل لي يابن أبو الفتوح.. هكذا سأل محمد نفسه: أترأك جئت إلى هنا خصيصاً من أجل رؤيتها ثم أخذت تضلل نفسك وتحديثها عن جمال البلدة وعن نهر الدانوب إلى آخر الأكاذيب التي يخترعها المرء ليخدع ذاته كما يفعل مع الآخرين بالضبط؟ وماذا لو كان الأمر كذلك؟ ألا يحق لي أن آخذ فرصة معها، خاصةً وأن عادل لا ينشغل بها؟ لكن ماذا لو عرف؟ لقد حذرني معلناً أنه لا يريد ما يهز إقامته بهذا المسكن الذي يأويه.. لكن مَنْ قال إنني سأفعل ما يضره؟ أنا شخص لطيف ولست شريراً أو متطفلاً ولا يخطر ببالي أن أضرب صديقي.

عند هذا الحد من التفكير كان محمد قد أقنع نفسه بسلامة مقصده، فقام وعبر الطريق، ثم توجه إلى محل الزهور فاستقبلته إيرينا بابتسامة. مد يده إلى زهرة وسألها عن سعرها، وبعد أن دفع الثمن واستدار ليخرج عاد إليها قائلاً بثبات يُحسد عليه: هل تقبلي مني هذه الزهرة؟ نظرت إليه متسائلة، فهي لم تفهم ماذا يقصد. أوضح لها محمد أنه اشترى الزهرة ليهدئها إياها، ثم زاد بأنه يعرف أنها تجلس وسط الزهور طول الوقت، ومع ذلك فكل امرأة تسعد بأن يهدئها أحد زهرة. ورغم أنه كان يتحدث بالإنجليزية التي لا تفهمها، فقد أدركت المغزى، وقبلتها شاكراً ثم وضعتها على المنضدة التي تتوسط المحل وعادت إلى ترتيب الزهور.

- وماذا في جعبتك بعد الوردية يابن أبو الفتوح؟ هكذا سأل نفسه، لكن الإجابة لم تسعفه فوقف مرتباً لا يدري ماذا يفعل. لقد مضت عملية تقديم الوردية بنجاح.. يبقى أن يخطو خطوة أخرى.

تشجّع محمد ثم قال لها: هل تقبلي دعوتي على الغداء؟ لم يفهم من ردها إذا كانت موافقة أو رافضة؛ إذ إنها ظلت تتحدث بكلام لم يفهمه، فعاود المحاولة وهو يشير إلى المطعم المجاور، وهنا دخل أحد الزبائن فتوقف محمد عن الحديث، ووجد نفسه

ينسحب خارجًا مع إحساس بالحيرة والارتباك. كان المجهود النفسي الذي بذله حتى يكتسب الجرأة في الحديث قد سبّب له إرهاقًا؛ فجلس على نفس الدكة يرصد الجهة المقابلة، ورآها تنظر نحوه من خلف زجاج المحل نظرات غير مفهومة. من الواضح أنها لم تتذكره ولم تعرف أنه كان بصحبة جارها عندما صادفتهم في المطعم، وتركت على منضدتهما وردة. إن حركتها هذه هي ما شجعه على أن يُقدّم لها الزهرة كبادرة لحسن النية. ظل في مكانه ولم يشأ الرحيل. كان يخشى أن يُعدّ العملية قد فشلت ويرحل فيكون قد أضاع فرصة سانحة؛ ذلك أنها حتى الآن لم تُبدِ الرفض، وإنما هو الذي عجز عن الفهم. ظل على حالته هذه حتى أبصرها تخرج من المحل ثم تضم ضلفتي الباب وتغلقه بالمفتاح. عندئذٍ تحرك مرة أخرى مسرعًا الخطى نحوها قبل أن تبتعد ثم أخذ يحدثها وهي تسيير وهو يسير إلى جانبها. كانت خطواتها سريعة وهو يلاحقها، لكنها توقفت فجأة ونظرت إليه دون أن تقول شيئًا. قال في لهفة: ما رأيك؟ هل توافقين على دعوتي؟ ردت عليه بنفس اللغة التي لا يفهمها وبصوت محايد وكأنها تقرأ نشرة الأخبار، الأمر الذي جعله في حيرة.. لو أنها ترفض لبان عليها الاستياء، ولو أنها تقبل لانفجرت أساريرها وظهر عليها السرور. لكن بعد قليل تبدّل الصوت المحايد، وحل محله صوت واضح النبرات أخذ يرتفع ويعلو في غضب، فبدأ محمد يتلفت حوله وانتابه شعور بالخوف.. يبدو أن عادل كان على صواب حين نصحه بأن ينسى فكرة المحاولة معها، ثم ما شعر إلا بيد توضع على كتفه وصاحبها يسأله بالعربي: مَنْ أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

تلعثم محمد، وقال: أنا.. أنا، فأكمل محرز استجوابه: لماذا تلاحقها؟ وماذا تريد منها؟ كان محرز المغربي يمر من الطريق عندما شهد الموقف عقب إغلاق إيربانا للمحل، ثم سمع كلام محمد، كما سمع ردها عليه. قال محمد: الحمد لله أنك تفهمني.. هل أنت عربي؟ نعم.. نعم، من الواضح أنك عربي.. أنا لم أفعل شيئًا.. كنت أشتري منها الزهور ثم طلبت فقط أن أدعوها للخروج إذا وافقها الأمر.. هل في هذا ما يسوء في هذه البلاد؟ نظر إليه محرز مليًا، ثم قال وهو يجز على أسنانه: لا يوجد ما يسوء سوى أنها

ردت عليك، وقالت إنها تشكرك ولا تقبل دعوتك. سأله محمد: وهل فهمت كلامها؟ رد محرز بنفس النبرة الحازمة: نعم، فهمت كلامها.. والآن مطلوب منك أن تمضي إلى حال سبيلك؛ حتى لا تواجه مشكلة مع البوليس.

(3)

عندما رجع عادل متأخرًا من فيينا وجد ورقة على باب غرفته كتبها محرز يطلب منه أن يوافيه فور رجوعه. فتح الباب ودخل ثم أخذ دُشًا سريعًا وأعد لنفسه كوبًا من القهوة، شربه ثم تدرثر بالملابس الثقيلة وانطلق إلى مسكن محرز. كان سكون الليل شاملاً في البلدة وقد هدأت كل الأصوات إلا من بعض الطيور التي تصدح فوق الأشجار، وكان لصوت قدميه تضربان الأرض وقع المارش العسكري. عندما اقترب من البيت سمع أصواتًا تأتي من الداخل. اقترب من الباب وأرهف السمع.. هذا حوار بين محرز وبين صوت نسائي، لكن الكلام يدور باللغة غير المفهومة الشائعة في البلدة وهي ليست الألمانية. على الرغم من أن عادل لم يكن متمكنًا من الألمانية؛ فإنه يستطيع تمييزها ويقدر على التفاهم بها عند اللزوم. هذه هي إحدى اللغات اليوغوسلافية، وربما كانت الصربية أو الكرواتية أو البوسنية، فجميعها تتشابه رغم اختلافها، ويبدو أن محرز العفريت أصبح من طول بقاءه في هذا المكان واحتكاكه بالمقيمين فيه يفهم لغاتهم. تردد في أن يقرع الجرس حتى لا يفسد على محرز سهرته.. ومع ذلك فقد أراد أن يعرف لماذا أرسل محرز في طلبه وقد كان يمكنه الانتظار حتى الصباح؟! ثرى هل يقيم حفلة صغيرة في مسكنه وأراد من عادل أن ينضم للمحتفلين؟ بعد قليل بدأت الأصوات الصادرة من داخل المنزل تأخذ منحى آخر.. تهدجت الأنفاس وتقطعت، وبدأ الأئين المكتوم والمواء ثم علت الآهات الأنثوية واتضحت الحقيقة.. إن محرز قد أحضر واحدة إلى مسكنه وهو الآن يعيش لحظات غرام شبقي ملتهب معها.. ولكن كيف؟! إن هذا الشاب المغربي يرتبط بعلاقة خطوبة مع فتاة في وطنه، وقد صرح من قبل أن هذا الارتباط يمنعه من التفكير في أي

واحدة أخرى! همَّ عادل بالرجوع، لكن الفضول استبد به ليعرف من الفتاة بالداخل مع صديقه؛ لذلك فقد أرجأ فكرة العودة لغرفته وأشعل سيجارة، ثم كمن بين الأشجار على رصيف الشارع وأسند ظهره إلى شجرة ضخمة كانت أغصانها تخفيه عن العيون، وأطلق لخياله العنان سارحاً في التفكير في يومه الذي قضاه داخل مقهى «لانتيرن» بجوار محطة «ميدلنج»، وفي اللاعبين الذين تعرف إليهم هناك.. لقد تنقل بين أكثر من مجلس داخل المقهى وشهد أكثر من مباراة، وفهم أنهم في هذا المكان يقيمون بطولات خاصة بهم بعيداً عن البطولات الرسمية التي تقيمها المدن المختلفة، وهم في هذا يشبهون مقهى جرابين، لكن لفت نظره تعليق أحد اللاعبين عندما سأله: لماذا لا تشارك في البطولات الرسمية وأنت بهذا المستوى الرفيع؟ قال اللاعب: لا أحب أن ألقى التقدير من مسئول تافه لا يعرف كيفية تحريك القِطْع، ومع ذلك يقوم بكل جسارة بتكريم أبطال الشطرنج وسط احتفال هزلي يتخلله إلقاء كلمات لا معنى لها! أحس أن كلمات هذا اللاعب تُعبّر عنه شخصياً؛ فهذا نفس موقفه بالنسبة إلى البطولات الرسمية التي يكون فيها للمسؤولين السخفاء دور أكبر من اللاعبين! ومثل مقهى جرابين تقام المباريات بالوقت في وجود «التايمر» الخاص بكل لاعب.. كان اللعب بالوقت جديداً على عادل، ولم يشهده بمصر عندما كان يمضي وقته على قهوة قشتمر بالظاهر في مصارعة عتاولة اللعبة. لقد اعتاد أن يأخذ كل لاعب وقته في التفكير قبل أن ينقل قطعته حتى لو تأخر وأصاب الآخر بالضيق والملل، أما هنا فإن لكل لاعب عدداً من الدقائق إذا استهلكها ولم يحسم المباراة يُعد مهزوماً بالوقت، لكن على أي حال لم يحتج عادل إلى زمن طويل حتى تعود هذه الطريقة وسرعان ما أتقن الاقتصاد في التفكير واتخاذ القرار، وحمد الله على أن كتاب الشطرنج الذي وصل من مصر به كل أنواع الافتتاحيات، فضلاً عن المباريات الشهيرة في بطولات العالم.. ورغم أن مقهى لانتيرن كان يشبه مقهى جرابين؛ فإن عادل شعر بالارتياح والألفة للأخير، فضلاً عن أن مجموعة الأتراك أصبحت تأتي هناك لتراهن عليه.

كان عادل مستغرقًا في التفكير وهو يستند إلى الشجرة، ثم استفاق على صوت الباب يُفْتَحُ وغادة حسناء تخرج من عند محرز، والأخير يودعها على الباب بقبلة طويلة. مسح نظارته بسرعة وأمعن النظر في وجه الفتاة، وعلى ضوء مصباح الشارع عرف أنها إيريانا، جارتة الحلوة المجنونة. ظل يتابعها وهي تسير على الرصيف بمعطفها الأسود الطويل حتى ابتعدت ووصلت إلى آخر الشارع على مقربة من مسكنها، ثم اتجه صوب باب مسكن محرز ودق الجرس. فتح هذا مندهشًا ونظر إلى ساعته كأنما يؤنبه، فعاجله عادل: أنت الذي قلت أريدك أن تأتي إلى بيتي فور رجوعك، وأنا لم أرجع سوى الآن، فإذا كانت زيارتي تزعجك فسوف أعود ونلتقي في الغد. رد محرز: لا بأس، لقد ظننتك ستعود أبكر من هذا الوقت. نظر إليه عادل فوجده يتصبب عرقًا فضحك ضحكة ذات مغزى، وفهم محرز أن صاحبه رأى إيريانا وهي تخرج من عنده. سأله: أين كنت طوال اليوم؟ قال عادل: دعك مني وأخبرني أنت بأخبارك مع الغزال اليوغوسلافي المجنون.. لقد سبق أن أخبرتني بأنها تمر بأزمة نفسية نتيجة الخذلان في الحب، كما أنك نصحتني بأن أمنحها ما يهدئ من هرموناتها ويجعلها تتوازن.. هل تذكر؟ ضحك محرز ضحكة ماكرة، وقام لإعداد كأس من الويسكي، ناولها لعادل ثم أعد كأسًا ثانية لنفسه. طلب عادل إضافة الكولا، ثم أخذ يشرب بهدوء. ساد بينهما صمت قطعه عادل: ها.. هل تنوي أن تحكي لي أو أنّ هذا شأن خاص بك ولا يحق لي أن أتدخل فيه؟ قال محرز: ماذا تريد أن تعرف؟

- أريد أن أعرف حكايتك.. لقد صورت نفسك لي قديمًا من عصر الشهداء عندما سألتك لماذا لا تباشرها أنت وتقوم بضبط الفولت لها.. هل تذكر أنك استعذت بالله وقلت إنك خاطب، وإن ارتباطك بفتاة في بلدك يمنعك من معرفة غيرها؟!

امتقع وجه محرز وبدا عليه الارتباك، فسارع عادل معتذرًا: إياك أن تظن أنني أحاسبك أو أؤلمك؛ أنا لا يحق لي هذا، فضلًا عن أنني أبعد الناس عن لوم الناس بشأن علاقاتهم ومشاعرهم، فأنا لا يهمني من ضاجع من ومن اعتملى من، ولكن ما يؤرقني في الحقيقة هو من خدع من ومن كذب على من! فقط أريد أن أعرف ما دمت على

علاقة بهذه المرأة، فلماذا تظاهرت أمامي بالبتولية والعذرية، بينما لم تكن في حاجة لهذا؛ فأنا لست أباك أو ولي أمرك، والأهم لماذا طلبت مني أن أحاول معها؟ ضحك محرز بشدة فبانت سنّته الذهبية وهو يبتلع كأس الويسكي دفعة واحدة، ثم شرع يصب غيرها: لقد أردت أن أختبرها لأرى إن كانت قد تستجيب لغواية أي أحد أم أنها تكتفي بعلاقتها بي.

• وهل أسعدك أنها صرخت في وجهي عندما حاولت دعوتها للخروج، وبهذا أثبتت لك ولاءها وصدق مشاعرها؟

ضحك محرز من جديد وهو يقول: نعم.. نعم، أسعدني جدًّا، واليوم فعلت نفس الشيء مع شخص آخر!

شعر عادل بالضيق من هذه الإجابة، وود لو يلکم هذا المرآئى الكاذب فى وجهه: وماذا عن الارتباط والالتزام والعهود.. هل كلها شعارات ترفعها ولا تحفل بتطبيقها؟

رد محرز: اسمع يا مصري، أنا أريد أن أقدم لك نصيحة..

قبل أن يكمل جملته كان عادل قد هب واقفًا، وقال فى غضب: محرز، صديقى.. لو سمحت، وأنت تخاطبني لا تقل لي يا مصري، فلهجة الاستعلاء هذه لا أقبلها منك أو من سواك.. صحيح أنني أدين لك بأفضال، لكن لكل منا كرامته، ولا أظنك ستكون سعيدًا إذا تجاهلت اسمك وخاطبتك قائلاً: اسمع يا مغربي، هل تفهم كلامي؟

قام محرز من مكانه وأمسك رأس عادل فقبّلها، وقال: لا تغضب يا أخي، أنا والله لا أقصد أن أضايقك، لكني مخمور ومُتعب، وإذا كنت تريد مني إجابة صادقة فسوف أريحك وأكشف حالي أمامك، شوف يا سيدي، إن خطيبتى قد تركتني منذ سنة، لم تحتمل الانتظار، وقد تزوجت وسافرت لتعيش في باريس مع زوجها، وزوجها هذا هو واحد من أصدقائي الذين تربيت معهم منذ الصغر، هل يريحك هذا؟ نظر عادل نحوه مذهولًا، فمضى: هل تصدق أن أهلها ظلوا يتلقون الهدايا التي كنت أرسلها

لابنتهم دون أن يخبروني بأنها تزوجت؟ وهل تصدق أن أهلي أنفسهم عرفوا الموضوع بالصدفة بعد فترة من حدوثه؟ لقد ظللت قابلاً بهذا المكان وكأنني في معسكر عمل؛ حتى لا أنفق فلساً واحداً خارج مشروع الزواج، وفي النهاية هذا ما لقيته.. بالله عليك هل هناك بشر يفعلون هذا في بعضهم البعض؟ لقد أخبرتك بموضوع الخطوبة والولاء والالتزام؛ لأنني أردت أن أقدم نفسي لك في صورة الشخص المحترم، لا في صورة المغفل المضحوك عليه.. ألم ترَ أحداً يكذب من قبل حتى يُحسِّن من منظره؟ أنت نفسك.. ألا تمارس الكذب أحياناً؟ رد عادل وقد غلبه التأثر: بلى يا صاحبي، أنا مثل غيري.. أكذب أحياناً، وأنت لا تعيبك خيانة الخائنين. أحس عادل بأنه من الأفضل أن يترك محرز وحده، فقام إلى الباب يفتحه، لكنه قبل أن يخطو إلى الخارج التفت إلى صديقه الذي جلس على الأرض من شدة الإعياء والسُّكر وسأله: لم تقل لي لماذا كنت تريدني اليوم؟

رفع محرز رأسه قائلاً: كنت أريد أن أسألك عن شاب مصري أتى إلى بلدتنا اليوم وجلس على الرصيف لفترة طويلة ظل خلالها يتطلع إلى إيرينا وهي داخل محل الزهور، ثم هرع خلفها بعد أن أغلقت المحل، وطلب منها بكل سماجة أن تصاحبه إلى المطعم.. فعل هذا دون مناسبة ودون سابق معرفة، وهي من جانبها قامت بتهديده وأرادت أن تطلب البوليس لولا أنني كنت ماراً بالصدفة وشهدت ما حدث، فطلبت من الأخ أن يغادر فوراً.. والآن قل لي يا سيد عادل: هل تعرف هذا الشخص؟ قالها وهو ينظر إلى عادل بحدة.. ثم أكمل سؤاله: وكيف تفسر هبوط شاب مصري على هذا المكان الريفي المجهول؟ وما الذي يدفعه لمحاولة إغواء واحدة لا يعرفها؟ أم تراه يعرفها وسمع عنها من مصري آخر؟

كان عادل يستمع ولا يفهم حقيقة الموضوع أو المغزى من تلميحات محرز، ثم بدأ رويداً رويداً يربط الأمور، وخطر بباله أن أبو الفتوح قد يكون الوحيد الذي رأى هذه المرأة وأبدى إعجاباً بها ورغبةً في أن يتقرب إليها.

شعر عادل بغضب ممزوج بالحزن من أحداث هذه الليلة الغريبة، فقام دون أن يجيب عن أسئلة محرز ومضى نحو الباب ففتحنه واتخذ طريقه إلى مسكنه.

(4)

لم يستطع عادل أن ينام وظل يتقلب في الفراش بعد عودته من زيارة محرز. كان يشعر بضيق بالغ من الدنيا، وأحس بأن الجدران تكاد تُطبق على ضلوعه؛ لدرجة أنه تمنى لو يمر عليه أي متطوع ابن حلال فيأخذ حياته ويكملها بدلاً منه؛ لأنه أحس بضعفٍ عن مواجهتها. إن مصر مغلقة في وجهه والعودة إليها تعني دخول السجن، والنمسا شحيحة فيما تقدمه بالنظر إلى ظروفه.. الناس الذين التقاهم لا يصلحون للصدقة، وحتى مَنْ كانوا واعدين منهم مثل أبو الفتوح ومحرز يتصرفون بغرابة وأنانية، وهم رغم أنانيتهم معذورون، يريد أن يعاقبهم، ويشفق عليهم في الوقت نفسه، وهو نفسه غير مبرأ من العيوب.. ما هذه الحياة البذيئة؟ إنه ما زال في الرابعة والعشرين من عمره ويقاسي ليحافظ على المكان الذي ينام فيه، فماذا تحمل له الحياة في الشيخوخة؟ وهل يمكن لحياة بهذه النوعية أن تصل بصاحبها إلى شيخوخة آمنة؟ لكن مهلاً.. ليست الحياة كلها قاتمة، ففي وجود نادبة توجد فسحة من الأمل، ولكنها هي الأخرى تحمل تاريخاً مدعوراً مليئاً بالكوابيس. ليته يستطيع أن يمسح عنها غبار الماضي وأدراجه.

قام من الفراش مثقل القلب ومضى إلى جهاز الكاسيت الذي اشتراه من مسعد الحرامي، ودس فيه الشريط الذي أهدته إياه نادبة، فدارت أغنية «آه لو تدري بحالي».. عاد إلى الفراش وظل يستمع إلى فيروز ويدير أغنياتها من جديد بينما هو مستلقٍ يحملق في السقف.

عندما أشرق النهار قام فارتدى ملابسه وعزم على الخروج؛ رغم أنه لم يكن يدري إلى أين يذهب. إن مزاجه لا يساعده على التوجه إلى مقهى الشطرنج ويشارك في اللعب،

أما نادية فهي الآن في الجامعة تدرس.. على العكس منه بعد أن أصبح «صايح دولي» يتطلع إلى كسب رزقه من خلال القمار. فكر في الذهاب إلى محرز، لكنه أحس أن الكلام بينهما انتهى ولم يعد ثمة ما يقال.

ركب القطار وترجل في آخر الخط بمحطة هيليجنشتات، ثم أخذ الترام إلى ميدان «فلورزدورف» بالحي الواحد والعشرين وسار إلى الناصية التي يقف بها أبو الفتوح يبيع الجرائد مرتديًا الجاكييت الفوسفوري الشهير. ما إن رآه محمد حتى تهلتت أساريره وتلقفه بالأحضان، ثم تركه وانهمك في العمل. بعد قليل دخل محمد إلى الكافيه المجاور، وأحضر لعادل كوبًا كبيرًا من القهوة مع قطعة شوكلاتة. وقف عادل معه بينما كان يعمل ويجري إلى السيارات التي تتوقف في الإشارة الحمراء يبيعها النسخة ويحصل على البقشيش، ثم يعود إلى الرصيف يشارك صديقه قهوته ويأخذ منها رشقات ثم يجري من جديد إلى السيارات.

لقد ارتدى محمد وجه لاعب البوكر وحرص على أن تخفي ملامحه ما يفكر ويشعر به. كان لا يعلم إذا كان عادل قد عرف ما جرى بالأمس أم إنه لم يتابع الخبر بعد من جارته وحاميتها الذي يشبه الغوريلا، ومع ذلك فقد أحس بالفتور الذي يعتري صاحبه من حديثه المقتضب. لقد تأهب منذ أمس وراجع مع نفسه السيناريو الذي سيبرر به ما حدث واستعد لمناقشة عاصفة جهّز فيها باقة من الأسانيد اعتقد أنها تبرر موقفه، لكن عادل لم يتحدث عن شيء. أصيب محمد بخيبة أمل. لقد كان يُمني النفس بمحادثة حادة وخباطة تنتهي بالاعتذار والتصافي، لكن ما يبيده عادل من لا مبالاة لا يطمئنه.. صحيح هو يعرف أن عادل لن يضر له الشر، لكن تصرفه وكأن شيئًا لم يكن ليس مريحًا على الإطلاق. فكر محمد في أن يبدأ هو الحديث ليستخرج ما بداخل صديقه، لكنه تردد، ثم آثر أن يستسلم إلى حالة من الاستهانة واللامبالاة.

كان عادل يدرك الظروف النفسية السيئة التي يمر بها أبو الفتوح، ويعرف أنه يجاهد حتى لا ينفجر ضيقًا بهذه الحياة؛ لذلك قرر ألا يفتاحه بشأن طلعتة الغبية إلى تولن

وألا يزيد من معاناته.

عند الثانية عشرة ظهرًا انتهت وردية محمد في عمله الصباحي، فخلع جاكيت العمل ووضعه في حقيبته التي حمل فيها أيضًا الجرائد غير المباعة التي سيعيدها خلال يومين إلى الجريدة فيما يُسمّى «الروتور» أو المُرتَجَع.

قال محمد: ما رأيك أن نتغدى ثم نذهب إلى الشقة، وهناك ستجد أشياء تسعدك؟ تساءل عادل في تهكُّم عما يمكن أن يُسعد في شقة شارع السلزاخ. قال محمد: لدينا مفاجأتان: الأولى كرة مفتخرة من الحشيش الأصلي أحضرها ابن الحرام حسنين بالأمس.. لقد سهرنا الليل ندخن منها وما زالت كبيرة وكأن بها شيء من البركة يجعلها لا تفنى!

ومن أين أتى بها حسنين يا تُرى؟

أعطاهها له الرجل الذي يرافقه، فحسنيين عقبال عندك تحققت أمنيته، وحصل على رجل أحلامه، وهو شخص كان في عهدة عمك طه، ثم تنازل عنه طواعيةً؛ إكرامًا لخاطر حسنين؛ خشية أن تتشقق بروساتته من فرط الجفاف والاحتقان!

وماذا عن المفاجأة الثانية؟

فتاة نمساوية شقراء تبيت عندنا في الشقة.. لقد أحضرها سامي في مفاجأة مدوية.. كيف استطاع بحالته المزرية أن يقتنص فتاة كهذه؟

رفع عادل حاجبيه من الدهشة: هل هي جميلة؟

ملاحظها حلوة لكن يبدو أن الإدمان أهانها وبعثر جزئياتها، وقد شجعها سامي على المجيء معه عندما أخبرها بوجود مخزون من الحشيش بالبيت.. وهناك مفاجأة

ثالثة، وهي أن سامي قد ذهب إلى الحمام العمومي، وأخذ دُشًا وأزال وساخة الدهر؛ حتى يستطيع أن ينام مع البنت دون أن تنفر منه!

هرش عادل رأسه، ثم غلبه الضحك: وأنتم أين ذهبتُم بينما كان سامي يضاجعها؟

منحناه نصف ساعة من باب الجدعنة وتركنا له الشقة، وبعد ذلك سهرنا نلف سجائر مغمسة بالحشيش حتى الصباح، وكانت «فيرا» وهذا هو اسمها صاحبة النصيب الأكبر من التعميرة.

في الشقة كان حسنين وسامي يتحلقان حول حلة مكرونة بالصلصة قام حسنين بطبخها ثم شرع في التهامها وهي في مكانها فوق الموقد، وقد وقف سامي إلى جانبه والملعقتان تدقان جوانب الحلة وتحفران لرفع المكرونة قبل إلقائها في الأعماق. عندما أبصرا محمد ومعه عادل دعواهما للمشاركة، لكنها كانت في حقيقتها عزومة مراكبية؛ حيث إن المكرونة قد تم نسفها.

على السرير المجاور للمطبخ كان عزت كلوت يجلس متورم الوجه بعد أن أصبح ملاكم شوارع قد الدنيا، وفي يده مجلة للصور العارية اشتراها من ناش ماركت ضمن مجموعة حصل عليها بعشرة شلنات، وكانت هذه المجلات هي زاده وعزاؤه بعد أن خف رجله كنصيحة عادل عن الكوبري وأصبح يكتفي بالمجلات! قام عزت فحيا عادل بسرعة، ثم عاد لمجلته. وفي ركن قصي من السرير الأخير بالغرفة كانت الفتاة «فيرا» تنام نومًا عميقًا لم تؤثر فيه الضجة التي تحدث حولها. ألقى عليها عادل نظرة سريعة ثم التفت عنها، وسأل:

• من منكما الطباخ العظيم صاحب حلة المكرونة؟

قال حسنين: بلا فخر، أنا طبعًا.. هل تتصور أن أدع سامي المعفن يطبخ لي؟ زمجر سامي وهَمَّ بالتكشير عن أنيابه؛ لأنه تصور أن يسقط لقب «المعفن» تلقائيًا عنه فور ذهابه إلى الحمام العمومي، لكن من الواضح أنه سيلازمه طويلاً. أوقفه حسنين بإشارة من يده وقال وهو يتصنع العظمة: سوف أحرمك من الحشيش يا سامي يا ابن مرجانة. رد سامي في هلع: لا في عرضك، أنا لا أقصد.. نريد الآن أن نرتب «ضريّة» معتبرة لأخيك عادل حتى ينزل من عليائه ويفهم أن معرفتنا ليست شرًا محضًا!

ضحك محمد وقال مُعَيَّرًا دفعة الحديث: الواد سامي أمه اسمها مرجانة، صحيح؟ قال حسنين: والله أنا كارمه يا محمد يا أخويا؛ لأن اسمها قد يكون أصعب من هذا بكثير!

قاطعهم عادل: أين طه وسيد الأستورجي وبقية سكان المطرح؟ رد أبو الفتوح: سيد الأستورجي لا يخبرنا بتحركاته ونحن لا نسأله، أما طه فقد خرج مسرعًا بما يشي بأن عنده حالة مستعجلة! وقد يكون حسنين على علم بتحركاته باعتبارهما ينتميان لنفس الكار! قال حسنين: لا والله، لا أعرف عنه شيئًا.. لقد عرّفني بأحد أصدقائه ثم لم يعد يكلمني وكأنه غاضب عليّ.

أخرج أبو الفتوح علبة سجائره ودفتر البفرة وطلب من حسنين إمداده بالتموين، فوضع هذا يده في صديريته، وكان يرتدي تحت البلوفر صديرية صعيدية من تلك التي يحمل فيها أهل الجنوب المحفظة ذات الطيات المتعددة، ثم أخرج ورقة سولوفان بها قطعة حشيش. سأله عزت عن الكرة التي كانوا يقتطعون منها الليلة السابقة، فأخبره بأنه قام بتقطيعها مثلما يفعل التجار؛ حتى يتم التعامل معها بحكمة. بادره عادل في سؤال ماكر: ولماذا تتعامل بحرص مع كرة الحشيش؟ هل الرجل الشاذ الذي تنام معه لن يمنحك تموينًا آخر؟ بان على وجه حسنين الاستياء ورد مستنكرًا: وهل لا بد أن تصيغ الجملة على هذا النحو الجارح؟ الرجل الشاذ الذي تنام معه!

قال محمد: لا تغضب يا حسنين، إنه لا يقصد سوى أن يفهم هل الرجل العجوز الدميم القذر الذي تمارس معه الجنس الشاذ في المنتزهات وأسفل الكباري وبين الأشجار سيعطيك قطعة أخرى؟

أدرك حسنين أن هذين الملعونين لن يتوقفا عن السخرية والضحك؛ فناول محمد القطعة وتركه ينشغل باللف. بعد قليل كانت الصواريخ الملفوفة منصوبة على المنضدة فتناول عادل صاروخًا وأشعله، ثم كتم الدخان وتركه ينساب ويتخلل تلافيف المخ قبل أن يطلقه في زفرات قصيرة متتابعة بدا بعدها أنه في طريقه للسلطنة. أشار إليه سامي بأن عليه أن يمرر الكرة ولا يستأثر بها وحده. قال عادل من خلال غيمة الدخان التي أحاطت به: هل تقصد أن أمرر إليك السيجارة يا أخ عفركوش؟ رد سامي: معلوم يا رجل. لكن عادل أشاح عنه ونظر إلى محمد موجهاً إليه الحديث: أنا لن أخمس مع أحد.. سأضرب الصاروخ وحدي.. هل عندكم مانع؟ سحب محمد صاروخًا بدوره قائلاً: لا توجد موانع.. الصواريخ كثيرة والحمد لله، ومن أراد أن يضرب وحده فليتوكل على الله، ومن أراد المشاركة والتخميس فلن يمنعه أحد.

لم تكن جلسات الحشيش جديدة عليهم جميعًا، لكنها في السابق كانت في أحضان الوطن، الجديد أنهم وجدوا في فيينا رجالًا يمد حسنين بالصنف المعتبر فلم يترددوا في إقامة احتفاليات وهم يؤكدون لحسنين أنهم ظلموه عندما حاولوا أن يثنوه عن العلاقات الشاذة! قال له أبو الفتوح: لقد ظلمناك يا حسنين وأنا شخصيًا لو صادفني شخص من هذا النوع فلن أتردد في إهدائه لك على أن تجعله يشتري لنا «كباب وكفتة».

لم يكن عادل كبيفًا، لكن كانت له ليالٍ طويلة في شقة شارع الصناديلي بالجيزة مع أصدقائه، وكانت هذه الشقة هي وكرهم السري الذي استأجروه وتقاسموا إيجاره الشهري حتى يستطيعوا فيه أن يذاكروا ويسكروا ويحششوا ويلعبوا شطرنج

ويتكلموا في السياسة ويعملوا مجالات الحائط التي ضج منها الأمن وطارد أصحابها، كما كان بإمكان كل منهم أن يحضر صاحبتة إلى المكان -لو كانت له واحدة- بشرط أن يخبرهم قبلها بوقت كافٍ؛ حتى يخلوا له المطرح. ومن الذكريات الطريفة لصاحب البيت الذي سكنوا عنده أنه كان تاجر مخدرات معروف اسمه عم سليمان، وكان يسكن مع أسرته بالشقة الواقعة أسفل شقتهم، وعندما كانوا يحتاجون لشراء المخدرات كان يكفيهم أن يدلوا «السَّبْتُ» إلى بلكونته وبداخله الفلوس حتى يعطيهم التموين. ورغم أن عادل اعتاد أن يحشش مع أصدقائه و«يخمس» معهم في نفس السيجارة دون أن يأنف؛ فإنه لم يستطع أن يفعل هذا مع هؤلاء الرفاق، وأصر على أن يدخل الصاروخ وحده.

من الواضح أن رائحة الحشيش قد دخلت في خياشيم «فيرا» النائمة كالتمثال؛ فأنعشت حواسها وجعلتها تتقلب في الفراش، ثم تتمطى في كسل وتصحو من النوم، ثم تنظر حولها وكأنها لا تعرف أين هي! لكنها فيما يبدو لم تنشغل بإجابة أسئلة لا داعي لها مثل: مَنْ يكون هؤلاء؟ أو ما الذي أتى بي إلى هنا؟ السعادة التي بدت على ملامحها وهي تستنشق الدخان قبل أن تلقي على السادة المجتمعين تحية المساء جعلت أبو الفتوح يطمئنها بأن نصيبها محفوظ، لكن بعد أن تذهب إلى الحمام وتغتسل، ثم قام متطوعاً وفتح شنطته وأخرج منها فرشاة أسنان جديدة ومعجون قدمهما للفتاة، ثم أمسكها من يدها ومضى بها إلى التواليت خارج الشقة؛ حيث فتحه لها بالمفتاح وعاد ليستكمل صاروخه.

عادت فيرا سريعاً، ثم اندمجت معهم في الضرب.. وبعد قليل اكتمل السرور عندما فُتح الباب ودخل عليهم طه وفي يده زجاجة ويسكي «بلاك ليبل» كان من الواضح أنها نفحة من نفحات الإخوة الكرام الذين يباشروهم!

قال طه: إن رائحة الحشيش قد تجاوزت عتبة الباب وخرجت إلى السلم ثم قفزت وبلغت باب البيت وتعدته إلى رصيف الشارع.. لا بد من فتح جزء من الشباك يا قوم،

وإلا وجدنا البوليس يجلس وسطنا.

قام عزت من سريره وفتح جزءًا من الشباك فاندفع الدخان خارجًا منه. تلا ذلك قيام طه إلى مغسلة المطبخ ليمسك بثلاثة أكواب ويغسلهم جيدًا، ثم يصب كأسًا لعادل، وأخرى لأبو الفتوح، وثالثة لنفسه ثم يجلس على السرير مسندًا ظهره للحائط. لم يكن خافيًا أن طه يحمل تقديرًا خاصًا لعادل ولمحمد أبو الفتوح في حين لم يحفل بالباقيين. قام حسنين فتناول الزجاجاة وصب لنفسه كأسًا وأخرى لعزت، بينما بحث سامي في الثلاجة عن شيء تأكله فيرا، فوجد قطعة بيتزا قام بتسخينها ومنحها لفتاته التي لا يدري أحد من أين أحضرها!

كان من الواضح أن قطعة الحشيش نقية بشكل استثنائي، حتى إن عادل لم يتمالك نفسه من التغزل فيها، وقال إنه من المفروض تجريم الحشيش المضروب فقط، أما الصنف السليم الذي ينز منه الزيت وتفوح رائحته فتعبق المكان فلا بد أن يباع علنًا في كل مكان مثلما يفعلون في هولندا الحرة. سأله محمد: هل تقصد بكلامك هذا أن هولندا هي صديقة الطلبة؟ أو ما عادل بإشارة تقول نعم، فأبدى محمد الدهشة قائلاً: كنت أظن أن صديقة الطلبة هي «سامية أستك» التي يعرفها طلبة هندسة عين شمس ويؤمنون عشتها فوق جبل الزباله خلف ميدان عبده باشا. تطوع حسنين فأوضح أن للطلبة أصدقاء كثيرين في كل مكان. قال عادل: أكيد، وعلى رأسهم الرجل الفيونكة الداعر الذي يمدك بالتموين..

كان عادل يشعر بالانبساط، ويبدو أن الحشيش قد أخرجته من حالة الكآبة التي سيطرت عليه منذ أمس، فمد مشاغباته نحو عزت، وسأله وهو ينظر نحو فيرا: وأنت يا أخ كلوت.. ألم تأخذ دورك مع السنيورة التي أحضرها أخونا سامي؟ امتعض عزت من الفكرة، وعبر عن استيائه قائلاً: مَنْ تظنني يا رجل؟ أنا لا أكل من طبق ملوث! ضحك حسنين بشدة على الإفيه الذي أطلقه عزت وزاد عليه بالقول: خصوصًا وأن هذا الطبق قد ولغ فيه الكلب! هب سامي واقفًا ولوح بقبضته في الهواء قائلاً لعزت:

احترم نفسك يا بتاع المجالات يا واطي، ثم ناظرًا نحو حسنين: دع أحدًا غيرك يتكلم عن الوعاء الذي ولغ فيه الكلب أيها الشاذ القذرا! لم يُعر حسنين أدنى اهتمام لما قاله سامي، لكن شد أنفاسًا متسارعة من الصاروخ وقد تملك منه التوهان، وأخذ يغمز بعينه لفيرا! أما عزت فانطلق وضحكاته تملأ المكان: أراهنكم على أي مبلغ تتفقون عليه أن الست فيرا هذه لم تستحم منذ شهور، وأن ملابسها الداخلية التي من المفترض أنها بيضاء قد تحولت بفعل القذارة للون الأسود، ولا شك أن سامي قد ندم على الثلاثين شلنًا التي دفعها للحمام بعد أن فك عنها ملابسها وأدرك أنها تعتنق مبدأه نفسه بأن النظافة تستطيع أن تنتظر!

نظر محمد نحوه بعيون محمرة من شدة السُّطَل: من الواضح باعتبارك خبير كلوتات دولي أنك استطعت تحديد لون ملابسها الداخلية دون أن تراها.. مدد يا شيخ كلوت.. مدد!

كانت فيرا مندمجة مع السجائر، وقد أخذت تتبادل الأنفاس مع سامي الذي ضمها إلى صدره وهو يجلس على الأرض محوِّطًا عليها باعتبارها أيقونته النادرة.

وسط الدخان الأزرق والضحكات المنطلقة دق الباب، فسكتوا فجأة؛ خشية أن يكون أحد الجيران قد أبلغ البوليس. قام محمد بهدوء، وسأل من وراء الباب: مَنْ الطارق؟ جاءه الرد: أنا مجدي زينهم. تعالت الصيحات.. بيه هو أنت؟

خطا مجدي إلى الداخل فوجد الجميع على حالتهم هذه وسجائر الحشيش والأكواب تملأ المكان، ثم نظر إلى فيرا وبعد أن حدَّق فيها تساءل متهكمًا: ما شاء الله! ما شاء الله! مَنْ تكون هذه السنيورة؟ فرد سامي: وما شأنك أنت يا متطفل؟ فأطلق مجدي شجرة إسكندراني، وصاح متصنِّعًا الغضب: هل حولتم شقتي إلى غرزة؟ لم يكذب يتفوه بجملته هذه حتى انطلقوا في رد جماعي دون اتفاق: آه حولناها غرزة.. ثم دخلوا بعدها في نوبة ضحك هستيري! ارتبك مجدي.. لقد أراد أن يهاجمهم ويسجل عليهم نقطة حتى يستمر في ممارسة ابتزازهم تجاههم، لكن ردهم فاجأه فقال

متراجعًا: يا جماعة لا يصح ما تفعلونه في المكان؛ لأن البوليس إذا جاء فلا أظن أن لديكم ما تخسروه، أما أنا فسوف تتأثر سمعتي وأنا رجل كما تعلمون...

لم يتركوه يكمل جملته، فقد بادره محمد: نعم.. نعم، نعرف أنك رجل أعمال كبير وأصدقاءك جميعهم من اللوردات والبارونات وتايكونات البيزنس، وقال طه: يا عم مجدي، كفى كذبًا، وليتك تكف عن الهجص والحكايات الفارغة.. أنت رجل غلبان مثلنا ورأيك تعمل في محل بقالة متواضع، وبالمناسبة هذا لا يعيبك، لكن الكذب هو الذي يعيب، وإذا كنت تخشى أن تتأثر سمعتك بسببنا فقم وفارقنا يا أخي. ابتلع مجدي ريقه وقد غلبه الارتباك، لكنه استمر في المكابرة: يا بني يا حبيبي، المحل الذي رأيتني به هو واحد من عدة محال أمتلكها أنا وزوجتي، وليست مشكلة أن أتولى البيع بنفسني في غياب العامل الذي نوظفه. ابتلع طه جرعة ويسكي «سيك» من الزجاجاة مباشرة، ثم مد إصبعه في وجه مجدي: اسمع يا مجدي يا ابن مرجانة.. نحن في غاية الانبساط، ودماغنا متكلفة؛ لهذا لا نحتمل أي كلام فارغ هنا، لو أردت أن تضرب معنا أهلاً وسهلاً، أما حواديتك البايخة فبالله عليك تعفيننا منها. امثقع وجه مجدي واكتسى بالغضب، لكن قبل أن يرد كان سامي يطلق ضحكة عالية: إذن مجدي زينهم هو ابن مرجانة الحقيقي، ولست أنا.. فاهم يا حسنين يا ابن الجزمة؟ نظر مجدي زينهم إلى سامي في ذهول: حتى أنت يا قذر تتجرأ عليّ.. والله العظيم لأطردك من هنا وأرحلك من البلد كلها. ضحك سامي ساخرًا قبل أن يقفز إلى المطبخ ويمسك بذراع المقشاة الخشبي، ثم يطلق تهديده: أنت ترحلني يا كلب الروم؟ والله لئن لم تنته عن غيك لأضربنك بالمنجنيق.. قال هذا وهو ينظر إلى المقشاة ولا يتمالك نفسه من الضحك. التقط محمد الخيط فسأل سامي: بالمنجنيق؟ قال: نعم، بالمنجنيق. قاطعهم طه: لكن المنجنيق عليه رهن يا أبو السام، فما العمل؟ نظر سامي نحو السقف بعيون لا ترى وكأنه يفكر، ثم هتف: وجدتها.. سأضربه ثم أحتفظ بالمنجنيق لنفسني، وسوف أتحمل قيمة الرهن للحاج صبحي العجلاتي. أطلق أبو الفتوح شخرات قصيرة متتابعة متسائلًا، وهو يسحب نفسًا عميقًا من الصاروخ: وهل قمتم

بتأجير المنجنيق من عند صبحي العجلاتي؟ أو ما سامي بهزة من رأسه قبل أن يضع
نفس الرأس في حجر فيرا الجالسة على الأرض.

كان مجدي يتابع هذا الفاصل من الهذيان وهو لا يدري ماذا يفعل لقد تبعثرت كرامته
وهو الذي حرص طويلاً على الظهور أمامهم بمظهر العلامة الوقور.. لم يجد بداً من
الاعتراض على الوقاحة التي يعاملونه بها، فقام معلناً الانصراف. قبل أن يتحرك وجد
عادل يقترب منه وفوجئ به يُجلسه على كرسيه بضغطه من يديه على كتفيه، بعدها
رفع عادل يده عاليًا، وقال بصوت زاعق: سمع هُس يا عجر، ثم التفت إلى مجدي
محملًا في وجهه مليًا قبل أن يعود إلى محمد أبو الفتوح متسائلًا: هل ترى ما أراه يا
رجل؟ نظر محمد في حيرة: ماذا تقصد؟ قال عادل: انظر جيدًا.. هذه معجزة لا تتكرر،
ثم بنفس الإيقاع البطيء أعاد النظر إلى وجه مجدي وقال له: اسمع يا أخ عفر كوش،
إن أذنك عجيبة.. إنها معجزة، ألا ترون شكلها المخروطي؟ إنها تصلح لأن نصب فيها
الويسكي ونشرب بهدوء في الليالي الممطرة.. هل تسمح لي يا عفر كوش أن أشرب
في أذنك كأسًا واحدة؟

صاح عزت معترضًا: ولكنها لا تمطر الآن، فكيف تشرب كأسًا في أذنه؟

عند هذا الحد انتفض مجدي وقام صارخًا: آه يا ولاد الكلب يا سفلة، أنا غلطان لأنني
أتي لأسهر مع متشردين مثلكم.

وسط ضحكاتهم الفاجرة قال طه: امش من هنا يابن مرجانة ولا ترينا وجهك مرة
أخرى، وإذا كان على الإيجار، سنأتي إليك في الدكان وندفعه لزوجتك.. أليست هي
صاحبة كل شيء؟

تردد مجدي بين أن يرد فيعرض نفسه لمزيد من الإهانات أو ينصرف في هدوء، لكنه
قبل أن يقرر ما يجب عمله وجد حسنين يميل نحوه نافخًا الدخان في وجهه وهو
يقول: كفاية يا جماعة، هو سيرينا رشاقة خطوته وينصرف كأى روح شريرة، ثم

اندمج حسنين وصوته يعلو تدريجيًا في أداء تمثيلي: انصرف يا غدار؛ حتى لا
نحرقك بالنار، ونلصقك بالجدار، ثم نحشيك كما الممبار!

ويبدو أن صوت حسنين الجمهوري ونبرته المسرحية قد أخافت مجدي، وجعلته لا
يأمن على نفسه وسط هؤلاء المجانين، فقام إلى الباب فتحه وولى الأدبار!

كان عادل يسير في الشارع بعد أن ترك شلة الأئس وغادر وهو في حالة انتشاء من
جلسة المزاج مع الرفاق. كانت خطواته غير منتظمة وقدماه تصطدمان ببعضهما،
فضحك وأدرك أنه مسطول تمامًا. مشى يغني في الطريق ويرفع صوته عاليًا، لكنه
بشكل مفاجئ شعر بتقلصات في معدته مع إحساس بالغثيان، ثم لم يلبث أن اندفع
نحو سلة مهملات وأفرغ معدته مع انقباضات متتالية أحس معها أن روحه تنسحب.
بعد ذلك جلس على الرصيف متعبًا وقد غادرته حالة السُّطَل، لكن ما زال بعض
الانتشاء موجودًا. لم يشعر مع هذه الشلة بالغبرة، وأدرك أنه بالغ بينه وبين نفسه في
النظر السلبي نحوهم.. إنهم مثله مطحونون يحملون أحلامًا وآمالًا يبدو أنها لن
تتحقق، وإذا كان على سلوكهم المعوج واتجاهاتهم الجانحة فَمَن من الناس كامل؟
جاء على باله أبيات للشعر يحفظها من زمان للشاعر بشار بن برد تقول:

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه

فَعَشْ واحدًا أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرةً ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه؟

معرفة هؤلاء الشباب مسلية ولطيفة، أما العيش معهم فشيء آخر. لقد قضى
بصحبتهم عدة شهور عانى فيها من افتقاده للخصوصية التي يحرص عليها كل

الحرص.. لقد كان حلمه أن يستطيع ارتداء بيجامة في المساء والنوم بها مثل البشر، لكن كانت هناك الخشية المتبادلة بينهم جميعاً من إمكانية أن يتعرض النائم لسرقة محفظته وماله إذا ما علّق ملابسه على الشماعة، وكان كل واحد ينام بينظونه الجينز، ويخفي ما يعز عليه أسفل الثياب.. كان الوضع مزعجاً للغاية، ولم يكن يستطيع حتى أن يحضر حقيبته إلى الشقة، لكن كان يذهب إليها في محطة القطار ويأخذ منها ما يريد من ملابس ثم يعيدها إلى الخزانة؛ لذلك فإن حصوله على غرفة بحمام وبها دولاب للملابس هو نعمة يسأل الله أن يديمها.

صحيفة السفير 29 يناير 1981

- قمة الطائف: قرار من خمس نقاط حول لبنان
- تجديد المطالبة بتنفيذ مقررات الرياض والقاهرة والعمل وضع إستراتيجية مشتركة
- الدول الإسلامية تتعهد بتحرير القدس وترسل وفد وساطة إلى طهران وبغداد
- عرفات: أوروبا تراجعت عن بيان البندقية وبرنامج حزب العمل ينص على إبادة الفلسطينيين
- نص كلمة الرئيس إيلياس سركيس

ثامناً

(1)

كان التدهور المتلاحق لشخصية هانز أورليش قد أصبح يخيف ماجدة كثيراً. صحيح أنه لم يُظهر شهامة أو نبلاً من أي نوع قبل ذلك، لكنه مع هذا كان قادراً على ضبط مقادير الفجور والعدوانية، لكن يبدو أن اعتياده المخدرات البيضاء قد حوَّله إلى كائن غريب، ومن فضل الأقدار أن اهتمامه بماجدة وبيته في تابور ستراشه كاد أن يتلاشى. كان يحضر كل عدة أيام ليقضي بعض ساعة ثم يغادر، وفي المرة الأخيرة عندما حضر لم يفعل شيئاً سوى أنه ظل يضحك وهو يتجول بالشقة دون سبب، وكانت ماجدة تنظر نحوه في فزع وهو يبادلها النظر وترتفع ضحكاته التي لا شك وصلت إلى الجيران! بعد نزوله ظلت ماجدة تبكي وهي تتضرع إلى الله أن يضع حداً لما هي فيه، ومع ذلك كانت تشعر بالارتياح؛ لأن نادية بحكم الدراسة والعمل أصبحت تقريباً لا تلتقيه. في هذا المساء حضرت نادية من الجامعة وأخبرت أمها برغبتها في اصطحابها للخارج لتلتقي عادل الذي حدَّثتها عنه كثيراً. ومن الواضح أن ماجدة أبدت ترحيباً بفكرة ارتباط ابنتها بأحد الشباب؛ حتى يكون انتقالها لبيته بعد الزواج فيه الخلاص من عبودية أورليش.. وطبيعي أن نادية لم تخبر أمها بوضع عادل الحرج والهش في النمسا؛ حتى لا تبدد طمأنينتها!

أنهى عادل مبارياته وقام بتغيير ثيابه في حمام المقهى، وترك الثياب الأخرى في الدولاب الصغير الذي استأجره من المقهى وأصبح يضع فيه بعض الملابس والأدوات والكتب؛ نظراً للوقت الطويل الذي أصبح يقضيه هناك. لقد أحدث الشطرنج نقلة في مسار أيامه؛ فلم يعد يمنح التسكع وقتاً يُذكر وصار يقضي الوقت في دراسة الأدوار أو الجلوس في حلقات مع

اللاعبين الذين كثيرًا ما احتكموا إليه لفك الاشتباك في دور افتراضي.. ومع هذا فقد اعتاد أن يخرج من المقهى ويعرج على نادبة في البار كل يوم مهما كان جدولته مشحونًا؛ فقط ليتطلع إلى وجهها.. كان هذا الوجه يمنحه اهتزازة قلب يحتاج إليها؛ لأنها تُشعره بالحياة. كان يشير إليها من الباب فتخف إليه سريعًا وتلتقي به على الرصيف فينظر إلى عينيها ويلثم يدها بعد أن يقول: هذا زادي جئت لأحصل عليه.. وكانت نادبة تنتظر هذه الدقائق لتطبق عليه وتغيب في حضنه، ثم تودعه بقبلة على شفتيه قبل أن تستدير عائدة إلى عملها.

ارتدى عادل الطاقم الجديد الذي اشتراه صباح اليوم حتى يكون في صورة طيبة في أثناء لقائه بالسيدة ماجدة للمرة الأولى. لقد كانت «البهدلة» والإهمال في الثياب هي طابع جمعهم كله.. كل أصدقائه ورفاقه الذين شاركوه النوم على الرصيف كما زاملوه في سكنى الغرف الوضيعة، كانت ثياب الخروج بالنسبة لهم هي ثياب العمل، وهي نفسها ثياب النوم! الحياة الضيقة الصعبة لم تترك لهم متسعًا للغسيل الدوري للملابس أو كيها. صحيح أن ظروفه تحسنت منذ اتخذ لنفسه سكنًا خاصًا، ومع ذلك كان يهتم فقط بالاستحمام ونظافة الثياب على حساب نوعيتها وشياكتها وملائمتها للذوق. في الفترة الأخيرة بعد أن علا نجمه في المقهى كونه لاعبًا خطيرًا، ووجد طريقًا لكسب المال من خلال الشطرنج- أصبح يقف أمام المرأة قبل النزول من البيت، وهو ما لم يكن يهتم به لشهور طويلة. من الغريب أن مهام شاقة مثل طبخ الطعام وغسل وتجهيز الملابس وفرش السرير بملاءة نظيفة كان يحصل عليها عادل في بيته بمصر ومثله بقية الرفاق ببساطة، ودون أن ينظروا بتقدير إلى الأم أو الأخت أو الزوجة التي تؤديها. اليوم في الغربية ومع شح المال وعسر الحياة أصبحت هذه الأشياء تُعد ترفًا ما بعده ترف!

هرع إلى مطعم المهراجا بشارع فافوريتين بالحي العاشر الذي اختاره ليكون محلاً لدعوة نادبة وأمها على العشاء. كان قد سأل نادبة إذا كانت تحب الطعام الهندي، فأخبرته أنها لا تعرفه وإن كانت ترحب بالتجربة. وصل قبلهما واتخذ طاولة مجاورة للنافذة تطل على الشارع، ولما أبصرهما خف إلى استقبالهما وسلم على نادبة التي احتضنته مبدية نحوه

قدرًا غامرًا من العاطفة، بينما كانت الأم تنظر إلى ابنتها في دهشة مشوبة بالسرور. لمح عادل عينيّ الأم، فتشجع وقام بتقبيل وجنتيها مُرحّبًا.

جلست الأم بجانبه فنظر إليها ولم يتمالك أن يقول لنادية: ماما جمالها غير معقول.. لقد كنت أتساءل عن سر حلاوتك والآن انكشف السر. ردت نادية: لقد كانت أجمل فتيات بيروت، واليوم صارت أجمل امرأة في فيينا. أحست ماجدة بالإطراء، فاحمر وجهها وهي تهمس: إذا كان ما تقولان يتضمن بعض الصحة، فإن هذا قد يكون دليلاً على أن الحياة مهما قست فإنها تترك لنا ما يجعلنا قادرين على احتمالها وآملين في بعض جوائزها.

قال عادل وهو ينظر إلى ماجدة في امتنان: لا أدري كيف أشكرك على شريط فيروز، وخصوصًا «آه لو تدري بحالي».. إنني أستمع إليها تقريبًا كل يوم، وأتطلع إلى سماعها بمصاحبة الفرقة الموسيقية مع التوزيع، فهل تعرفين إذا كانت فيروز قد غنتها في حفلة أو لا؟

قالت ماجدة: إن سعادتني بك كبيرة، فأنت أول من يشاركني هنا حب الغناء إلى جانب نادية طبعًا، وأنا أفهم لهفتك على سماع الأغاني مكتملة، لكنني في الحقيقة لا أدري، وأغلب الظن أن هذه الألحان لم يتم تقديمها للجمهور بعد، ولكن ما أخبرتني به ابنة عمي في رسالتها أن السنباطي قام بتلحين ثلاث قصائد من أجل فيروز، اثنتان منهما شعر جوزيف حرب، وهما: «بيني وبينك»، و«أمشي إليك»، والثالثة «آه لو تدري بحالي» شعر عبد الوهاب محمد الشاعر الغنائي المعروف. قاطعها عادل: ولكن عبد الوهاب محمد لم يكتب أغاني بالفصحى من قبل. أو مات برأسها وهي تشرب بعض الماء: نعم.. أعرف، وأحب كلمات أغانيه جدًّا، لكن يبدو أنها تجربة فريدة له مع السنباطي.. هذا الشريط عبارة عن تجميعة لعدة لقاءات للمطربة مع الملحن، وعندما وصلني من بنت عمي أرسلت لك نسخة منه. هنا انبرت نادية قائلة: لئن كانت قصيدة «آه لو تدري بحالي» هي التي خطفت قلبك يا عادل فإنني أغرمت كثيرًا بـ«أمشي إليك»؛ خاصة حين تقول فيروز:

قد أقبل الليل وحدي أنت لست معي

ليلان ليلى فقل لي كيف أحتلمُ

أنا القتيــــــــــــة والعشاقِ قصّتهم

أشهى الذي جاء فيها أنهم قُتلوا

علّقت ماجدة ضاحكة: من الممكن أن تكون نادية قد انحازت لقصيدة الشاعر اللبناني، بينما أعجبت أنت بالشاعر المصري. رد عادل: أنت تمزحين قطعاً؛ لأنني متيم بالقصائد الثلاث، لكن ما يثير دهشتي هو الكيفية التي حصلت بها قريبتك على نسخة من البروفة أو جلسة العمل بين فيروز والسنباطي.. أنا أعرف أن السنباطي لم يوافق أبداً على تسجيل جلسات العمل مع أم كلثوم، فلماذا سمح بتسجيل هذه مع فيروز؟! وكيف تسرب الشريط قبل أن تُقدّمه للإذاعة أو تغنيه في حفلة؟!

ضحكت ماجدة قائلة: إن قريبتي هذه سرها باتع وتعرف أناً في كواليس بيروت وأضابيرها الخلفية يأتون لها بلبن العصفورا!

أمسك عادل بكفها وقبّلها قائلاً: لم أقبل يد أمي منذ حوالي سنتين والآن أشعر أنني وسط أسرتي.. الفرق بينك وبين أمي أنك أصغر سنًا، ولا ترتدين الحجاب الذي سرى بين النساء عندنا في مصر في السنوات الأخيرة.

عقبت نادية قائلة: ربما لو كنا في لبنان لاعترانا ما اعترى الحياة لديكم من تغيير، ومع ذلك هل لديك تحفظات على هذه الظاهرة؟

رد عادل: ليس الأمر متعلقًا بتحفظات، وإنما هي الدهشة التي لا نستطيع دفعها ونحن نرى الحياة التي اعتدناها تنقلب أمام أعيننا بالتدرّج. لقد خرجتُ إلى الحياة فوجدتُ أمي وخالاتي وعماتي يرتدين الفساتين الحلوة الملونة والتنورات الواصلة للركبة وأحيانًا فوق الركبة، وكذلك كانت النساء في المجتمع كله. فجأة تظهر المدفعية الثقيلة تقصف عقول الناس وتقول لهم إن حياتهم البسيطة التي لم يكونوا يؤذون فيها أحدًا كانت هي الضلال

بعينه.. إنني في واقع الحال لست مع أو ضد، بشرط أن تخلو الـ«مع» من الزيف، وتخلو الـ«ضد» من الزيف أيضًا، أما ما يحدث الآن فهو أنهم دفعوا الناس للسخط على الحياة المطمئنة التي كانت لهم، وذلك بفعل الشيوخ والدعاة الذين ألقوا في روعهم أنهم لم يكونوا مسلمين طوال حياتهم، وأن الأوان قد آن ليتعرفوا الإسلام الحقيقي! عَقَّبَت ماجدة: وهل تعرّفوه؟

قال عادل: المؤسف أنهم لم يُقدِّموا للناس ما يحببهم في العلم والعمل والإتقان والتفوق، وإنما أفهموهم أن الجنة محجوزة لهم لو وضعوا الطرحة فوق الرأس، كما أن الدنيا أيضًا يمكن أن تكون من نصيبهم؛ لأن الله قد كلف الخواجة الأجنبي أن يدرس ويتعلم ويكد ويخترع حتى يفوز المسلمون بنتائج جهده وهم قعود باعتبارهم خير أمة أُخرجت للناس!

ضحكت الأم وشاركتها نادية الضحك، ثم علّقت قائلة: هل تعلم أن ما نتحدث عنه كان جزءًا من محاضرة استمعنا إليها في الجامعة منذ فترة قريبة، وكان للباحث الذي يحاضرنا اجتهاد لا أدري رأيك فيه. تساءل عادل في فضول: ماذا قال؟ أجابت نادية: لقد رأى أن تأصيل هذه الظاهرة يعود إلى السماح للرجل العربي قديمًا بامتلاك واقتناء أعداد غير محدودة من الإماء والجواري والسبايا.. وطبعًا لم ينس الأستاذ أن يضيف أن غير العرب أيضًا كانوا يفعلون المثل، لكن التمييز الذي طبع الرجل العربي هو أنه استشعر الخطر على زوجته أو زوجاته؛ نتيجة أنه سمح لنفسه بممارسة الجنس مع الكثير من النساء بشكل رأى أنه لا يتعارض مع الدين.. وهنا وجدنا الغيرة تدب في قلوب الزوجات وهو أمر طبيعي، صحيح أن الزوجات اعتقدن أن ممارسة رجالهن للجنس مع أعداد كبيرة من النساء لا تناقض الدين ولا تُعد زنا.. ومع ذلك فلم يستطع أحد مع ظروف كهذه أن يتمسك كل امرأة تنهش الغيرة قلبها بالعفاف المفترض في المرأة الحرة، ومن هنا فقد شعر الرجل بالخطر ووجد الحل في الحجاب الذي يميز الحرائر عن الإماء والسبايا، وهذا التمييز من شأنه أن يجعل حركاتها وسكناتها تحت المجهر.. هذا رأى الأستاذ ولا أدري إذا كنت تتفق معه أو تعارضه. كان عادل يستمع في اهتمام، بينما كانت ماجدة تنظر بفخر نحو ابنتها؛ ذلك أنها لم تتعود أن تستمع إليها متحدثة في أمور بهذه الجدية والعمق. قال عادل: مثل

هذا الرأي قرأته لمفكرين مصريين لتفسير حجاب النساء الذين ذهب رجالهم للعمل بالخليج عقب حرب أكتوبر والطفرة في أسعار النفط.. كان الرجل مضطراً للابتعاد عن زوجته طويلاً؛ لذلك فقد رحب بفكرة التدين الجديد والحجاب الذي قد يكون عاملاً في لجم متطلبات الأئمة في غياب رجلها، وأعتقد أن رأي أستاذك جدير بالنظر؛ رغم أنك ستجدين في بلادنا من يستنكر هذا الكلام ويعزو الالتزام بالحجاب إلى الأوامر الربانية؛ بصرف النظر عن الخلفيات التاريخية والاجتماعية.

كانت ماجدة تستمع وذهنها سارح في لبنان، ومن ثم فقد علقت في أسى: كأن مجتمعاتنا ينقصها أسباب الشقاق.. لقد أحرقوا لبنان لأسباب مختلفة عما نتحدث عنه، لكن في النهاية فإن نفس المياه العكرة التي شقت ما بين الماروني والشيوعي والسني والفلسطيني في لبنان هي ما تروي التربة لديكم الآن.

ضحكت نادية مغيرة دفعة الحديث: بمناسبة حديثك عن التربة يا أستاذة ماجدة.. هل تعلمين ما قالته «مارجريت ميد» وهي أستاذة أنثروبولوجي أمريكية بعد أن قامت بالنهب في التربة في جزيرة ساموا بالمحيط الهادي؟ ردت ماجدة: ماذا قالت يا قلبي؟ نظرت نادية إلى عادل متسائلة: ماذا تتصور أن تكون العلامات الدالة على وجود حضارة سابقة في أرض مهجورة خالية من السكان؟ قال عادل بعد تفكير: رغم أنني لست متخصصاً في الأنثروبولوجي مثلك؛ فإنه يمكن القول إن آثار خطاف سنارة الصيد أو الأواني الفخارية أو الطواحين الحجرية مثلاً قد تدل على وجود حضارة في السابق. لمعت عينا نادية وهي تقول في حماس: كل هذا صحيح، لكن الدكتورة مارجريت ميد التي تُوفيت منذ عامين لها رأي أبسط من هذا كله.. إنها تقول إن أول علامة على نشأة الحضارة في الثقافات القديمة كانت «انكسار عظمة الفخذ، ومن ثم شفائها». رفع عادل حاجبيه دهشة وتساءلت ماجدة: كيف هذا؟ أوضحت نادية: طبقاً لمارجريت ميد فإنك إذا كنت تعيش في المملكة الحيوانية فإن انكسار ساقك يؤدي إلى موتك؛ لأنه لن يتسنى لك الهرب من الخطر أو الوصول إلى النهر لتشرب، أو الصيد للبحث عن الطعام، ومن ثم تتحول إلى فريسة سهلة للحيوانات والطيور المفترسة المتربصة بك.. لا يوجد حيوان يمكنه النجاة بحياته بعد انكسار ساقه..

إن شفاء عظمة فخذ مكسورة هو دليل على أن أحدهم قد كرس الوقت اللازم للعناية بالشخص المصاب ولتضميد جرحه ولحملة إلى مكان آمن، ثم ظل يهتم به حتى اكتملت عملية التعافي؛ بناءً عليه قالت «ميد» إن الحضارة تبدأ حينما يقرر أحدهم مساعدة شخص آخر ليتجاوز محنته.

مالت ماجدة على ابنتها تحتضنها بفرحة، وقال عادل: يا له من تعريف! إن دنيا الأثروبولوجي هذه عميقة وتحتاج إلى صيادي لآلى وأظنك منهم يا نادية. ردت نادية: طبعًا يا أخ عفركوش، إن اكتشافي لك يؤكد هذه الحقيقة!

كانت النادلة قد حضرت أكثر من مرة وعندما وجدت الحوار محتدمًا كانت تتراجع، لكنها الآن تسألهم عما اختاروه من قائمة الطعام. قال عادل لضيفتيه: إذا كانت لكما اختيارات معينة فتفضلًا، وإلا فاتركاني أختار لكما. تركت نادية وأمها الخيار لعادل فملاً لهما الطاولة بمختلف الأطباق الهندية من كاداي ومورج وبرياني وماسالا وجوشت. كانت المكاسب التي أخذ عادل يحققها من لعب الشطرنج قد ملأت جيوبه بالمال، فأقبل على المطاعم الفاخرة، واشترى الكثير من الملابس، واليوم أراد أن يحتفل بالست ماجدة؛ فبالغ في الكرم وطلب من النادلة بعد انتهاء العشاء أن تقوم بلف المتبقي وقد كان كثيرًا، وحمله معه حتى باب البيت في تابور ستراشه وهو يوصلهم.

كان غياب أورليش يطمئن ماجدة أن بإمكانها دعوة عادل إلى فنجان قهوة بالمنزل. تردد عادل؛ لأنه يعلم كل شيء عن الرجل من نادية ويخشى أن عودته المفاجئة قد تُسبب لهم جميعًا حرجًا. لم تقبل ماجدة تردده، كما أن نادية قد اكتسبت جرأة عندما أحست أنها لم تعد في مهب الريح، وأن معها رجل لأول مرة منذ سنوات تشعر أنه نصف أهلها، وأنه برغم ظروفه المضطربة؛ فإنه يستطيع أن يكون الحامي والمغيث.

سار عادل بينهما في الشارع وكل منهما تتأبط ذراعه من اليمين واليسار، وانطلق يندندن بصوت خفيض؛ فتبعته ماجدة، ثم لحقت بهما نادية، وأخذ ثلاثتهم يرددون: آه لو تدري بحالي.. أترى كنت تبالي أم تغالي. هل سيرضيك انشغالي أم سيفريك اشتغالي بالتعالي؟

(2)

ما كاد طه يأتي من الخارج حتى تلقفه حسنين من على الباب، وأمسك به ليقوده إلى الخارج من جديد.

• مهلاً يا ابن العبيطة.. إلى أين تسحبني؟ تساءل طه وهو يقاوم الإنجرار. قال حسنين في جدية: أريدك يا طه في أمر مهم ولن يفlech الحديث هنا. بدا أن طه سيتهاوى من شدة الضعف عندما جذبه حسنين بقوة دون قصد.

سار معه طه وهو يردد اللعنات في حقه على امتداد السلم حتى أصبحا في الشارع.

سعل طه بشدة حتى كادت أحشاؤه تخرج، ثم نظر نحو حسنين قائلاً: والآن ماذا تريد يا صعيدي؟

- مالك يا طه؟ يبدو عليك الشحوب؟
- لا داعي لأن تزيد من خوفي على نفسي.. أنا عائد الآن من المستشفى حيث أجريت كشوفات وتحاليل قضيت معها اليوم بطوله.. ويبدو أن المال الذي كنت أدخره لأشق حياتي به بعد العودة سأنفقه هنا على العلاج.
- والنتيجة؟
- النتيجة بعد عدة أيام.. والآن ما حكايته؟
- قل لي يا طه، من هذا الرجل الذي عرّفني به؟
- ما هذه النعمة؟ هل تبطرت على النعمة وتريد أن تستبدله بشخص آخر؟
- ليس هذا ما أقصد، إنما أريد أن أعرف حقيقة شخصية هذا الرجل.
- في حدود ما أعرف هو مجرد شخص منحط اسمه هانز يحب الشذوذ ولا يبخل بالمال على من يكيفه!
- أظن أنه أكثر من هذا.

- ماذا تقصد بأكثر من هذا؟
- يبدو أنه شخصية مهمة.. لعن الله الجهل باللغات الذي يجعل الواحد في هذا البلد يعيش مثل الحمار.. لقد رأيت منه علامات دلّني على أنه شخصية مهمة.. هل تعرف؟ إن هذا الرجل يمتلك شاليه أعلى الجبل في منطقة راقية جدًا تحوطها الخضرة ومزارع الفراولة، ولقد ذهبت معه إلى هذا المكان مرات عديدة، وفي كل مرة كنت أجد رجال البوليس الذين قد يتصادف وجودهم يقفون له احترامًا ويتعاملون معه بتقدير بالغ كما لو كان أحد المسؤولين؛ لهذا فقد أحببت أن أعرف منك أصله وفصله.
- أنا لا أعرف أصله أو فصله، ومعرفتي به لا تتجاوز مرات سريعة على الطائر في الحدائق بين الأغصان، لكنني لم أتعمق في العلاقة به، كما أن موضوع الشاليه الجبلي هذا لا أعرفه، ويبدو أنه قد تعلّق بك وخصك بالدخول إلى صومعته الخاصة.. مبروك عليك يا حسنين، أليس هذا ما كنت تحلم به؟
- للأسف لا تسير الأمور على النحو الذي تظنه.. لقد أصبحت أخشاه وأتردد في صحبته لولا أن إصراره يتزايد، وعزمه الذي يظهر في عينيه الحادثين يجعلني أخاف من رفض الذهاب معه.. هل تصدق يا طه أنه يعرف عني كل شيء، وعنك وعن كل الشباب معنا في الشقة؟! لقد كنت تقول له أن اسمك «أشرف»؛ حتى لا يتعرف شخصيتك الحقيقية، لكنه يعرف أنك «طه»، ويعرف كل البيانات التي كتبتها في الاستمارة التي ملأتها لتتقدم بطلب تأشيرة للنمسا، وأعتقد أنه يعمل في المخابرات أو شيء من هذا القبيل.
- وماذا يضيرك أو يضيرني في كل هذا؟ ألا تريد أن تفرغ طاقتك الجنسية في أي دابة.. هاهي الدابة بين يديك.. ما ضرك لو كانت دابة معروفة وذات نفوذ؟
- يا طه يا أخي، يا طه يا حبيبي.. أرجوك افهمني.. أنا لم أعد سعيدًا بمعرفته.. لقد كنت أمل في لقاءات سريعة أفاخر بها الشباب في بلدنا عندما أرجع وأحكي لهم عن فتوحاتي في بلاد الغرب، لكنني لم أتصور أن هذا الرجل سيتعلق بي إلى هذا الحد.. إنه لا يريدني أن أتركه أبدًا، ويريدني أن أكون له وحده.

- وهل أنت على علاقة بأحد غيره؟
- ليس هذا ما أقصده، إنما أقصد أنه يريد أن نكون مثل زوج وزوجة!
- أطلق طه ضحكة صاروخية وهو يقول: اشرب يا حسنين.. أليس هذا ما جريت وراءه وطاردتني من أجله لشهور.. ألف مبروك يا رجل، وأرجوك أن تدعوني عند عقد القران حتى أكون الإشبين الخاص بالعريس!
- يا طه يا بن عمي، الأمر جد لا هزل فيه.. الرجل لم يعد يكتفي بدور الأنثى، إنما يريد أن نتبادل الأدوار، وفي المرة الأخيرة قاومته بشدة؛ فهددني بالمسدس وأفلت منه بأعجوبة!
- يا نهار أسود ومنيّل! هل وصل الموضوع لهذا الحد؟
- نعم، ولا أدري كيف أهرب منه؟ إنه يعطيني الحشيش الذي تتعاطونه معي، لكنه يتناول كل أنواع المخدرات والخمور ويظل في حالة انتشاء دائمة.. قل لي ما العمل؟
- لا أدري، لكن دعنا ننتظر حتى يعود محمد أبو الفتوح ونأخذ رأيه، فالموضوع أصبح مخيفًا.
- موافق، لكن نأخذ رأي محمد وحده، لا أريد فضائح وحفلات سخرية من جانب بقية الأوباش.
- حفلات سخرية؟ نحن الذين جلبنا لنفسينا هذا. هل تذكر؟ لقد كنتُ أنا الداعر الوحيد بينكم، لكنك امتلكت عزيمة الأبطال لتسجل اسمك معي في سجل الداعرين!

أخذت صحة طه في التدهور وأظهرت تحليلاته قصورًا في الكثير من وظائف جسمه، كما أخذ وزنه يتناقص وشهيته تضعف. ومع هذه العلامات فقد فشل الأطباء في تحديد اسم أو نوع المرض الذي أصابه. كان من الواضح أن إصابته فيروسية؛ حيث فشلت المضادات الحيوية في معالجته، وطلب منه الأطباء أن يرتاح قدر

الإمكان ويأخذ الأدوية المقوية للمناعة والمضادة للأكسدة التي وصفوها له، وحذروه من التعرض لنزلات البرد، مع تدفئة نفسه على الدوام.

في ذلك الوقت كانت فيرا قد أصبحت واحدة من سكان الشقة بعد أن استضافها سامي وأعلن تمسكه بها، لدرجة أنها كانت تخرج معه في الصباح وتظل إلى جانبه على الرصيف بينما يبيع الجرائد ثم تعود معه. وقد أدى وجودها الدائم إلى أن حسنين قد تحدّث إلى محمد أبو الفتوح مطالبًا إياه باقتضاء ثمن إقامتها معهم من سامي؛ باعتبارها لم تعد ضيفة وإنما صارت من أهل الدار.. وبرغم أن الفكرة قد أعجبت أبو الفتوح؛ فإنه تحفّظ على الأخذ بها إشفاقًا على سامي الذي يجمع الشلن فوق الشلن. كان محمد يرى أن الإصرار على تحصيل الإيجار عن الفتاة قد يدفع سامي للتخلص منها ووأد حبه على مذبح المال، وفضّل أن يتركه ينعم بأيام طيبة وهو الذي تخلو حياته مثلهم جميعًا من أسباب البهجة الحقيقية. العجيب بالنسبة لفيرا أن مظهرها قد تحسّن بعد أن اشترى سامي لها ثيابًا جديدة، وأصبحت زبونين عند الحمام العمومي يزورانه مرتين في الأسبوع، والأعجب أن مظهر سامي نفسه قد تغير وبدا في هيئة وسيمة لم يظن أحد أنه قد يبلغها. من المؤكد أن مشاعره نحو فيرا قد غيرته، وكان لافتًا أيضًا أن قدرة سامي على التفاهم بالألمانية قد تطورت بسبب ملازمته لصاحبه ليل نهار.. أما المفاجأة الكبرى فكانت الرحلة التي قاما بها معًا إلى مسقط رأسها في الجنوب النمساوي في قرية على مقربة من «كلاجنفورت»؛ حيث طلبت منه أن يتعرّف إلى أمها. لقد نجح سامي في بث الطمأنينة إلى نفسها؛ فاستراحت له وباحت بما كان يجهره عنها، ففهم أنها تركت قريتها بعد خلاف شديد مع والدتها التي ضبطتها تدخن المخدرات مع شباب من سلوفينيا كانوا قد استقروا بالقرية وكونوا عصابة ضموا إليها فيرا.. هددتها أمها بإبلاغ البوليس عنها، فتركت لها البيت وهربت إلى فيينا حيث كانت صيدًا سهلًا للشبيحة والقوادين، فدخلت معهم دنيا الكيف والإدمان وتعرضت للقمع وإساءة المعاملة.. وقد ظلت على هذه الحال شهورًا طويلة تنام بالشارع أحيانًا وعند أحد البلطجية أحيانًا أخرى، حتى التقاها

سامي وكانت في حالة مزرية فأخذها معه إلى شقة شارع السلزاخ. ويبدو أن حبه لهذه الفتاة قد جعله يشرع في تغيير مسار حياته؛ لأنه قرر أن ينسى الجامعة ويبحث الاستقرار في النمسا بشكل نهائي. كان قد قرر أن يفرقع عامًا دراسيًا واحدًا حتى يقوم بادخار قرشين مثله في ذلك مثل محمد أبو الفتوح وحسنين، أما الآن فلم يعد هناك داعٍ للعودة من الأساس. إن فيرا نمساوية ولو تزوجها فسوف يحصل على إقامة تتبعها الجنسية ويصير مواطنًا أوروبيًا.. ما أجمل الفكرة! وإذا كان على سلوكها وتشردها؛ فالحال من بعضه وهي ليست أسوأ منه أو من أي واحد من رفاق المسكن، بالعكس لقد أحس أنها تشبهه وأنها معًا قد يتجاوزان صعاب الحياة. وما جعل الآمال ترتفع عند سامي أن أمها طلبت منهما أن يقيما معها ويفكرا في العمل معًا في النشاط الزراعي بالقرية التي كان أهلها يزرعون الفواكه والغلال، ويمتلكون المناحل ويعمل بعضهم بصناعة المرببات وتعبئة عسل النحل. ورغم أن فيرا لم تتحمس للأمر نتيجة ميلها لحياة المدن؛ فإن سامي قد سعد بالاقتراح بعد أن داعبت خياله فكرة الحياة بالريف النمساوي في بيت هو صغير حقًا، لكنه نظيف وبه حديقة.. كل هذا كان بمثابة تحوُّل درامي لم يكن يخطر على باله أبدًا. إنه سيسعى لإقناع فتاته باقتراح أمها ولسوف يأخذها بالتدرج؛ حتى لا تضيق به وتفر منه كما فعلت مع أمها. لقد رأى أن تفضيلها العيش في شقة هؤلاء المغتربين القذرة بفيينا على حياتها بالريف في بيت هادئ هو ضرب من الجنون، لكن ما دام يخطط لربط مستقبله وإقامته بالنمسا بها فليقبل جنونها ويعمل على تذويبه بالتدرج.

ولأن فيرا لم تكن تعمل فقد طلب منها سامي أن تبقى أحيانًا إلى جوار طه في أثناء ملازمته للفراش؛ حتى تُحضّر له الطعام وتعطيه الأدوية في مواعيدها فقامت بالدور على نحو طيب.

(3)

كانت نادية منهمكة في العمل في هذه الليلة والبار يعج بالرواد؛ لوجود مباراة مهمة في كرة القدم، وكان اللاعب «كرانكل» يشارك في المباراة مع «برشلونة» ناديه الجديد الذي انتقل إليه من «رابيد فيينا». وبسبب الإقبال المُتَوَقَّع على مشاهدة المباراة؛ فقد أحضر راينر صاحب مقهى وبار دولفين جهاز تلفزيون جديدًا، علاوة على الجهاز الموجود. وسط انهماك نادية في تلبية طلبات الزبائن الذين كانوا يطلبون البيرة بكميات كبيرة، نظرت نادية أمامها فجأة فأبصرت محمد أبو الفتوح وعلى شفثيه ابتسامة عريضة يجلس على أحد الكراسي العالية على البار مباشرةً. الضوء الضعيف في البار لم يكن يساعد على قراءة الوجوه بسرعة؛ لهذا فقد احتاجت لعدة ثوانٍ حتى تتذكر أن هذا صديق عادل الذي أحضره معه منذ فترة للقائها هي وأصدقائها. منحته ابتسامة سريعة، بينما ترد على طلب لأحد الزبائن، وكانت تعمل بكلتا يديها وإلى جوارها زميلتها إيفا، وقد أدى صوت المباراة العالي وصخب الجمهور داخل المحل إلى صعوبة استماع الناس لبعضها. رفع محمد صوته حتى تسمعه نادية وطلب بيرة، فقدَّمتها له سريعًا وهي ما زالت غير فاهمة سبب قدومه الليلة! ومع اندهاشها فلم تكن لديها فرصة وسط هذا الزحام لتسأله عن سبب الزيارة، وأين عادل؟ ولماذا لم يحضر معه؟ وهل هو هنا بالصدفة أو أتى يحمل رسالة؟ لقد تشتت ذهنها وأصبحت عصبية؛ نتيجة ظهوره أمامها بهذا الشكل.

دخلت المخزن لتحضر المزيد من صناديق البيرة، وعندما خرجت كان محمد قد اختفى. لم تشغل بالها به بعد ذلك، فمن الواضح أنه كان قريبًا فدخل ليأخذ مشروبًا ثم انصرف.

انتهت المباراة وخرج الجمهور ثم هدأ البار، وعند الحادية عشرة تنفست الصعداء، وجلست مع إيفا تحصيان البقشيش، وكانت الحصيلة طيبة، فامتلات حقيبتها الصغيرة بالشلنات في واقعة لا تتكرر إلا مرة كل عدة أسابيع في أثناء المباريات الكبيرة.

عند محطة الترام بالخارج فوجئت بمحمد أبو الفتوح واقفًا وكأنه ينتظرها. رفعت حاجبيها دهشة، وقالت له: ما هذه الصدفة الطيبة؟ لقد نظرت في الزحام فوجدتك قد اختفيت.. لماذا لم يأت معك عادل الليلة؟ هل هو في تولن الآن؟ إنني أسألك لأنني لم أره منذ يومين. فرك محمد يديه وقال مبتسمًا: إنني لم أر عادل اليوم وأظنه كان مشغولاً في أكثر من مباراة شطرنج بمقهى جرابين. أبدت نادية الدهشة من أن يترك محمد صديقه في جرابين ثم يأتي إلى بار دولفين ليتناول الشراب. ارتبك محمد قليلاً، ثم قال: في الحقيقة لقد جئت لأراك وأتحدث إليك. تحولت دهشتها إلى شك فسألته في خوف: هل عادل بخير؟ قل وأصدقني القول.. لا تُخفِ عني شيئاً.. أرجوك صارحني.. ماذا حدث له؟ كانت تتحدث والدموع تتجمع في عينيها خوفاً من أن يكون مكروهاً قد ألمّ به. قال محمد يهدئ من روعها: أقسم بالله أن عادل بخير وليس هناك ما يسوء. وجدت نفسها تقول في عصبية: ما الحكاية إذن؟ ولماذا أنت هنا؟ قال محمد بصوت تعلوه رجفة: جئت لأراك.

• تراني؟ ولماذا تراني؟

• لقد ظننت أننا أصبحنا صديقين بعد لقائي بكم في المقهى المجاور للجامعة، لعلك تذكرين.. وأيضاً من طول حديث عادل عنك أصبحت أحس أنك ضمن أصدقائي المقربين، ولهذا سمحت لنفسني أن أمر لأسلم عليك.

نظرت إليه في شك، ومع ذلك أرادت أن تنهي الموقف، فقالت: على العموم أهلاً بك، فرصة سعيدة وإن شاء الله نلتقي قريباً.. سأحاول أن أتفق مع عادل على لقاء جماعي آخر. قالتها قبل أن تصعد إلى الترام الذي كان قد وصل. ورغم أنها رفعت يدها لمحمد تلوح له منصرفاً، فقد فوجئت به يصعد وراءها، ثم يمضي فيجلس إلى جوارها. نظرت نحوه في استنكار قائلة: في حدود علمي أنك تسكن في شارع سلزاخ بالحي العشرين، وهذا الترام متجه نحو تابور شتراسه في طريقه للبراتر. أخذ محمد يهز قدميه في توتر قبل أن يقول: ألم نتفق أننا أصدقاء؟ ما المشكلة في أن نتبادل

الحديث بينما أقوم بتوصيلك حتى لا تعودين وحدك في هذا الوقت المتأخر من الليل والشوارع خالية من المارة.

بدأت نادية تشعر بالقلق وأحست أن ما يحدث غير طبيعي.. هل جُنَّ هذا الشاب وأصبح يتصور أنها كالكرة يمكن أن يتقاذفها عادل وأصدقاؤه؟! سألته مستفسرة: هل يعرف عادل أنك ستأتي لتعرض توصيلي إلى البيت؟ رد في لهجة مضطربة: لا، لا يعرف؛ لأنني لم أره، وأعتقد أنني لا أحتاج إلى إذنه حتى أراك ما دمنا قد أصبحنا صديقين!

ألجمها رده فزادت خشيتها وصمتت عن الكلام ريثما تفكر فيما يحدث أمامها، لكنه مضى يقول: ومن الطبيعي أنك تعرفين أن الأمور هنا تختلف عنها في بلادنا، بدليل أننا نفعل هنا أشياء لا نجرؤ على عملها في مصر أو لبنان.

- عمّ تتحدث؟ أشياء مثل ماذا؟
- مثل أن تمنحي عادل قبلات عند اللقاء وعند الوداع.. هذا شيء لا تفعلينه إلا في أوروبا.

كان وقع كلماته عليها باعثاً على الخوف والحيرة معاً، فهزت رأسها كأنما تتأكد أن هذا الحوار يحدث فعلاً قبل أن ترد: وما شأنك أنت إذا كنت أفعل هذا أو لا أفعله؟ مَنْ أنت لتحاسبني أو تحدثني في شئوني الخاصة؟

- أقسم أنني لا أحاسبك.. أنا فقط أدير محادثة ودية معك.. ألسنا أصدقاء؟
- ردت في لهجة جافة وقد علا صوتها: لا يا سيد محمد، لسنا أصدقاء ولا أريد أن أراك مرة أخرى.

- هل قلت أو فعلت ما يغضبك؟

- كل تصرفاتك مريبة.. أنا لا أفهم عرض الصداقة الليلي الذي تُقدِّمه لي! ألا تعرف أنني مرتبطة بصديقك؟ كيف تأتي من ورائه لتراني وتحديثني بحديثك هذا غير المتزن؟ قالت هذا ثم أفلتت منها ضحكة تهكمية: يا خسارة! لو سمعتَ كيف يتحدث عادل عنك وعرفت حجم المحبة التي يُكِنها لك لما تصرفت هكذا مع امرأته.

قال في عصبية: أنتما لم تتزوجا، فكيف تكونين امرأته؟

- أرايت؟ أرايت كيف يكون الاختلال؟ أنا في الحقيقة لا أدري كيف حكم عليك عادل؟! وكيف صنَّفك على أنك أعقل وأخلص أصدقائه؟!
 - أنا فعلاً مخلص لعادل، ولو لم أكن أحبه هل كنت أفكر في مشاركته ارتكاب جريمة قتل ضد رجل لا أعرفه؟
 - ماذا؟ ماذا تقول؟ لا شك أنك تهذي.. أي جريمة قتل؟
 - قتل زوج أمك الداعر.. لقد عرضتُ عليه أن نقتله حتى نخلصك منه، وأعتقد أن الصداقة هي أقل ثمن أحصل عليه منك!
 - يا لهول ما تقول! أنا لا أريد أن أسمع المزيد.. أنت مجنون لا ريب.

ولما كانت غرابة الليلة تأبى أن تنقضي فقد فاجأها محمد عندما رفع يده ومشى بها على شعرها، ثم هبط ولمس وجهها قائلاً: لماذا تنفرين مني؟ أنا إنسان طيب بقدر عادل. جمدت نادية في مكانها عاجزة عن الحركة ومثل أمامها تاريخ من الرعب والتوجس عايشته معظم حياتها.

في هذه اللحظة وصل الترام إلى محطتها فتوقف، ورأت الناس ينزلون فأفاقت من ذهولها واستنهضت كل الهمة دافعة يده بقوة بعيداً عن وجهها ولحقت بالنازلين، ثم هرعت مسرعة تعدو على الرصيف وجسمها يرتجف، وبعد أن ابتعدت ألقَت نظرة إلى الخلف خشية أن يأتي ورائها مرة أخرى، فلما لم تره أكملت المسير نحو البيت وهي ما زالت ترتعش يملؤها الحنق والخوف والأسى.

(4)

في الصباح الباكر خرجت نادية كالمعتاد، لكنها لم تذهب إلى الجامعة، وإنما شقت طريقها لمحطة «هوتبانهوف» وركبت القطار المتجه إلى تولن شتات. لم تستطع النوم بعد الموقف الجنوني الذي صادفته ليلة أمس مع محمد أبو الفتوح، ولم تفهم كيف سمح لنفسه أن يتعامل معها بهذه الطريقة! لقد استرخصها وتصرف معها على هذا الأساس.. من أين يستقي هؤلاء البشر أفكارهم عن الناس؟! وأي صداقة كان يأمل فيها؟! وهل من الصداقة أن تمد يدك بوقاحة إلى شعر ووجه فتاة تُعد في حكم زوجة أخيك؟ لقد مزج الملعون العفوية بالخبت بالابتزاز، كما حاول أن يُفسيح لنفسه مكاناً في حياتها عنوة ودون مبرر؛ فسبب لها ارتباكاً شديداً. من العجيب أنه تصرف وكأنها مدينة له ويتعين أن تسدد دينها صداقة! لا شك أنها حالة اختلال نفسي تجعل صاحبها لا يعي ما يفعل، ولا يتحسب لردود الفعل.. ألم يطف بخياله أنها ستخبر عادل؟ هل ظن أن بوسعه اقتسامها مع صديقه؟! على أي أساس بنى تصوراته هذه؟! إنها لم تتناسب معه، وفي المرة الوحيدة التي التقته كان لا يرفع عينيه عن مادلين وكل تركيزه معها.. ثرى هل خيبة أمله في أن يفتح سكة مع صاحبته دفعته لأن يجرب حظه معها؟ كل هذه الأفكار كانت تتوالى على ذهن نادية بينما تجلس متوترة بالقطار. إن أكثر ما أقلقها هو أن تكون صورتها في عيون الناس مشجعة على الطمع فيها والاستهانة بها وهي لا تدري. ثم ما حكاية جريمة القتل التي يدبرها ضد هانز مع عادل؟! لقد تحدت معها وكأنها تشاركهما التخطيط في الجريمة.. ثرى ماذا أخبره عنها عادل بالضبط؟ هل تناول حياتها الخاصة بالكشف أمام غريب؟ وهل هناك آخرون أشركهم في أمرها وأمر أمها؟ كيف تفعل هذا يا عادل؟! كيف تعرضني لهكذا موقف مع من تقول إنه أعز أصدقائك؟! كانت نادية ترتعد وهي تفكر في الأمر.. لقد أرعبها أبو الفتوح وأضاف إلى أجندة أيامها السيئة صفحة جديدة.

وصلت إلى تولن وتوجهت نحو مسكن عادل، ولم يستطع حنقها أن ينسيها أن تدخل إلى محل المخبوزات وتحضر كرواسون وقهوة باللبن لأجل إفطاره!

طرقت الباب كثيرًا حتى استيقظ وفتح لها بعينين دهشتين لم يغادرهما النوم! مال عليها يحتضنها فلم تبادله مشاعره وجلست على الكرسي الوحيد بالغرفة. أشعل سيجارة وقد داخله القلق، فأخذ يغمرها بالأسئلة؛ حتى يطمئن على أمورها.. كان يخشى أن يكون زوج أمها قد ارتكب شيئًا خطيرًا بحقهما، وإلا فلماذا تمنحه هذه الزيارة غير المنتظرة؟! طلبت منه أن يأخذ حمامه ويرتدي ملابسه ويفطر ويشرب القهوة، وبعدها تخبره بسبب الزيارة.

في مقهى المحطة جلس يستمع إليها وهو في شدة الذهول. كانت كل جملة تتفوه بها تدفع به نحو الأعماق في جُبٍّ من الحزن واليأس والغضب. هل يمكن أن تكون الحياة بهذه العبثية؟ هكذا كان يفكر.. مَنْ يصادق إذن؟ وإلى مَنْ يتحدث إذا كان مَنْ أحبه ووثق به يتصرف بهذه الوضاعة وهذا النزق؟!

ساد صمت طويل، لكن النظرات كانت تتردد بينهما.. نظرات حائرة. هي محتارة تريد أن تفهم حتى تهدأ، وهو أيضًا حائر لا يعرف بماذا يجيب أو كيف يبرر. أخيرًا قال لها: أنا لن أدافع عن نفسي.. لك كل الحق أن تغضبي مني، ورغم أنني غير مسئول عن جنون الناس؛ فإن واجبي أن أبعد عنك المختلين لا أن آتي بهم إليك.. عذري أنني لا أقرأ الغيب ولا أعرف ما في النفوس.. لقد بدا لي متزنًا رغم مشكلاته الداخلية وظروفه القاسية ومتاعبه مع الحياة، وكنت أظن أن كل ما سلف قد كوى جروحه بالنار فطهرها وأكسبه حكمة وبعُد نظر، لكنني كنت مخطئًا، والآن لا أدري ماذا أفعل! لا أتحدث عنه، وإنما أقصد ماذا أفعل مع الحياة؟ هل أنعزل وأتجنب مصادقة البشر؟

هل أتفوق على ذاتي وأترك نفسي تتجمد من الداخل؟ ما نوع الحياة التي لا أستطيع فيها أن أصطفي صديقًا وأطلع على مكنون نفسي؟

- قالت نادية بنبرة حرصت على جعلها هادئة: قل لي ماذا أخبرته عني وعن حياتي؟ وما حكاية تفكيركما في تدبير جريمة قتل هانز أورليش من أجلي؟ هل طلبت منك أن تقتل أحدًا لأجل خاطري، وهل تظن أن هذا هو خير تعبير عن الحب؟
- كنت أحسن الظن به فحكيت له ما تصورت أنك يمكن أن تحكيه عني لصديقتك.. فتحت له قلبي ولم أقصد أن أسوء إليك.
- أنا لم أقص على تونيا أو مادلين أي شيء عن هروبك من مصر بجواز سفر مزور، ولا عن السجن الذي ينتظرك إذا عدت.. كل ما قلته إنك تبحث عن فرصة خارج وطنك الضيق، وإنك بالنسبة لي الحلم الذي انتظرت.. لم أقل إنك تصادق متشردين أو تكسب رزقك من القمار.. أنا لست خجلى منك، لكني لا أتفوه بشأنك إلا بما يعزز صورتك أمام الآخرين.. إنني أثق في تونيا وأثق في مادلين، ومع ذلك لم أحدثهما عن زوج أُمي وحياتنا البائسة معه، ولم أخبرهما بشأن ظروفك.. أتعرف لماذا؟ سأخبرك لماذا.. أنا على ثقة أن تونيا العزيزة التي تحبني لن تفشي أسراري لأناس سيئين، لكنها ستخبر صديقها ماتيوس، ونفس الأمر ستفعله مادلين مع شخص قريب منها.. إن هذه هي فلسفة الأسرار يا عزيزي، الأسرار يتم إفشاؤها بواسطة أكرم الناس وأطيبهم قلبًا؛ لأن كلاً منهم سيحفظ السر ويخفيه عن الأشرار، لكنه سيبوح به للطيبين ممن يثق بهم، وهكذا بعد فترة ستجد المدينة كلها قد عرفت ما حرصت على إخفائه وتكتمت بشأنه، لدرجة أنك أطلعت عليه شخصًا واحدًا فقط!
- لا أدري ماذا أقول، أنت أفضل مني بالتأكيد.
- أنا لست أفضل منك، لكنني ممتلئة بالخوف.. هذا هو الأمر.. والآن أخبرني ما حكاية جريمة القتل هذه؟
- لقد حكيت له عن زوج أمك وأخبرته بما تقاسيانه منه، ولم يُبدِ تعليقًا في حينه، لكنني فوجئت به ذات ليلة وكان قد أفرط في الشراب، وبينما كنا نسير في الشارع ليلاً

نتبادل الحديث فوجئت به يقترح عليّ أن نقتل الرجل ونُخلّص الدنيا منه، ورغم أن الفكرة قد بدت مريحة مثل حلم؛ فإنني لم أوافقهُ ولم أخطط معه لشيء، بالعكس لقد سخرت منه وأخبرته أنني لا أتورط في أعمال من هذا النوع مهما كان الهدف نبيلًا، ومهما كان المُستهدف بغيضًا.. هذا كل ما في الأمر، لا يوجد بيننا اتفاق جنائي على ارتكاب جريمة.

• قم بنا نتمشى بجوار النهر.

سارت إلى جواره ممسكة بذراعه على طول الممشى المحاذي للدانوب وقد هدأت قليلاً.. ما زالت مغتاضة، لكنها لا تريد أن تدفع ما بينها وبين عادل إلى منحدر زلق، أما هو فقد فكر في أن نادية هي هدية السماء التي قد لا يكون مستحقًا لها.. لقد فكّر أنها عندما قَدِمَت إليه مُحمّلة بشحنة كبيرة من الغضب والشعور بالقهر لم تنسَ أن تحضر له القهوة الساخنة والكرواسون، وهذا معناه أنها تعاملت معه بأمومة.. العشاق لا يفعلون هذا، لكن الأمهات يفعلن! هذا مستوى من الحب لا يقدر عليه.

عاد عادل مع نادية إلى فيينا وتركها تصعد إلى البيت لتتفقد والدتها قبل أن تذهب إلى عملها المسائي. مضى بالشارع يغني بصوت مرتفع حتى يطرد التوتر الذي أحس به عقب توديعه لنادية.. هو يشعر بحزنها وضيقها، ويعرف أن صدمات كهذه تعزز مخاوفها من العالم. أما بالنسبة لمحمد فقد كانت مشاعره إزاءه ضبابية، لم يكرهه ولم تسيطر عليه مشاعر احتقار مثل التي استولت على نادية تجاهه، وإنما شعر نحوه بالأسف والرتاء، وهي مشاعر أعقد من الكراهية في حالتها؛ ذلك أن مشاعر الأسف تُفرغ الصداقة من معناها. استبعد تمامًا أن يذهب إليه ويتحدث معه ليفهم ما الذي دعاه لفعل ما فعل؛ فهذا لن يؤدي لشيء، فهو قد يدافع عن نفسه بكلام فارغ وقد يُردّد أكاذيب لن يترتب عليها غير أن يغضب عادل وينفعل فتتقلص معدته

وينزف من أنفه دون أن يصل إلى شيء.. وحتى إذا اعترف بخطئه وأبدى الندم فهذا لن يُقدّم ولن يُؤخّر، فما بينهما لا يمكن أن يستمر بعد الآن، ليس لأنه يريد أن يعاقبه ويُراكم مشاعر الندم لديه، ولكن الأهم أنه لن يستطيع أن يمنحه ثقته، فما جدوى الصداقة إذن؟ آه يا زمن، ماذا جنيثُ لأرتبط بأصدقاء نالت منهم الدنيا في العَصَب ولم يعودوا قادرين على تجاوز آلامهم؛ فأصبحوا يتصرفون بأنانية ونذالة؟ هكذا حدّث نفسه. ومع ذلك فقد أحس بسذاجته؛ لأن هذه ليست السابقة الأولى بالنسبة لأبو الفتوح.. لقد غافله من قبل وذهب إلى تولن محاولاً أن ينسج خيوط علاقة مع إيريانا من خلف ظهره.. صحيح أن جارته اليوغوسلافية لم تعن شيئاً بالنسبة له، لكنه حدّر صاحبه بشكل صريح وأفهمه أنه لا يريد مشكلات في مكانه الجديد، ورغم ذلك لم يبالي. لماذا يتصرف الناس هكذا؟ نطقها بصوت عالٍ في الشارع.. إن قسوة الظروف المتعلقة بأسرة أبو الفتوح في مصر لا تمنحه الحق في التعدي على من لم يسيئوا إليه هنا. لماذا يترك أبو الفتوح نساء البلد بأكمله ويسعى خلف واحدة في محيط صديقه؟! هل الخجل هو مشكلته فيحتاج إلى أن يتخذ من عادل ثكأة يستند إليها قبل أن يتشجع ويتحدث إلى من يريد محادثتها؟ قد يمكن أن نتصور هذا بالنسبة لإيريانا، ولكن ما الذي يدفعه لمضايقة نادبة وهو يعلم عمق ما بينه وبينها؟! أحس عادل بالندم وشعر أنه أخطأ حين رق لمحمد ولم يحاسبه على ذهابه إلى تولن وقيامه بالتودد إلى إيريانا. من المؤكد أن هذا قد أغراه بتكرار الأمر مع نادبة ما دام قد وجد صديقه متسامحاً أو مغفلاً! أم أتراها الغيرة التي لا نتصورها أبداً فيمن نحبهم ونثق بهم؟ إن ما يحيره أكثر هو أنه يعلم أن أبو الفتوح شخص ذكي وهو عندما أقدم على الذهاب إلى نادبة في مكان عملها وحاول فرض نفسه عليها والتحرش بها كان يعلم بالتأكيد أن هذا سيُجهز على علاقته بصديقه، فهل أراد بما فعله أن يصل إلى هذه النتيجة؟ إن هذا لو كان صحيحاً فهو شكل من أشكال تدمير الذات. كان عادل يعلم باحتياج محمد لعلاقة عاطفية تدعم ثقته بنفسه وبالعالم، وقد أراد بالفعل أن يشبكه مع مادلين عندما اصطحبه للقاء أصدقاء نادبة.. صحيح أنه قد ألح كثيراً بعد ذلك على عادل في أن يُدبر لقاء آخر يرى فيه مادلين، لكن هذا الأمر لم

يكن بيده وحده، ولقد نقل هذه الرغبة إلى نادية، لكنها لم تتحمس متعلقة أن مادلين ليست الشخص المناسب؛ لأن ظروفها مرتبكة. ثم ما حكاية جريمة القتل التي زعم أنها موضع اتفاق بينهما؟ هذا كذب صريح، فهو لم يتفق معه على شيء من هذا.. يا الله على العقل البشري عندما يخترع أكاذيب مريحة! إن الحياة لن تستحق أن تعاش لو ثبت أن محمد أراد بهذا إفساد علاقته بنادية من باب الغيرة.. الغيرة؟! هل هذا معقول؟! إن محمد لو فتح عينيه على اتساعها ونظر في أي اتجاه لأبصر نماذج لا حصر لها من بشر ناجحين ومتحققين، أثرياء ومستقرين عاطفيًا ويمكن للمرء أن يغار منهم وهو مطمئن أنهم أهل للغيرة، بينما عادل هو أنعس نموذج يمكن أن تُوجّه سهام غيرتك نحوه. العجيب يا محمد يا مَنْ كنتَ صديقي أن يراك الناس كبيرًا وأهلاً للتقدير والثقة بينما ترى نفسك دونهم بغير مبرر.. أو ربما هناك مبرر ليس مفهومًا ولا واضحًا.

(5)

لم يكن من الصعب على محمد أبو الفتوح أن يدرك فداحة ما ارتكب. كان من الممكن لهذه الليلة أن تمضي على خير لو أنه انسحب عند مرحلة معينة وقت أن صعدت نادية إلى الترام. ربما كانت ستندesh من زيارته للبار وانتظاره لها بالخارج، لكنها لم تكن لتأخذ الأمر على محمل مريب، لكنه كان مُصرًا على أن يرتقي الدرب الصاعد حتى منتهاه، ويُسفر عن شخص لا يُعبّر عن حقيقته بالضرورة! ما هذه الحالة العدمية؟! هكذا تساءل بينه وبين نفسه وهو يقطع طريق الجيرتل سائرًا على قدميه بعد أن أفلت منه آخر ترام.. هل ارتحت الآن بعد أن وجهت قسوتك نحو عادل وأثبتت له أن حُسن ظنه بك كان سرابًا؟ وما قيمة عادل أو غير عادل حتى تقيم له وزنًا؟ إن شأنه كشأن غيره ممن تذهب عندهم أمك لتكنس وتمسح وتنظف أوساخهم.. هل أنت حاقد يا أبو الفتوح؟ طبعًا حاقد.. وهل أبدو لك غير ذلك! لكن ما شأن عادل حتى تسعى لمضايقته.. ألا تعلم أنه يحبك؟ ومن قال إنني أريد حبه أو أحتاج إليه.. أنا

أحتاج إلى الغضب، وما حدث الليلة قد منحني قدرًا كبيرًا منه، إن هذا لجهد لا يقدر عليه غير أولي العزم وأنا منهم!

ضحك محمد وانطلق يضحك ويضحك في الشارع الساكن وهو يحادث نفسه.. إن الناس يذهبون إلى الطبيب النفسي ويدفعون له أموالًا كثيرة؛ حتى يتفضل عليهم بعد جلسات طويلة ويخبرهم بأنهم مصابون بعقدة.. هاهاهاهاهاهاهاها.. أنا أستطيع دون طبيب أو جلسات علاج أن أعرف أنني مصاب بعقدة.. عقدة الفقر وعقدة الأم التي تخدم في بيوت السفهاء. إنهم يُظهرون البطل في السينما وقد تحرر من عقده بعد أن يعرفها ويراهها رأي العين بمساعدة الطبيب، ولكن ماذا عني؟ إنني أعرف سر عذابي ومع هذا لا تحررني هذه المعرفة من القيود ولا ترفع عني قتامة الروح العدمية التي لم تعد تحفل بأحد.. سيقول عادل لنفسه: إن أبو الفتوح ليس عبيطًا، وإنما قد سعى عامدًا لأن يقطع صلته بك.. أنا أعلم أنه سيصل لهذه النتيجة، والحقيقة أن هذا لا يفرق معي.. أنا أريده أن يغضب ويقاطعني، ولو أنه تظاهر بالتسامح وقرر أن يعيش في دور صاحب النفس الكبيرة وحاول أن يتحدث معي ناصحًا ومؤنبًا؛ فإنني سألقنه درسًا يفهم منه أن الحياة على قسوتها لم تُره إلا الوجه الحسن، بينما ادخرت لي الوجه البشع من زمان. ماذا يظن نفسه؟ هل يعتقد أنه مناضل بسبب مظاهره خرج فيها أو مجلة حائط تافهة رسمها؟ إن والدي قد عرف النضال الحقيقي ودفع حياته ثمناً لغبائه ظاناً أنه يفرش بموته طريق الحرية لأبنائه دون أن يدري أنه بتضحيته هذه قد أسلمنا للضياع! لقد طلبتُ من أمي بعد حصولي على الإعدادية أن أدخل مدرسة التدريب المهني لأحصل على راتب من أول شهر في الدراسة.. لو أنها وافقتني لما كان أصبح حالي هكذا.. كنت سأتحول إلى صناعي وأعيش عالم الصناعات والتحف بأحلامهم البسيطة في الزواج من أي بنت مقلوطة من بنات الحارة، ثم متابعة مباريات كرة القدم وتدخين الحشيش وتعاطي المنشطات الجنسية.. ما أجملها من حياة! لكنها أرادت أن تراني مهندسًا، ثم اقتطعت من قوتها

لتوفر لي احتياجات الكلية دون أن تدري أن بؤسها قد مزقني، نعم، بؤسها مزقني..
والآن تطلب مني أن أنقذ أختي بعد أن أصبحت أشلاء.

وصل أبو الفتوح إلى البيت منهكًا بعد السير لمسافة طويلة مع أفكاره المحبطة. صعد السلم بصعوبة وفتح الباب ليجد النور مضاء، وحسنين وطه في انتظاره، بينما عزت وسيد يجلسان على الأرض مستندين إلى الحائط وهما في حالة توهان من تدخين الحشيش، وسامي يحتضن فيرا ويغط في نوم عميق. قبل أن يلقي أبو الفتوح بنفسه على السرير وجد حسنين يمسكه قائلًا: لا يا أبو خالو.. لا تنم الآن، إننا ننتظرك منذ ساعات حتى نشاورك في أمر مهم، وهذا الأمر لا ينفع الكلام فيه هنا.. قم ننزل إلى الشارع أو نذهب إلى محطة القطار لنشرب الشاي ونتحدث. نظر محمد إليه ثم نقل بصره نحو طه فوجد هذا شاحبًا وأمارات المرض بادية عليه، فقال: ألا ترى يا حيوان أن صاحبك طه مريض؟ هل تريده أن ينزل في هذه الساعة وهو بالكاد يمسك نفسه؟ ثم ما هذا الأمر الذي لا يمكنكما الحديث فيه هنا بينما ليس عندكما سوى موضوعات نجسة مثلكما؟

رد طه: لأجل خاطري يا أبو الفتوح، هيا ننزل حتى نستترشد برأيك في موضوع يخص الزفت حسنين.. أنا صحيح تعبان لكن لا عليك. تشبث محمد بموقفه وقال وهو يفرد جسمه على السرير دون أن يخلع حذاءه: أنا لن أبرح سريرى، ومن أراد أن يتحدث فليتحدث. مال طه على أذن محمد قائلًا: إن حسنين لا يريد لأحد غيرك أن يسمع ما سيقال. ضحك محمد: كلهم بين نائم ومسطول يا حبيبي، وحتى لو كانوا مستيقظين فإن أحدًا لا يحفل بكما. أحس طه باندهاش لهذا الرد، بينما انفعل حسنين: ماذا دهالك يا أبو الفتوح؟! وما هذه اللهجة الحادة التي لم نعتدها منك؟! نظر

إليهما محمد وقد سره أنه نجح في استفزازهما، ثم قال: كله من هذا الصنف من الآن فصاعدًا.

لم يجد حسنين بدءًا من الاقتراب والجلوس على حافة السرير، ثم شرح الأمر لأبو الفتوح سريعًا.

ما كاد حسنين يفرغ من الكلام حتى انطلق أبو الفتوح ضاحكًا، حتى إن نوبة من السعال داهمته من فرط الضحك: برافو برافو يا حسنين.. أنا سعيد لأدائك العالي الذي أرغم الرجل على أن يرغب في اتخاذك خليلة له.. قوم يا حسنين أرني جسمك.. أرني أفخاذك؛ فلعل بك ما يثير ونحن لا ندري، وربما أن هذا المخنث الشاذ قد اكتشف فيك ما لم نكتشفه نحن. قال طه غاضبًا: ما الحكاية يا أبو الفتوح؟ إن حسنين طلب أن نتحدث إليك وحدك حتى نصل لحل فإذا بك تتصرف كالأطفال.. إذا كنت مخمورًا فلا بأس، يمكننا أن نتحدث في الصباح، لكن لا داعي للإهانات فكلنا مجاريح.

قال محمد وقد عاودته نوبة الضحك: أنا لست مخمورًا، لكن لا بأس بالحديث في الصباح.. ناموا الآن يا شواذ يا منحرفين يا ولاد القحبة!

لا، هذا غير معقول! انفعل طه ثم واصل: يجب أن تراعي أنني أكبرك بعشر سنوات على الأقل، فلا تتجاوز بسبب أننا أكبرناك وطلبنا رأيك.

اعتدل محمد في الفراش وكف عن الضحك: أوكي أوكي.. هأنا منصت وكلي آذان مصغية.. ماذا تريدان؟ رد طه: لقد أخبرك حسنين بالأمر، فماذا تقترح أن يفعل ليفلت من هذا الرجل؟ قال محمد جادًا: المفروض أنك أنت الذي تعرف يا سيد طه، فأنت الخبير الاكتواري بأحوال الشواذ، ولا بد أن مواقف مثل هذه قد مرت عليك. أجاب طه: لو كان هذا صحيحًا لما احتجنا إلى سؤالك.

قام محمد من السرير وانتصب واقفاً، ثم أعلن أنه سيدخل الحمام أولاً حتى يفك زنقته، بعدها يصفو ذهنه فيستمعون منه إلى أحلى رأي!

ظل طه يحملق في السقف بينما أخذ حسنين يتفقد الرفاق ليرى إذا كان هناك مَنْ ينصت إليهم، وعندما عاد أبو الفتوح كانت أساريره منفرجة وهو يعلن: وجدت الحل.. إن دخول الحمام يُعدّ عنصراً أساسياً لتصفية الذهن، وربما لو أدرك السادات هذا الأمر لدخل الحمام قبل الجلوس مع مناحم بيجن؛ حتى يتخطى الفخاخ التي ينصبها له صديقه المجرم الداهية.. عموماً أنا لا أرى أن هناك مشكلة.. لقد أضعتما وقتي وأنفقتما جهداً لبحث الأمر بينما لا توجد مشكلة. قال هذا وهو ينظر إليهما ليرى تأثير كلامه عليهما، فلما رآهما صامتين أكمل: إن حسنين قد دخل العلاقة رغم تحذريك إياه يا طه، وأصر على أن يجرب بمظنة أن الأمر قد يكون ممتعاً.. صح؟ لم يرد أحد فأكمل: وهاهو جرب مرة واثنين وثلاث وعشر.. لقد دخل إذن هذه السكة بمحض إرادته بغرض المتعة، فما المشكلة في أن يلج تفرية جديدة داخل نفس السكة، فلعلها تكون أكثر إمتاعاً! إنني لا أسخر منكما، لكنني جاد تماماً.. ما دام كل منكما قد ارتضى هذا النوع من العلاقات.. ما المشكلة فيمن يكون بالأعلى ومن يكون بالأسفل؟! أنتما الاثنان شاذان منحرفان مع سبق الإصرار والتعمد، والأمر بالنسبة لكما واضح، فليست الحاجة المادية هي ما تدفع طه لمواقعة الرجال، كما أن الهياج الجنسي ليس ما يدفع حسنين لنفس الأمر، إنما الحقيقة أنكما من نفس فصيلة الرجل الذي تشكوان منه، فأين المشكلة بالله عليكما؟! أين المشكلة؟! دع الرجل يأخذ فرصته فلعلك تسعد وتدخل معه في فصل جديد من الوساعة المحببة إلى نفسك أنت وهذا الرجل الكُبارة (مشيراً إلى طه).

جريدة السفير 21 أبريل 1981

- صيدا تمسح جراح المجزرة وتطوق الفتنة
- 20 شهيداً سقطوا بقذائف الميليشيات

- التفجير يندلع جنوبًا.. وznار النار يحاصر بيروت
- القذائف العشوائية تغطي أحياء العاصمة.. ومدافع إسرائيل تقصف مدن الجنوب وقراه
- دمشق: على القادة المتعصبين في الكتائب الاختيار بين وحدة لبنان أو الانضمام لإسرائيل

تاسعًا

(1)

قال راكب الدراجة الذي تقدّم إلى الشرطة للشهادة إنه كان يمضي في الطريق الضيق المخصص لسير الدراجات على جبل كالينبرج عندما أبصر شابًا يخرج من إحدى الكبائن وهو مبعثر الثياب مشعث الشعر، وأضاف أن الشاب كان بحال من الاضطراب عظيم، لدرجة أنه كان يهذي بينما يجري في الطريق بكلمات غير مفهومة. قال أيضًا إنه تابعه بنظره حتى رآه يصعد إلى الحافلة التي كانت تهم بالتحرك من أعلى الجبل في طريقها إلى المدينة، وبرر عدم تقدّمه بالإبلاغ عنه بأنه لم يعتقد أن هذا الشخص مرتبط بجريمة، حتى قرأ في صباح اليوم التالي عن مصرع السياسي المتقاعد هانز أورليش طعنًا بالسكين، والعثور عليه مضرجًا في دمائه على باب مسكنه، وأنه قد زحف إلى الباب الخارجي أملًا في العثور على من يسعفه حتى تمدد على الرصيف بعد أن خارت قواه.

أشارت الصحف التي امتلأت بأخبار الجريمة أن البوليس أكد أن المسكن كان مقلوبًا رأسًا على عقب بما يشير إلى قيام معركة ضارية في الحيز المكاني الضيق وبأن الكابينة الجبلية كانت مملوءة ببقايا مخدرات من كل نوع، فضلًا عن زجاجات الخمر المتناثرة في المكان مع علب بيتزا كثيرة على أرضية المطبخ وفوق الفراش وعلى منضدة التلفزيون، وبدا جليًا أن صاحب المكان لم يكن يحفل بنظافة مسكنه. عُثِر كذلك إلى جوار الباب على سكين مطبخ ملوثة بالدماء، ويُرَجَّح أنها أداة الجريمة، كما وجدوا مسدسًا على الأرض. تم رفع البصمات وكانت لأشخاص عديدين مختلفين، كما ذهبت السكين والمسدس مع عينات من الدماء المتناثرة إلى المعمل الجنائي، واتضح أن الدماء للقتيل ولشخص آخر يُرَجَّح أنه القاتل. أفادت التحريات أن الكبائن المجاورة كانت خالية من أصحابها الذين اعتادوا الحضور إلى المنتجع المعزول على فترات متباعدة، أما أقرب المقيمين فكانوا على مسافة لا تسمح

بسماع أي أصوات أو استغاثات. وقد نشرت جريدة الكوريير بعد عدة أيام من وقوع الجريمة انفرادًا حصل عليه محرر الحوادث يفيد بأن البوليس قد سلم الملف لأجهزة الأمن السرية؛ بناءً على طلب من الأخيرة، وقد اتضح أنهم على خلاف، البوليس النظامي كانوا يتابعون هانز أورليش ويعرفون بشأن علاقاته المشبوهة بالمنحرفين، وصدقاته كذلك بالعديد من رجال الشرطة المتعاطفين مع الحركات اليمينية العنصرية. وقد تواصلت التحقيقات لتكشف عن جانب من الحقائق السوداء المتعلقة بالقتيل وترؤسه في السابق لبعض الخلايا النازية التي تعادي الأجانب وترفض الهجرة وتجاهر بالأفكار التعصبية. أفاضت الجريدة في تأكيد أن حزب الشعب تنصّل منه وقام بإبعاده؛ خشية أن تتأثر شعبية الحزب داخل أوساط الليبراليين والمهاجرين، ومع ذلك فقد ظل له نفوذه في أوساط المهاويس، ومن بينهم رجال أمن ورجال أعمال ظلوا على ولائهم له؛ رغم تدهور أحواله في سنواته الأخيرة.

كان لمقتل هانز وقع الصدمة على نادية وأمها؛ برغم أن ما حدث كان يُعبّر عن أكبر أمانيهما، لكن يبدو أن أمانى من هذا النوع لا يخلو تحقّقها من دراما تهز حتى الذين تخلصوا من الكابوس. استمرت تحقيقات البوليس معهما لعدة أيام، وقد اتضح أنهما أقل الناس معرفة بالقتيل وعلاقاته وتحركاته. أما جهاز الأمن السري فقد داهم عدة شقق بالمدينة تأوي أجانب من مصر ورومانيا ويوغوسلافيا وتركيا، وأجرى تحقيقات مطولة مع سكان تلك الشقق الذين ارتبط بعضهم بعلاقات مع أورليش. وكان لشقة شارع السلزاخ نصيب من تلك التحقيقات، وتم اصطحاب أبو الفتوح وعزت وسيد وسامي وفيرا إلى مقر الجهاز، وحتى مجدي زينهم؛ رغم أنه لم يكن يسكن معهم، فقد أخذوه للتحقيق باعتباره جاريًا للقتيل يسكن معه في نفس البناية بشارع تابور، كما أنه على صلة بالشباب في شقة شارع سلزاخ التي ثارت بشأنها علامات استفهام، أما طه فقد ذهبوا إليه في المستشفى حيث يرقد مريضًا وأجروا معه استجوابًا.

(2)

خرج حسنين مندفعًا إلى الشارع بعد أن ألقى بالسكين من يده وقد سيطر عليه الذهول! لقد صرح طه من قبل بأن هذه العلاقة لن تنتهي نهاية طيبة، وناشده أن يتدخل لدى الرجل ليعتقه وينساه ويبحث عن غيره. لم يكن الأمر بهذه السهولة، ليس فقط لسوء حالة طه الصحية وعدم قدرته على الانتقال لمكان هانز أورليش، ولكن لأنه ببساطة لا تربطه به أي علاقة إنسانية تتيح له الوساطة والتدخل! كانت الحيوانية المحضة هي ما جمعهما لفترة، إلى أن تسلّمه حسنين وكأنه فاز بورقة يانصيب! لقد حاول حسنين أن ينأى بنفسه عن هذا المجنون وكف عن الذهاب إليه، غير أن أورليش تعقّبهُ في مكان عمله وقصد إليه عند إشارة المرور التي يقف عندها يبيع الجرائد وهدده بتلفيق تهمة له وإدخاله السجن. لقد أحس حسنين أنه يشبه السندباد البحري في قصته الشهيرة بألف ليلة وليلة عندما وقع تحت براثن شيطان تنكّر في صورة رجل طاعن في السن وطلب من السندباد أن يحمله ويعبر به الطريق، فحمله على كتفيه وسار به، ولم يشعر إلا والرجل يلف ساقيه حول عنقه ويحكم الإطباق عليه، ثم أصبح أسيره بعد ذلك لا يستطيع أن يفك ساقى الرجل أو أن يبتعد عنه.

انطلق حسنين بعد الجريمة يعدو في الشارع، وكان يلطم خديه كما تفعل النسوة بالريف عند المصائب، وهو لا يفتأ يردد: أنا ابن كلب.. أنا أستاهل، ولا يكاد يلحظ من شدة الهلع راكبي الدراجات القليلين الذين يمرون به بينما هو لا يعرف طريقه. لقد خرج من الباب لا يلوي على شيء.. كل ما كان يهمه أن يبتعد لعله ينفذ هذا الفيلم بمشاهده المتتابة عن رأسه، وكان يظن أنه لو قصد الحمام العمومي وحظى بدش ساخن ثم ذهب إلى البيت ونام فإنه سيستيقظ ليجد أن كل ما فات كان كابوسًا.. انطلق باحثًا عن محطة الباص، وقد مر بها أكثر من مرة دون أن يفطن إليها، ثم عاد يبحث عنها من جديد! لقد أتعبه اللف في مساحات واسعة دون أن يعطي نفسه فرصة للتأمل والتفكير؛ لأنه ظن أن التوقف وكبح

الاندفاع قد يعني الشلل والتجمد والوقوع في قبضة البوليس، وعليه فقد كانت الحركة الدائبة وسيلته لإنقاذ نفسه، ويبدو أنه لفرط الانفعال لم يلحظ أن ذراعه تنزف.

أخيرًا وصل الباص الوحيد الذي يعمل على هذا الخط.. أبصره حسنين بعيدًا فأدرك أن مكان وقوف الباص هو مكان المحطة. جرى في اتجاهه ثم قفز إليه وجلس في الصف الأخير، ولم يكن هناك غيره من الركاب باستثناء عجوزين جلسا خلف السائق مباشرة. كان حسنين يدعو الله ألا يصعد ركاب آخرون؛ حتى لا يشتبه الناس فيه، وظلت تسيطر على رأسه فكرة أن أي نظرة إلى وجهه ستكشف أنه قاتل! حاول أن يحتفظ بوعيه وألا يسقط في النوم بينما الباص يؤرجحه في نزوله وانحنائاته وانعطافاته الحادة على طول الطريق، وكان بالكاد يستطيع الإمساك بالعمود المعدني إلى جانب كرسيه.. ومع ذلك فقد غفا قليلًا فعاوده المشهد المفزع كأنه يطالع فيلمًا سينمائيًا، ورأى أورليش منتشيًا يتمشى في الصالة بعد نهاية الجنس بينهما.. لقد حقق المجنون الداعر ما كان يبتغيه وأخضع حسنين تحت تهديد المسدس واستطاع اغتصابه عنوة بينما الأخير يصرخ من القهر.. لاحقًا وقف أورليش يرقص وهو يرفع الزجاجة إلى فمه ويشعل سيجارة بعد أن وضع المسدس جانبًا، فما أحس حسنين بنفسه إلا وهو يندفع إلى المطبخ ويقبض على السكين الضخمة، وقبل أن يعي النمساوي المخمور ما يحدث كانت السكين تشق قلبه في طعنة أولى تلتها طعنات لا حصر ولا عدد لها.. كان حسنين يضرب في غضب وجنون، وكأنما يريد أن يقتله عشرات المرات، بينما هانز أورليش لا يريد أن يموت، بل إنه كسر الزجاجة التي بيده في الحائط وطعن حسنين طعنة كادت تذبح رقبته، لولا أنه انحرف قليلًا فأصابته في ذراعه وجرحته.. لم ينس حسنين -رغم هول المشهد وبعد أن أبصر الرجل يسقط على الأرض- أن يهرع إلى الجاكييت الفوسفوري الذي اعتاد أن يرتديه عند وقوفه لبيع الجرائد فأخرجه من حقيبته التي وضعه بها إلى جانب المرتجع من الجرائد. كان أورليش قد أحضره من مكان العمل وأركبه السيارة، فلم تُتَح له فرصة تغيير ملابسه. مديده فأخرج الأموال التي يدخرها والتي كانت محفوظة بالجيب الداخلي للجاكت، وأخذها ثم ترك الجاكييت والجرائد.. ترك كل ما يدل عليه وشق طريقه للخارج!

وصل الباص إلى نهاية الخط، فانتبه حسنين من أحلامه وسارع بالنزول، ثم اتخذ مسارًا حرص على أن يجعله متعرجًا من شارع إلى شارع لئلا يبتعد ويضمن أن أحدًا لا يقتفي أثره. لا أمل في العودة إلى الشقة.. هكذا قال لنفسه، وفي الحقيقة ليس هناك ما يستحق المغامرة.. ملابسه وبعض أدواته هناك لا تساوي شيئًا، لكن مشترياته التي يعتز بها محفوظة بالحقيبة الكبيرة في محطة الويست بانهوف.

بعد وصوله إلى مكان الخزائن بالمحطة فإنه تلقف حقيبته بسرعة وسارع بها إلى دورة المياه، ثم انحنى وفتحها على الأرض، وأخرج منها ملابس نظيفة. خلع قميصه ثم صرخ من الألم؛ لأن القميص كان ملتصقًا بالجلد مع الدم الذي تجلط وصنع مادة لاصقة. سال الدم من جديد فكتمه بيده ثم مضى إلى صيدلية المحطة واشترى مطهرًا وضادات، ثم كان من حظه أن موظفة الصيدلية تطوعت بربطها له بعد أن سألته إذا كان الأمر يستحق الاتصال بالبوليس. أخبرها أنه انزلق وأصاب يده فصدّقتة!

كان الهلع الذي سيطر على حسنين قد أخذ يتلاشى وحل محله نوع من التصميم على أن يخرج من المأزق، وألا يسمح لهم بالقبض عليه وإلقائه بالسجن إلى الأبد؛ لهذا فلم يُضع دقيقة واحدة، وإنما أخذ سيارة أجرة من باب المحطة إلى مطار فيينا مباشرةً.

في المطار سأل عن رحلة القاهرة، فأخبروه أنها قد أقلعت منذ ساعات، ولا توجد رحلة أخرى قبل ظهر الغد.

جلس أمام الشاشة التي تعرض مواعيد الرحلات ووجهاتها وأخذ يستعرض الأماكن التي يستطيع أن يفر إليها الآن.. الآن وليس غدًا.. الآن وليس بعد بضع ساعات. للأسف كلها بلاد لا يستطيع أن يسافر إليها دون تأشيرة.. ما هذا الحظ النكد؟ لكنه وسط هذه الغابة المتشابكة من المعلومات على الشاشة وكلها مكتوبة بخط صغير لمح اسم الطيران العراقية ورحلة إلى بغداد.. تسارعت دقات قلبه.. هذه الرحلة ممكنة، فالعراق من بلدان الدنيا القليلة التي تقبل دخول المصري دون تأشيرة؛ لهذا فإن أعدادًا مليونية من الريف والحضر المصري قد استقرت بها، بل إن الكثير من الرفاق الذين أصابهم سوء الحظ في فيينا قد شدوا

الرحال إلى بغداد؛ حتى لا يعودوا إلى مصر خاليي الوفاض. وكان لافتًا أن حكومة العراق التي قادت جبهة الصمود والتصدي ضد ما سموه بخيانة السادات قد قطعت العلاقات الرسمية بالقاهرة، لكنها لم تتخذ موقف العداء من الشعب المصري، فظل المصريون يتدفقون إليها.

تقدّم نحو الكاونتر ووقف في الطابور، وظل ينظر حوله في ترقّب وهو يتحسب من أن البوليس سيكون فوق رأسه بين لحظة وأخرى.. ما أبطأ هذا الطابور! وضع حقيبته ثم خرج من الدور وأخذ يتفقد أبواب المطار ليرى من أيها تدخل الشرطة. وقف يهز يديه وقدميه ورأسه وهو يستحث الراكب الأمامي على الإسراع وعيناه تدوران في المكان كأنهما بندولا ساعة يتراقصان على الحائط. عندما وصل أمام الموظفة طلب منها شراء تذكرة على رحلة بغداد التي تقلع بعد قليل. اعتذرت الموظفة بأن الطائرة ممتلئة ولا توجد إمكانية لشراء تذاكر. كاد حسنين يُجنّ، فنظر إليها في هلع، ثم نظر إلى بوابات المطار يستطلع قدوم البوليس وسألها: أريد أي كرسي.. في الأمام.. في الخلف لا مشكلة. عاودت الابتسام وهي تنفي وجود أماكن. بدأ الطابور خلفه في التملل وأخذ الواقفون يستحثونه على إفساح المجال للراكب الذي بعده، بينما هو ما زال يقف يكاد يتضرع إلى الموظفة. قبل أن يبتعد يائسًا قالت له وهي متأكدة من أنه سيرفض العرض: لدينا أماكن في الدرجة الأولى لو كان هذا يناسبك. أدار حسنين الجملة في رأسه وأخذ يضع ثوانٍ حتى فهم معناها.. نعم، الدرجة الأولى هي تلك الدرجة ذات المقاعد الوثيرة والخدمة المميزة التي يركبها الأثرياء والأكابر. سألها بصوت خفيض: بكم التذكرة؟ قالت: 22 ألف شلن. دارت الدنيا به وكأن الدوار كان ينقصه، ثم وجد نفسه يردد: نعم.. نعم، أنا موافق.. درجة أولى.

داخل الطائرة عندما كان صوت المضيئة يعلن ضرورة ربط الأحزمة استعدادًا للإقلاع وجد حسنين نفسه يضحك؛ ذلك أن كل المال الذي جمعه من شقاء عامين ونصف قد اشترى به تذكرة على الدرجة الأولى. لقد كلفته التذكرة التي أتى بها من القاهرة إلى فيينا تسعون جنيهًا فقط للذهاب والعودة، لكنه الآن يدفع ما يزيد على ألفٍ من الجنيهات مقابل سفره

في اتجاه واحد إلى بلد لا يعرفه، ولم يسعَ إليه، ولا يدري ماذا يصنع به، بينما تذكّره عودته إلى القاهرة قد ضاعت عليه!

(3)

كان طه يرقد بالمستشفى وقد نال المرض المجهول منه كل منال. لم يعرف الأطباء ما به ولم يكن أمامهم غير أن يجربوا فيه كل أدوية الفيروسات ومضادات البكتريا وأن يحقنوه بالكورتيزون، وكل ما من شأنه أن يرفع المناعة المتداعية التي جعلته فريسة لتشكيلا من الأمراض لا تأتي مجتمعة على هذا الشكل إلا نادراً.. كان هو نفسه يشك بسبب سوء حالته أنه قد أصيب بالسرطان، لكن الأطباء الذين نفوا هذا الاحتمال لم يستطيعوا أن يؤكدوا ما هو مصاب به بالتحديد. لم يكن وهو ممدد على سرير المرض يحب النظر في المرأة؛ حتى لا يرى الوجه الذي تهدّل والعينين اللتين غارتا للداخل، ولا الهالات السوداء تحتها.

في خطابه الأخير لزوجته أخبرها أنه بخير، وأنه سيحضر معه كل الطلبات التي سأله أن يحضرها لهم. لم يكن يقصد الكذب وإنما كان يتأرجح بين اليأس والأمل، وفي بعض لحظات الأمل كتب الخطاب، وقد عقد العزم بينه وبين نفسه على أن يأخذ طائرة العودة إلى مصر فور أن يستطيع الوقوف بثبات على قدميه والانتقال من دون مساعدة إلى الحمام.

عندما أتاه المحققون ليأخذوا أقواله كان يجلس على الكرسي في حديقة المستشفى ليحظى ببعض الشمس. لفت انتباه المحققين أنه لم يُظهر الدهشة عندما أخبروه بسبب الزيارة ولم يناور أو يداور وإنما أخبرهم بالقصة كاملة كما عرفها وشهد بعض فصولها، ولم ينس أن يخبرهم أن حسنين قد لا يكون الفاعل؛ لأن هذا الرجل كان من السارحين الهائمين على وجوههم بالمدينة يلتقط الشذاذ من الحداثق وعلب الليل، ولا شك أن علاقاته كانت متعددة. سأله عن المكان المحتمل أن يذهب إليه حسنين فأجابهم بأنه لا يعرف له مكاناً سوى شقة شارع السلزاخ. بعد انصراف البوليس كان الدوار يعصف برأسه، ومن قلب

الدوامة التي أحاطت بتفكيره رأى حسنين يوم أن تسلل خلفه إلى البراتر؛ حتى يرغمه على أن يُعرّفه إلى أحد زبائنه. ضحك طه رغم مأساوية الظرف.. ضحك بشدة؛ لأن حسنين قاوم كل محاولاته لإثناؤه عن ولوج سكة الدعارة الرجالي، كان الأخ يظنها دنيا محفوفة بالمتعة ويعتقد أن هذه العلاقات ستمده بزاد من المغامرات والحكاوي التي سيعزفها على الربابة ويرويها لأقرانه وهم يدخنون الجوزة في الليل، وبها سوف يرتفع فوق الجميع في قريته البائسة بالصعيد! ازداد ضحك طه حتى دمعت عيناه وهو يتذكر كلام أبو الفتوح وهو يشتمهما معاً، ويؤكد لهما أنهما منحرفان جنسيًا على نحو فاضح.. يبدو أننا فعلًا كذلك.. لقد كانت حجتى أن بيع الجرائد لا يجلب سوى الملايم، وأن هذه العلاقات ستُعجّل بتحقيق الهدف المنشود وجمع المال؛ حتى أعود إلى طنطا مرفوع الرأس وأتسلم عملي الوظيفي بعد أن أصير من الميسورين أصحاب المدخرات.. لا أظن أن الأمر يتعلق بالمال فقط، لا أشك أنني منحرف مثلما قال أبو الفتوح، وإلا لما احتملت هذا العالم المقزز.. إن شخصًا مثل أبو الفتوح أو سامي أو حتى عزت كلوت المهووس بالجنس، مهما أغريته بالمال فإنه قطعًا سيرفض أن يقيم علاقة برجل، أما أنا وحسنيين فإن الأمر كان بالنسبة لنا عاديًا، ولم ينطو على تضحية مثلما كنت أضحك على نفسي دائمًا.. لقد كان حسنين يتحجج بأن جهله باللغات يمنعه من التعرف إلى امرأة وإقامة علاقة معها؛ لهذا فإنه يقنع بمضاجعة رجل من باب الاضطرار! لم يكن هناك اضطرار ولا دياولو، والدليل أن كل الشباب والطلبة في بلادنا لا يمارسون الجنس، ومع ذلك فحياتهم مستمرة ولم يدخلوا مستشفى المجانين بسبب الحرمان.. ولو أن حسنيين كان هاجسه الجنس الطبيعي؛ لكان بوسعه أن يتعامل مع المومسات مثلما يفعل بعض الذين يشعرون بالوحدة، لكن الحقيقة أنه منحرف مثلي..

هاهاهاهاهاهاهاهاها!

تكررت غارات البوليس على شقة شارع سلزاخ في أوقات متباينة من اليوم؛ بحثًا عن القاتل الهارب حسنين، وكانت فيرا في استقبالهم معظم الوقت، وقد أخبرت سامي أنهم

حذروها من البقاء في الشقة مع هؤلاء الأجنب، ولفتوا انتباهها إلى أنها كانت تنام في نفس المكان لشهور طويلة مع قاتل، فما الذي يضمن ألا يكون الباكون مثله؟ رفضت فيرا نصحتهم وطلبت منهم ألا ينشغلوا بأمرها.. وبمرور الوقت لم يعودوا يأتون، ويبدو أنهم تحققوا من خلال بيانات المسافرين بالمطار أن حسنين قد غادر البلاد.

كانت أخبار الجريمة قد استمرت على واجهة الصحافة لأيام طويلة، وانشغل بها قطاع كبير من السكان؛ نظرًا لشهرة القتل وانقسام الناس نحوه ما بين مؤيدين لعنصريته وأفكاره النازية، وبين كارهين له لدرجة إبداء السعادة في خبر موته وتخلُّص المجتمع من شروره. وبالنسبة لجيرترود فإنها لم تتردد بعد معرفتها بما حدث في الصعود إلى ماجدة وتهنئتها على الخبر السعيد، وقد أدهشها أن جارتها كانت منقبضة على عكس المتوقع بعد انتهاء الكابوس!

قالت ماجدة: قد تظنين يا جيرترود أن قلبي يرقص طربًا لمصرع الرجل الذي آذاني بعد أن أوقعني في الأسر لسنوات، والحقيقة أنني رغم تنفسي الصعداء؛ فإنني وبحكم قدومي من «منطقة قتل» قد تعودت أن موت أحد الأعداء يتلوه الثأر له بقتل أحد الأقارب.. قلبي لم يتعود الحوادث ذات الوجه الواحد التي لا تجعلني أخاف على أحبابي من دفع ثمن الفرحة.. قالت هذا ثم أردفت: هل تعلمين أنني ناشدت أبناء عمومتي ألا يقتلوا الجار الذي صرع زوجي أمام عيني، وذلك حتى لا ينتقم أهله بقتل ابنتي؟

هتفت جيرترود وهي تعدل وضعية جلوسها على المقعد: المهم أنه لم يعد هناك أورليش بعد اليوم.. افرحي يا امرأة وانفصي الحزن والكآبة وانسي بيروت وعذاب بيروت، أنت اليوم امرأة غنية، فأورليش ليس له أبناء وسوف ترثينه. قالت جملتها الأخيرة متمهلة وكأنها غير متيقنة منها، ولهذا فقد أكملت الجملة بقولها: إلا إذا كان الملعون قد حرمك من الميراث وكتب أملاكه للشواذ الذين كان يصاحبهم!

رفعت ماجدة حاجبيها دهشة لسماعها هذا القول من جيرترود، ثم عقبَت باسمة: لا علم لي حتى الآن بموضوع الميراث وإن كانت نادية قد أوكلت الموضوع لأحد المحامين، وعلى أي

الأحوال فإن هانز ليس الملعون الوحيد الذي قد يحرم زوجه من أمواله!

ما كادت جيرترود تسمع هذا التعليق حتى اندفعت في الضحك وهي تسعل وتمسك جنبها الذي يؤلمها ثم قالت: أحيانًا يُخَيَّل إليّ أن حجم الملاعين في هذه الدنيا يفوق حجم الطيبين بكثير وأن الشياطين الذين يحيطون بنا من الكثرة بحيث يطردون الملائكة ويمنعونهم من الاقتراب.. وبالمناسبة، هل تعرفين أن القاتل الذي أسدى خدمة للبشرية هو شاب مصري كان يسكن عندي في شقتي بشارع سلاخ التي أُوجرها لمجموعة من المصريين؟

• لقد علمت من نادية أن قاتله بائع جرائد مصري فر من البلد، وأنهم قد يأتون به عن طريق الإنترنتبول، لكني لا أعرف أنه أحد سكانك.

• أنا لم أكن أعرفه لا هو ولا غيره من سكان الشقق؛ لأن مجدي زوجي هو الذي يأتي بهم ويتولى تسكينهم وتحصيل الإيجار، وقد أخبرني أن سكان هذه الشقة بالذات يتخذونها وكراً لتدخين المخدرات، وطلب مني أن أطلب تدخل البوليس لإبعادهم عن البلاد!

• وهل فعلت؟

• لا طبعًا، لقد نسي الوجد أنه قد جاء في ظروف تشبه ظروفهم، ولم يعرف الطعام الساخن والفراش الوثير إلا في بيتي.. قلت له ألا يشغل باله بهم ما داموا منتظمين في دفع الإيجار، ولو قبض عليهم البوليس فإنني أفضل أن يكون هذا عن غير طريقي.

• أنا احترت فيك يا جيرترود.. أحيانًا أحس بطيبة قلبك إزاء الناس وأحيانًا أحس بالعكس، فَمَنْ أَنْتِ بالضبط؟

شردت جيرترود وهي تقول: لا تشغلي بالك بي، فأيام ضيافتي على الدنيا قد صارت قليلة، وأنا أتلقي الآن جرعات منتظمة من المورفين لكبح الألم، ولم أوافق على الانتقال إلى المستشفى؛ لأنني أفضل الموت على فراشي.

شعرت ماجدة بتأثر من حالتها، فقامت إليها تحتضنها برفق متسائلة: وما أخبار زوجك بالنسبة لظروف مرضك؟ هل يعتني بك؟ هل يقضي معك وقتًا طويلًا؟ ابتسمت في أسى: إنه يتظاهر بالتعاطف والإشفاق، بينما يفرك يديه في سعادة لاقتراب وضع يده على الثروة كما يتصور!

اتسعت ضحكة ماجدة وهي تُقدِّم الشاي والبسكويت، ولم تستطع منع نفسها من أن تقول: يا لك من عجوز ماكرة يا جيرترود.. ألا تتركين له شيئًا؟ شاركتها جيرترود الضحك وهي ترفع سبابتها في الهواء إشارة إلى النفي!

(4)

كانت حادثة مقتل هانز أورليش قد تركت تأثيرًا غريبًا ومتناقضًا على نفسية عادل، وقد كان لديه أكثر من مصدر لمعرفة الملابسات سواء عن طريق سكان شقة السلزاخ الذين هبطوا عليه في المقهى وأحاطوه علمًا بما اقترفه حسنين، أو عن طريق نادبة التي سارعت وكل جزء فيها ينتفض بإخباره بزوال الكابوس، ولقد أحس بارتياح شديد وشعر أن يد القدر الحانية تدخلت للخلاص من الوغد دون أن يتم هذا بيد نادبة أو أمها أو حتى بيد أبو الفتوح المجنون، لكن من جهة أخرى فإن مقتله على يد حسنين قد أصابه بصدمة من حيث إن هذا الصعيدي الطائش قد أضع نفسه بسبب نزواته الفاجرة.. لقد كانوا يتندرون عليه ويتخذون من سلوكه الشائن مادة للسخرية في حين كان الأمر مأساويًا من البداية للنهاية. لا ينسى عادل أن حوارات جمعته بمحمد أبو الفتوح حول هؤلاء الرفاق، وما إذا كانا يحملان مسؤولية تجاههم نحو إجبارهم على الاكتفاء بحد أدنى من الشطط والسلوك الوسخ، لكن هذه النقاشات انتهت بأن هذا غير ممكن؛ لأنهم ليسوا أطفالًا يمكن زجرهم، فضلًا عن أنه يتعين عليك إذا أردت ضبط سلوكهم أن توفر لهم بدائل شريفة لحياتهم الموحلة.. وهذا مستبعد تمامًا؛ لأن كل واحد بالكاد يقيم نفسه، وقد اتفق عادل وأبو الفتوح على أن

احتفاظ المرء بعقله وبعض نزاهته في ظل ظروف كهذه هو منتهى الأمل، أما إنقاذ الآخرين فهو دور الدول والحكومات والصليب الأحمر ومنظمات الإغاثة والفاو والأونروا وبقية الجمعيات الخيرية!

مشاعر أخرى كانت تنتاب نادية التي تخلصت من الثقل الذي كان جاثماً فوق صدرها منذ وطئت قدمها هذه البلاد، لكن القتل نفسه هزها نفسيًا، وكون أن الجريمة قد وقعت بيد أحد معارف عادل سبب لها ضيقًا. الحوارات التي دارت بينها وبين عادل بعد الجريمة غلب عليها الحيرة وعدم اليقين؛ إذ إنها لم تفهم كيف يكون حبيبها على صلة بأناس من عينة القاتل الشاذ حسنين؟ شعر عادل بالضيق لأن حديثها بدا أشبه بتحقيق النيابة وكأنه مسؤل عن سلوك غيره. لقد احتاجت نادية إلى الوقت حتى تتناسى ما كان من محمد أبو الفتوح، لكن جريمة حسنين نكأت الجرح وذكّرتها أن معارف عادل كلهم تقريبًا من الأوباش.. حتى الأتراك الذين يحيطون به حاليًا في المقهى ويُسكّلون جمهوره الذي يتكسّب من ورائه ليس بينهم ذو مكانة أو حيثية.

قالت له نادية: أليست شقة شارع سلزاخ هي التي اعتدت أن تسهر فيها مع هؤلاء الناس حتى بعد أن سكنت وحدك في تولن شتات؟

أجابها: وهل تلومين السجين البريء على الجرائم التي ارتكبها زملاء الزنزانة؟ إن هؤلاء كانوا كل معارفي وقد احتجت إلى وقت حتى أجد عملاً يشغلني وظروفًا آدمية تحتويني فأبتعد عن حياة الصلعة، ومع ذلك لا أستطيع أن ألوم أحدًا أو أحكم على أحد منهم؛ لأنني لست في موقع يخولني الحكم على الناس.. أنا أعتقد يا نادية أنك ربما كنت تتمنين أن تتعرفي إليّ وأنا صحفي محترم أو طبيب ناجح أو أستاذ جامعي، وليس هاربًا يختبئ خارج وطنه.. ولكن لا تنسي أنني أيضًا كنت أتمنى أن أعثر عليك وأتقدم إلى خطبتك وأنت في بيت أبيك وأملك لا في بيت العنصري المجنون الشاذ الذي كان يتحسس جسمك وأنت نائمة.. هل وجهت لك لومًا على ظروفك المرتبكة أم أن هذه الظروف كانت ضمن أسباب حبي الجارف لك

واستعدادي لأفتديك بعمرى؟ هل رأيتُ في وجود زوج أمك سببًا لكي أسدد لك كلمات جارحة؟ هل اعتبرت اشتغالك في بار وخدمتك للسكارى مما يهبط بمكانتك، أو أن وضعك الذي لم تستسلمي له زائد ظروفى التى قاومتها هى التى قرّبت بيننا ودعتنا لأن يتشبث أحدنا بالآخر؟

نادية تعلم أنه محق فيما يقول، ومع ذلك لا تدري ماذا اعترأها، ولعل هذا ما دفع عادل لسؤالها: أنتِ يا نادية على وشك التخرج وكابوس حياتك قد رحل، هذا غير أن أمك ورثت ثروة معقولة، فهل لهذا أثر على رؤيتك لمستقبلك، وهل لي أن أعرف كيف أصبحتِ تريننى فى هذا المستقبل؟

ترددت نادية قليلاً قبل أن تقول: لا شيء تغير فيما يخص مشاعرى نحوك، لكنى لست على ما يرام.. أحتاج إلى بعض الوقت وسأكون بخير.

سارع عادل إلى القول: خذى كل الوقت الذى تحتاجين إليه، وأنا موجود كما أنا.. فى تولن شتات أو فى مقهى جرابين.

(5)

ساءت أحوال محمد أبو الفتوح النفسية وأصبح حاد الطباع مع رفاقه من سكان الشقة، وفقد حلمه وروحه المرحّة. لم يكن أحد يعرف سر المرارة التى يتحدث بها والتهكم الذى صار يوزعه على الجميع.. لقد كان فى السابق طويل البال، ذا قدرة على استيعاب الجميع والاستماع إليهم حتى كأنه قسيس القرية، والآن لم يعد يصدر عنه غير القول الحاد بعد أن فقد الروح الساخرة العذبة وأصبح حديثه جارحاً للغاية وكأنه يتعمد قطع حبال الود بينه وبين الناس، هذا على الرغم من أن فترات وجوده بالمسكن أصبحت محدودة؛ حيث أصبح يأتي فى المساء وينام على الفور بعد أن يوزع الإهانات على الرفاق وضيوفهم لو تصادف وجود ضيوف.

من الطبيعي أن جريمة حسنين وهروبهم، فضلاً عن دخول طه المستشفى كانت من الأحداث التي ألفت بظلالها الكثيفة على شقة شارع السلزاخ، وقدّر سامي أن هذا بعض من أسباب تحوّل أبو الفتوح.. صحيح أن الأحداث لم تُنسى أن يذهب إلى محطة القطار ويأتي بزبونين جديدين ليشفغلا مكان الرفيقيين الغائبين، لكنه مع هذا رفض محاولتهما التودد إليه، ولم يكن حتى يرد لهما السلام!

حاول سامي الاقتراب منه فذهب إليه في ميدان فلورزدورف حيث يبيع الجرائد، لكن استقباله خلا من الود. سأله سامي عن صديقهم عادل ولماذا لم يعد يأتي ليسهر معهم فأجاب في اقتضاب بأنه لا يعرف عنه شيئاً. عرض سامي أن يصطحبه بعد العمل إلى مقهى جرابين؛ عسى أن يكون عادل موجوداً هناك بحكم أن هذا المكان أصبح مقر عمله، لكن محمد لم يرحب بالفكرة. كان سامي يريد أن يستنجد بعادل، فهو يعرف أنه أقرب الناس إلى أبو الفتوح والقادر على لجم جموحه وفك شفرته. لم يكن سامي يدري أن عادل ضمن أسباب تحوُّله واكتتابه.

لم يجد مفراً من تركه وانصرف يائساً، ومع ذلك فقد ركب الترام إلى محطة الأوبرا ونزل متوجّهاً إلى قهوة جرابين. كان محقّقاً في تصوره، فقد كان عادل يجلس يتناول إفطاره. دعاه إلى مشاركته الإفطار، لكن سامي اعتذر ودخل في الموضوع مباشرة: ما حكاية أبو الفتوح يا عادل؟ لا أحد غيرك يعرف، ولم نعد نراك عندنا في الشقة كالسابق، فهل أنت على خلاف معه؟ رد عادل: لا خلاف ولا يحزنون.. هو انزوى وتقوقع وأنا مشغول، لكني سأذهب إليه قريباً. زمّ سامي شفتيه من الغيظ لأنه لم يستطع الحصول على إجابة شافية، وهنا نظر إليه عادل ملياً نظرة تحمل قدرًا من الإشفاق، وللمرة الأولى وجد نفسه يمتدحه بكلام طيب: تعرف يا سامي إنك جدع وابن حلال بأكثر مما كنت أتوقع. ابتسم سامي متهكمًا: وهل كنت تظنني ابن حرام؟ نعم، كنت أظنك عيّل ابن كلب معفن، لكن هناك أشياء جعلتني أعيد النظر بشأنك.

• أشياء مثل ماذا؟

- مثل حبك لفيرا واهتمامك بها؛ رغم أنك عرفتتها وهي في أسوأ أحوالها.
- لا تنسَ أنها أيضًا عرفتني وأنا في أسوأ أحوالي، وهذه الأحوال عمومًا ما زالت مستمرة.
- ومثل اهتمامك بمحمد أبو الفتوح.
- العيش والملح والصحة لهم حقوق.
- ولهذا أقول إنك ابن حلال، وأيضًا لأنك قمت بفك الإضراب والمقاطعة للحمام وأصبحت من الزبائن المنتظمين في مركز «شنتات هالي» للصابونة والليفة والمياه الساخنة.
- تعرف يا عادل، هذه البلاد الغريبة لعبت فينا جميعًا، وأظن أنها أفقدتنا الصواب، وحالة العفن التي تتحدث عنها كانت ضمن فقرة فقدان الصواب. الآن بعد أن اتخذت قراري بالبقاء وتكملة حياتي هنا لم يعد هناك داعٍ لوضع الشلن فوق الشلن.
- معنى هذا أنك قررت أن تتزوج فيرا وتستقر هنا؟
- في الغالب نعم، وأنا أحاول إقناعها أن نذهب لقريتها في الجنوب لنعمل هناك، لكن بنت المجنونة تحب فيينا، ولا تجد بأسًا في الصعلكة، وتشعر بأن حياتنا المضطربة تناسبها تمامًا!

بدا لعادل أن نادية تحتاج إلى وقفة مع النفس لم يشأ أن يقتحمها؛ فتركها تفكر وتأخذ وقتها، ولقد ذكّرتة هذه الوقفة بشعار شهير للسادات عندما أراد أن يفك ارتباطه بالسوفييت ويتجه غربًا.. لقد أعلن حينها في خطاب عام: وقفة مع الصديق! أوكى يا ست نادية يا حبيبة القلب، خذي وقفتكِ أنتِ أيضًا مع الصديق، لكن أرجو ألا تكوني تنوين الاتجاه غربًا! هكذا حدّث نفسه وهو يخطو في تابور شتراسه مقتربًا من بيت الحبيبة؛ حيث رأى أن صداقته بوالدة نادية جديدة بأن يحافظ عليها بعد أن

اقترب منها في الشهور الأخيرة، وأحس بصدق مشاعرها وترحيبها به كزوج مستقبلتي لابنتها.. لم يذهب في وقت يُحتمَل وجود نادية فيه، وإنما توجه إلى هناك في أثناء وجودها بالجامعة.

على السلم صادف شخصًا ينزل من الطابق الثالث وأحس بأنه يعرف صاحب هذا الوجه، في الوقت نفسه لاحظ أن نفس الشخص يتفرس فيه مليًا وكأنه هو أيضًا يُشبّه عليه.. وبشكل متزامن بدا أن كلاً منهما قد تذكّر الآخر.. آه، هذا مجدي زينهم الذي قابله بصحبة شلة شارع السلزاخ في شقتهم.. هذا هو صاحب الشقة أو وكيل صاحبته الذي كان ينقضّ عليهم بزياراته الليلية إلى أن كانت ليلة الحشيش الصاخبة التي جعلوا منه فيها أضحوكة الليلة وأقاموا عليه حفلة كوميديا تحت تأثير الانبساط والسكر الشديد.. لقد كانت هذه الليلة حاسمة؛ إذ إنه امتنع بعدها عن زيارتهم بعد أن انكسر القدر الضئيل المتبقي من هيئته التي كان يفتعلها، وأصبح ملطشة للجميع!

عندما التقيا على نفس الدرجة من السلم رفع مجدي صوته قائلاً: أهلاً، أنا أعرفك.. أنت صديق الشلة الفسدانة إياها.. صديق الحرامية والقتلة.. أي ربح أقلت بك إلى هنا؟

قال عادل: يمكنني أن أسألك السؤال ذاته يا مَنْ كنت تسهر كل ليلة عند الشلة الفسدانة إياها! وبالمناسبة يقولون إنك لم تعد تزورهم، فلعل المانع خير.

كظم مجدي غيظه وهو يقول: قريبًا.. بل قريبًا جدًا سوف أقدم لهم مفاجأة العمر وأطردهم جميعًا من الشقة ومن النمسا كلها، وإذا كان أصحابك يقولون إنني لا أملك شيئًا وأنني مجرد مُستخدم عند زوجتي فلسوف يعرفون سريعًا أنني أملك كل شيء.

لم يكن عادل يدرك أن الأخ يستعد ليرث زوجته المريضة، فلم يفهم ماذا يقصد، ومع ذلك فقد تركه وواصل صعوده السلم، لكنه استدار بعد بضع درجات ليقول له: آه،

نسيت أقول لك إنني ما زلت راغبًا في أن أشرب كأسًا من الويسكي في أذنك الحلوة هذه! قالها وانطلق يضحك بصوت عالٍ، فلم يجد مجدي بدأ وقد أهين ووجد نفسه عاجزًا عن الرد من النزول والاختفاء سريعًا.

فتحت ماجدة الباب واستقبلت عادل بالأحضان قائلة: لقد أسعدتني مكالمتك جدًّا عندما أخبرتني باعتزامك القدوم، وقد أعددت لك مقلوبة باللحمة المفرومة، وهي المسقعة على الطريقة اللبنانية.

- لم يكن هناك داعٍ لهذا التعب.
- لا تعب.. أردت أن أريك شيئًا مما ينتظرك بعد أن أصير حماتك.
- كلمة حماة غير لائقة عليك.. أنتِ تبدين أختًا لنا نحن الاثنين.
- ما أخبارك مع نادية؟ إنها لم تعد تُحدّثني عنك كالسابق، فهل هناك سحابة كدرت ما بينكما؟

أثنى عادل على هذا التعبير قائلًا: فعلاً.. وصفك دقيق.. هي فعلاً سحابة، لكنها في طريقها للمرور.

- لا تتخلَّ عنها يا عادل، إنني أشعر أنها ليست على طبيعتها هذه الأيام، وأحس أن وفاة هانز على قدر ما أراحتها قد سببت لها ربة.
- ربة؟ ولماذا؟
- ربما بسبب أننا أصبحنا فجأة نمتلك هذه الشقة وسيارة وشاليه على جبل كالينبرج وأسهمًا بالبورصة ورصيدًا ماليًا بالبنك.. كل هذا أدار رأسها وجعلها غير مصدقة لهذا التغيير وغير مستوعبة له.
- وأنتِ يا ماجدة، ما الذي حدث لك؟
- الذي حدث لي هو أنني أصبحت أستطيع النوم دون فزع، وهذه سعادة لا تعدلها سعادة، أما الأموال فلا تهمني إلا بمقدار إسعادها لابنتي.

صمت عادل يفكر فيما يسمعه فابتدرته ماجدة: قل لي.. مَنْ الذي كنت تتحدث معه على السلم؟ لقد سمعت حديثًا بالمصري وميزت فيه صوتك، لكنني لم أعرف الطرف الثاني.

- هذا شخص اسمه مجدي زينهم، لا أعرف عنه الكثير، لكنني قابلته عند جماعة من أصدقائي. طاف بفكر عادل وهو يُحدِّثها عن زينهم أن هذا الأخ قد ينتمي إلى سلسلة الشخصيات الجانحة التي يمكن أن تضيفها نادبة إلى العقد الذي تتهم عادل بأنه يتحلى به، وتمنى ألا تعرف نادبة أنه ضمن معارفه!

عقبت ماجدة على كلام عادل قائلة: هذا زوج جارتني جيرترود التي تسكن بالطابق الثالث. قالت هذا ثم كتمت ضحكة عندما تذكّرت الآمال التي يبنيها هذا الشخص على موت جيرترود.. وبرغم أنها كانت تدعو لصديقتها بالشفاء؛ فإن جزءًا منها كان يترقب ما سيحدث لزوجها بعد أن يتلقى الخبر، ويعرف أنه أخذ مقلب العمر!

(6)

لم تنقطع فيرا عن زيارة طه في المستشفى يومًا واحدًا. كانت أحيانًا تذهب إليه بصحبة سامي، وغالبًا ما كانت تذهب وحدها مصطحبة معها وردًا في كل زيارة. لم يكن الحصول على مال من سامي لشراء الورد أمرًا سهلاً، لكنها حصلت دائمًا على مبتغاها عندما هددته بتركه والرحيل عنه. كان تعلق فيرا بـ«طه» أمره عجيب! وقد بدأ عقب التدهور في حالته الصحية وكأنها كانت ترى فيه صورة الأب الذي لم تعرفه أبدًا.. كانت تعرف عنه وعن حياته في فيينا الكثير مما رواه لها سامي، ولم تسبب لها هذه الحكايات نفورًا منه.. على العكس، أحست أنه يشبهها في أوجه كثيرة، وبالذات مسألة أنه كان يُقدِّم نفسه للكلاب الضالة تنال منه ما تريد، مقابل اللقمة وعلبة السجاير وزجاجة الخمر. شعرت أنه تعيس ووحيد وأنه يدفع ثمن بؤس حياته من صحته ومن عمره، وعندما عرفت أن له ابنتين ازدادت تعلقًا به وتمنت لو يُشْفَى

ويسترد صحته ويعود لبيته في الوطن. كان عزت كلوت وسيد الأستورجي ينظران إلى اهتمام فيرا بصديقهما طه وخوفها على صحته على أنه من ملامح العبط الذي يميز الخواجات، وأنهم كما يهتمون برعاية القطط والكلاب يهتمون برعاية المرضى كهواية! بينما كان سامي يتعجب ولا يرى بأسًا في اهتمامها بصديقهم المريض. الوحيد الذي أحس بهذا الثبل في شخصية فيرا وفهمه كان محمد أبو الفتوح. كان تقديره أن فيرا بحكم كونها نمساوية تنتمي للريف هي ابنة مجتمع تفوح من جنباته الرحمة والإنسانية، ولذلك حتى مع تدهور أحوالها فليدورها مخزون كامن يمكن أن تنفق منه، وذلك على العكس من أبناء المجتمعات العربية الذين لم يعرفوا سوى شراسة السلطة وجبن ونفاق الرعية، فصارت أعمال الإغاثة وتقديم العون للمحتاج بالنسبة لهم مثيرة للريبة!

كلمات قليلة من اللغة الإنجليزية امتلكتها فيرا، وكلمات قليلة من اللغة الألمانية عرفها طه صنعت تفاهمًا وتعاطفًا وحديثًا متصلًا لا ينقطع طول وقت الزيارة، وكانت الممرضات تبدين الدهشة من هذه الزائرة المثابرة ويعتمدن عليها في إطعامه الوجبات التي يعافها. كان طه يُخرج لها من محفظته صور البنيتين ويشرع في الحكى عن أيامه معهما ومع والدتهما في طنطا.. حكى لها أيضًا عن أمه التي يخشى عليها إذا مات أكثر من خشيته على ابنتيه، وكانت تبادلته الحكى عن نشأتها بلا أب بعد أن فر مع عشيقته وهي بعد جنيًا في أحشاء أمها، وعن أمها التي لم تفهمهما وإن كانت تدرك حجم محبتها لها. أخبرته أيضًا أنها أحبت سامي لأنه احتضنها ليلة كاملة وتركها تنام بين يديه دون أن يمارس معها الجنس؛ لأنه عرف ما تحتاج إليه دون كلام.

حرص طه على أن يعطي سامي كل الأوراق التي تخصه وبها عنوانه في طنطا وتليفون أمه وجواز سفره؛ لأنه كان يشعر بدنو الأجل وأنه لا أمل له في الشفاء.

كانت فيرا أول مَنْ أعلن للرفاق وفاة طه بعد أن عجز الطب عن معرفة مرضه أو أصل الفيروس الذي أصابه، فضلًا عن علاجه.

لو أن موت طه قد تأخر بضع سنوات لعرف أطباؤه وعرف أصدقاؤه أن المرض الذي قتله هو ما توافَق العالم على تسميته بالإيدز.

كان الخبر صادمًا وهز الرفاق بشدة، ورغم أنهم كانوا يرونه وهو يذوي؛ فإن أحدًا منهم لم يتوقع أن طه بكل حيويته وضحكه ونشاطه يمكن أن يرجع إلى مصر في صندوق. صُدِمَ محمد أبو الفتوح، لكنه استعان بطاقة اللامبالاة التي كان يبيدها مؤخرًا ليثبت لنفسه أن كل الأشياء لا تهتم. كان أكثر مَنْ حزن عليه إلى جانب سامي هو عزت الذي توجه فورًا بعد أن عرف الخبر إلى مقهى جرابين ليشارك عادل في الأمر، ويسأله النصيحة فيما يتوجب عمله. لم يتردد عادل في الذهاب للمستشفى؛ حيث كانت فيرا قد استخرجت الأوراق اللازمة وشهادة الوفاة وصورة من ملفه المرضي، سلمت هذا كله إلى عادل.

وجد عادل نفسه مضطرًا للذهاب إلى السفارة المصرية للمساعدة في شحن جثمانه إلى الوطن. طلبوا منه الذهاب إلى شركة الطيران أو إلى وكيل سياحي ودفع تكاليف الشحن، وكأنه كان يحتاج إليهم لمعرفة هذه المعلومة! أكد لهم أن طه مواطن مصري ليس له أقارب بالنمسا ليدفعوا مصاريف الشحن وأن على الدولة المصرية أن تتكفل به مبدئيًا بعد أن أضعته حيًّا وجعلته يترك الوظيفة ذات الملايم ويأتي لبلاد غريبة ليموت فيها وحيدًا. نصحه الموظف الإداري بالسفارة بالتوجه للنادي المصري حيث يوجد عدد من المصريين النمساويين الأغنياء الذين يستطيعون التكفل بالنفقات. شعر عادل بغضب عارم وصرخ في الموظف بأنه سيبعث بهذا الكلام إلى الصحف النمساوية وإلى الصحف في مصر وإلى وكالات الأنباء وسيجعل فضيحتهم مدوية. خرج السفير من مكتبه على الصراخ والصوت العالي يستطلع الأمر، واصطحب عادل ومعه عزت إلى مكتبه، ويبدو أنه أحس عندما رأى عادل يتفصد دمًا من أنفه أنه من

الأسلم الموافقة على شحن الجثمان على نفقة السفارة مع ديباجة محفوظة عن أن مصر السادات لا تتخلى عن أبنائها، وأن هذا هو واجب السفارة و و ..

ازداد عادل هياجاً وهو يقول: اسمها مصر فقط وليست مصر السادات، ثم أخذ يسب السادات بصوت عالٍ، فحضر أمن السفارة بسرعة، غير أن السفير منعهم من التعرض له ثم صرفهم وأحضر له فنجائاً من الشاي، ولم يخرج عادل من عنده إلا بعد أن تأكد من أن شركة الطيران قد أصدرت بوليصة الشحن وأن الجثمان سيصل إلى أرض الوطن على رحلة اليوم التالي.

تولى سامي مهمة الاتصال بالأسرة بعد أن اعتذر عادل عن القيام بالمهمة؛ لأنه أحس بعدم قدرته على أدائها.

كانت المفاجأة الكبرى أن فاتورة المستشفى التي تسلمها سامي حملت اسم فيرا؛ باعتبارها التي قامت بتسديد نفقات الشهر الأخير بعد أن نفذت نقود طه بالكامل، وأصبح مُهدِّدًا بالخروج من المستشفى. عرف سامي بعد ذلك أن فيرا ذهبت إلى أمها في قريتها المجاورة لكلاجنفورت في الجنوب حيث هددتها بأن تحرق نفسها إذا لم تعطها المال.

(7)

وقف محمد أبو الفتوح في ميدان فلورزدورف ينظر إلى كومة الجرائد التي لم يكلف نفسه عناء فتح ربطتها.. الجرائد ما زالت كما هي مستقرة إلى جانب الرصيف حيث ألقت بها سيارة التوزيع قرب الفجر، وقبل أن يصل البائع ليتسلمها ويبدأ البيع عند إشارة المرور. كان رأسه يموج بالأفكار حتى شعر أنه سينفجر. أسئلة عديدة كانت تنهشه دون أن يحصل على إجابات. كان يقول لنفسه إن المريض النفسي يتوهم أنه سليم وتكون المهمة الشاقة للطبيب هي إقناعه بأنه مريض، أما هو فلا يمانع في

الاعتراف بأنه مضطرب عصبيًا ونفسيًا، فماذا يتبقى حتى يعتدل مزاجه وتهدأ نفسه ويعود لطبيعته السابقة حيث كان قادرًا على التعامل مع الناس دون أن يتلذذ بإيلامهم ثم ينظر إليهم في استهانة وهم ينفصون عنه؟ مضت ثلاث ساعات منذ أتى إلى مكانه هنا في الميدان ولا يزال غير قادر على العمل. ما الذي يحدث لك يا ابن العامل الفقير الذي دخل السجن لسبب سخييف ثم مات! لو أنه سُجن لسبب وجيه مما يُسجن الناس لأجله كأن يكون قد سرق محل مجوهرات أو اختلس أو نهب.. إذن لترك لنا مالًا يجعلنا نترحم عليه. هكذا كان يُحدّث نفسه.. كان يستحث هذه النفس على أن تنضبط وتعتدل؛ لأنه يحتاج إليها سليمة لأسباب عملية.. كل شيء ممكن ومحتمل إلا إهمال العمل، فهذا ما يُبقي الأمل قائمًا في انصالح الحالة المادية المتردية والدخول في زمرة «البنى آدميين»! استمرت خواطره تترى داخل نفسه: إن عادل يخشى العودة إلى مصر؛ حتى لا يقبضوا عليه، أما أنا فلن يقبض عليّ هناك سوى الفقر بأنيابه المسنونة.. لا أحد يعلم معنى أن تأخذ من أمك خمسة قروش لتذهب إلى الكلية وتقضي بها اليوم.. ما جدوى مجانية التعليم إذا كان الطالب سيقضي اليوم جائعًا بعد أن يهضم سندوتش الطعمية، وعاجزًا عن شراء كوب شاي وسيجارتين من الكافيتريا؟ لا أحد يعلم معنى أن تذاكر لأبناء الهانم الذين تعمل عندهم أمك وتُدّرّس لهم الرياضيات مقابل أن تأخذ ملابسهم المستعملة.. المصيبة أنها ليست «هانم» حقيقية، هي مجرد موظفة زوجة موظف، لكن فقرنا هو ما صنع منها هانمًا! إذا كانت الحال ستستمر هكذا فالموت أفضل وأشرف بكثير. نظر إلى الجرائد المكومة وحاول أن يقرأ العناوين، وطبيعي أنه لم يفهم شيئًا، ولقد زاده هذا ضيقًا على ضيق.. ما الذي أتى بي إلى بلد لا أفهم لغته؟ إنني حتى لو حاولت الذهاب لطبيب نفسي لوقفت اللغة حائلًا بيني وبينه.. كيف أشرح له حالي وكيف أفهم علاجه؟ جلس مهدمًا على جرائده القابعة على الأرض ووجد دموعه تبلبل وجهه. أخذ ينظر إلى العابرين والمارين إلى جواره واغتصب ضحكة حزينة وهو يتذكر قولًا كان قد قرأه وأعجب به في السابق: إذا رأيت بالطريق شخصًا يبكي بلا سبب فاعلم أنه قد فهم كل شيء! اليوم يرى نفسه يبكي في الشارع لكنه متأكد أنه لا يفهم شيئًا، كل

ما يعرفه أن روحه تتألم. تساءل وسط أحزانه: تُرى هل أستريح وتتبدل حالي لو ذهبت إلى عادل وطلبت منه الصفرح.. أنا أعلم صعوبة الأمر، فهو بالتأكيد يراني نذلاً، ومع ذلك فليس هناك مَنْ يفهمني ويحس بي مثله.

قام من فوق كومة الجرائد ومضى كما هو مرتدياً جاكيت الجريدة الفوسفوري، ثم صعد إلى الترام متوجّهاً إلى محطة الأوبرا.. لم يفكر في جرائده المهذرة ولا موقفه مع الإدارة التي ستُحمّله ثمنها بالكامل، كل ما كان يشغله أن يذهب إلى مقهى جرايين بحثاً عن عادل.

دفع الباب ودخل ثم جاس بين الموائد متفحصاً الجالسين، لكن عادل لم يكن من بينهم. شعر بغضب عظيم وانتابته نوبة حنق جعلت الدم يغلي في رأسه. ما العمل الآن؟ جلس في انتظاره علّه يأتي في أي لحظة. كان يعلم أن هذا هو المقر الذي يحضر إليه معظم الأيام، لكن دون مواعيد محددة وإنما طبقاً لجدول مبارياته. أشار إلى النادلة يريد أن يسألها إذا كانت على علم بموعد حضور عادل. نظرت إليه من بعيد وخيّل إليه أنها تجاهلته؛ لأنها توجهت إلى الطابق الأعلى وعادت تحمل صينية عليها أكواب وفناجين. أشار إليها مرة أخرى دون جدوى. نظر إلى الجاكيت الذي يرتديه وقد ظن أنها تستهين به فقام إليها غاضباً ومضى في خطوات سريعة إلى حيث كانت تقف وظهرها إليه. أمسكها من كتفها في عصبية وأدارها نحوه: لماذا لا تردين عليّ؟ ألم تريني أشير إليك أكثر من مرة؟ هلعت الفتاة من سلوكه المفاجئ نحوها وارتجفت بشدة، ولكي تساعد نفسها على التماسك فإنها صرخت في وجهه مصوبة نحوه كومة من الشتائم القاسية.. وعلى الرغم من قلة حصيلته من الألمانية؛ فإن الشتائم والألفاظ النابية دائماً ما تكون معروفة حتى لمن لا يتقنون اللغة. بادلها صراخاً بصراخ وشتماً بشتم، حتى الرجفة التي اعترتها وهي تنظر إليه وتكيل له السباب انتقلت إليه فارتجف جسده بشدة، وبدا له المشهد الذي يعيشه كأنه جزء من عرض يتفرج عليه.. حتى الصفعة التي وجهها لها كانت صفعة سينمائية.. حتى البصقة التي خرجت من فمها واستقرت على وجهه كانت أيضاً جزءاً من الفيلم.. وما

دام الأمر ليس حقيقياً فما المشكلة إذا أطبق على عنقها بيديه ومال بها إلى مائدة قريبة فضرب رأسها في الخشب ورآها تصارع لتفلت منه دون جدوى، وأحس بها تتنفس بصعوبة وتحرك يديها في الهواء تستغيث، كما رأى في نفس الفيلم جمعاً من رواد المقهى والعاملين بها يسارعون إلى إلقاء أنفسهم فوقه مجاهدين حتى يفكوا يديه عن عنقها، وأحس بهم يضربونه في وجهه وفي كل أنحاء جسده، ويشدون من شعره ليبعدوه عنها، إلا أنه كان تواقاً لمعرفة نهاية المشهد بعد أن رأى لسانها يخرج متدلّياً من فمها وجسدها المزرق يسقط وجسده يسقط فوقها ويدها لا تزالان ممسكتين بالعنق الذي تحطم.

انتهى المشهد والفتاة مكومة وأبو الفتوح مكوماً إلى جانبها وقد ربطوا يديه وساقيه بالحبال في انتظار حضور الإسعاف والبوليس.

عندما حضر عادل كانت المأساة ترتسم كاملة في مقهى جرابين ورأى صديقه والأصفاذ في يديه يمضي نحو سيارة البوليس، والفتاة قد وُضعت في الكيس الأسود الخاص بحفظ الجثث. احتاج عادل إلى وقت حتى يفسر لنفسه ما يرى ثم وجد نفسه يندفع نحو رجال البوليس وهم يجرّون أبو الفتوح ويدفعون به داخل السيارة. حالوا بينه وبين الوصول للسيارة لكنه سمع محمد يصرخ ناحيته: لا تصدقهم وصدقني أنا.. أنا صديقك يا عادل.. جئت كي أصلحك والله.

(8)

أمسك عادل رأسه وهو يجلس داخل القطار المنطلق في المساء إلى تولن شتات والأسى يجتاح كيانه. لم يستطع أحد في المقهى أن يُقدّم له تفسيراً لما حدث.. جميع من حضروا الواقعة لم ينتبهوا إلا على أصوات شجار سريع وحشجة مع جسد يتهاوي وفوقه جسد آخر، مع يدين تأبيان أن تترك العنق الرقيق حتى تحطم. عندما ذهب إلى مركز البوليس لم يسمحوا له بلقاء محمد أبو الفتوح حتى يتحدث إليه

ويفهم منه حقيقة ما حدث، وعندما عاد للمقهى وجد عزت وسيد الأستورجي في انتظاره بعد أن داهم البوليس الشقة واستجوبهما بشأن ما يعرفان عن محمد وسلوكه وعلاقته بالقتيلة. أخبره عزت بالتدهور الذي لحق بشخصية أبو الفتوح في الآونة الأخيرة وبعجز الجميع عن التصرف معه. كان الوجود هو سيد الموقف، ولم يستطع عادل أن يُقدّم لهما ما يعين على تفسير ما حدث.. لقد أخذ البوليس أقواله هو أيضًا داخل المقهى وأخذوا عنوانه وسألوه عن علاقته بالقاتل، فلم ينكر معرفته به وإن أكد جهله بسبب الجريمة.

قال عزت: من الجيد أن سامي قد رحل إلى الريف مع فيرا منذ فترة ولم يعرف ما حدث.. لقد أصبح ارتباط شلة الشقة بجرائم القتل أمرًا عاديًا، ومَن يعلم سيكون الدور على مَن في المرة المقبلة! كانت كلمات عزت كافية ليحتقن وجه سيد ثم يجهد بالبكاء وهو يقول: وهل نسيت طه الذي فقدناه بالموت؟ نعم، لقد ضاع منهم حسنين، وبعده طه، ثم تلاهما محمد أبو الفتوح، وقد فوجئ عادل بسيد الأستورجي يقول له: بالله عليك يا أستاذ عادل، ابحث لنا عن محامٍ ينقذ أبو الفتوح ويقول إنه مجنون.. سأدفع كل ما معي وعزت أيضًا على استعداد، لكن أعدّه لنا. أثار الموقف أشجان عادل فأخذ يُرَبِّت على ظهره، ثم احتضنه مواسيًا.. إن سيد هو واحد من شركاء الحياة الضيقة والأيام العسيرة، ولا بد أن الظن به كمخبر محتمل يصلح للوشاية بزملائه.. في غير محله!

استمر عادل في أفكاره والقطار يقطع الطريق وشعر برثاء للمسكينة التي فقدت حياتها.. لقد ذكّرته (جين) التي راحت ضحية نوبة جنون لأبو الفتوح بحبيبته نادية من حيث كونها فتاة طيبة تدرس بالجامعة إلى جانب عملها بالمقهى، وتسعى لتعد لنفسها مكانًا لائقًا في المستقبل.. كان يعرفها منذ أصبح يأتي بانتظام ويتبادل معها الحديث الودي، وكانت تأتي له بالإفطار والقهوة إذا أتى صباحًا، ولم يخطر بباله أن تكون نهايتها بهذه العبثية على يد صديقه الذي لا يعرفها ولا تعرفه.. تُرى ماذا دار

بينهما قبل أن يتهور ويخنقها؟ أتراه حاول أن يتحرش بها؟ إنه لا يريد أن يظلمه، لكنه برغم ما كان منه فلا يخطر بباله إلا كصديق ضاعت منه البوصلة وتاه الطريق.

ماذا فعلت بنفسك يا أبو الفتوح؟ أما كنت تحلم بفتاة تصادقها؟ لماذا لم تعرض على (جين) صداقتك بدلاً من أن تُقدِّم لها الموت؟ إن مقاهي وبارات فيينا تزخر بالآف الفتيات ممن يسعدهن التعرف بشباب متعلم مثلك يا غبي، فلماذا سعيت وراء إيريانا في تولن شتات ثم وراء نادية، بينما غيرهن ممكناتٌ جدًّا؟

إن ما آلم عادل أكثر هو نداء محمد إياه والبوليس يجره: أنا جئت لكي أصالحك يا عادل.

كانت الأفكار تنهش رأسه في القطار، ومن بينها فكرة أنه لو كان قد حضر إلى المقهى قبل ارتكاب محمد للجريمة، وعرف بنيته للاعتذار والصلح لربما قبل اعتذاره.. صحيح أن صلحًا كهذا كان خليقًا بأن يقضي على علاقته بنادية، لكن أين هي نادية؟ إن ما يحسه الآن هو نوع من الحنين الجارف للصديق الذي ترك نفسه يغرق بينما لم يكن هذا محتمًّا.

(9)

رفضت جيرترود أن تذهب إلى المستشفى وأصررت أن تقضي أيامها الأخيرة في بيتها، فلم يجد الأطباء بدءًا من أن يكلفوا ممرضتين بالتناوب عليها لرعايتها وإعطائها الحقن المسكنة، وقد سبَّب التدهور الذي رافق حالتها حزنًا شديدًا لما جده بعد أن أحببتها وتعلقت بها وصارت إحداهما تزور الأخرى كل يوم تقريبًا، خاصةً بعد أن مات أورليش وانزاح الكابوس.

قالت ماجدة ودموعها تسبقها وهي تجلس إلى كرسي بجوار سرير صديقتها: لماذا بالله عليك أتيت وطرقت بابي وجعلتني أحبك وأتعلق بك بينما تحتضرين وتستعدين للموت؟ ألم يجدر أن تترفقي بي وترحميني من الحزن الذي سأقاسيه بعدك؟

صدرت عن جيرترود ضحكة واهنة وهي تقول: عندما قررت أن أتعرف إليك قبل عامين كنت أحمل أملاً كبيراً في الشفاء، لم يطف بخاطري أنني متجهة صوب الموت، ولقد أحببت وجهك الطيب منذ سكنت في بنايتنا، ثم لماذا تريدان أن تحرميني من صديقة تبكينني وأنا التي لا أحد سيحزن عليها؟ إن زوجي سيسعد في أول أيام الوفاة» لظنه أنه صار ثرياً، ثم سيعتريه غضب عارم وسخط شديد بعد أن يعرف أنه خرج صفر اليدين؛ أي أنه لن يذرف عليّ دمعة واحدة.. أتظنين يا ماجدة أنني لا أستحق دمعة ووردة على قبوري؟

قالت ماجدة تريد أن تبعتها عن سيرة الموت: هل تذكرين عندما صعدت معك بالسيارة إلى جبل كالينبرج وأبديت إعجابك بالبيوت الصغيرة والشاليهات المطلة على المدينة؟

- زفرت جيرترود وهي تتذكر: نعم أذكر، كما أذكر أنكِ قلتِ لي شيئاً عن شاليه يملكه هانز لا تعرفين عنه شيئاً.. لعلكِ تكوني الآن قد عرفتِ؟
- نعم عرفت، ولقد تولى المحامي حصر ممتلكات الرجل واستلمنا الشاليه بعد أن رفع البوليس الحصار عنه كونه مسرحاً للجريمة.. في البداية كنت خائفة من الذهاب هناك، لكن نادية وصديقاتها أقنعنني بالذهاب وقضيت بصحبتهن يوماً سعيداً هناك، والآن تقيم نادية معظم الوقت بالشاليه من أجل التركيز في المذاكرة وعمل الأبحاث الخاصة بالتخرج في جو هادئ.
 - هذه أخبار رائعة.

- ما رأيك أن تأتي معي لقضاء عدة أيام هناك لنجلس ونشرب الكاكاو، ونمد قدمينا أمام نار المدفأة في تكاسل، ثم نثرثر ونحكي حكايات طريفة؟
- أنتِ لا تثرثرين كثيرًا يا ماجدة، إنما أنا الذي لا أكف عن الحكي وأنتِ تكتفين بدور المستمع الطيب.
- أعدكِ لو تماثلتِ للشفاء سريعًا أن أغرقكِ في محيط من الحكايات، بل إنني سأروي لك ما نسميه عندنا حواديت، وسأقص عليك حواديت جدتي كما حكتها لي في الطفولة.
- أنا سعيدة من أجلكِ.. لقد صادفتِ أهوالًا في حياتك، وأظن أنه آن الأوان لتحظين بأيام هادئة.
- سأحظى بأيام حلوة وستكونين معي لتشاركيني إياها، فشدي حيلك وانهضي لنلهو ونلعب.
- لقد كانت لي أيامي الحلوة في السابق.. عرفت زوجي الأول في أثناء الحرب العالمية الثانية.. كنت فتاة صغيرة وكان شابًا وسيماً ومتحمسًا للرايخ الثالث، وكانت سعادته بضم ألمانيا لبلادنا شيئًا يثير دهشتي.. عشت معه في بحبوحة، وكان يتاجر في التحف واللوحات مع الألمان، وأغلب الظن أن نشاطه كان مشبوهاً، ومع ذلك فقد كانت أيامي معه لطيفة حتى لقي حتفه قرب نهاية الحرب.. لعلكِ لا تعرفين شيئًا عن هذه الأحداث يا ماجدة؟ قبل أن تجيب ماجدة كانت جيرترود قد أكملت: أنا أدري حجم الأهوال التي قاسيتها بسبب الحرب في بلادك، ولكن نحن أيضًا كان لنا نصيبنا من البؤس.. إنني ما زلت أتذكر السنوات العشر التي تلت الحرب وكانت النمسا واقعة تحت احتلال دول الحلفاء، ومثلما قسّموا ألمانيا فعلوا الأمر نفسه بالنمسا.. لا أحد من خارج بلدنا يعرف هذه الحقائق، لقد كانت منطقة وسط فيينا حيث أسكن تخضع لاحتلال السوفييت وآه من احتلال السوفييت.. إن أقاربي الذين كانوا يعيشون في سالزبورج كانوا أسعد حالًا تحت الاحتلال الأمريكي، لكن السوفييت عاملونا بخشونة وكأننا الذين غزونا بلادهم! ولقد ظللنا تحت هذا الوضع البائس حتى عام 1955..
- تعهدت النمسا بالحياد على الطريقة السويسرية؛ فرحل جنود الاحتلال وتنفسنا

الصعداء، ثم تعرفت إلى زوجي الثاني وكان يعمل في البريد.. كان رجلاً هادئاً حلو المعشر يحب القراءة واحتساء الشاي والحياة الرتيبة، لكنني فقدته بعد خمس سنوات في حادث سيارة. ومن حسن حظي أن زوجي الأول الذي كانت نازيته تفوق هتلم قد ترك لي أموالاً وممتلكات ما زلت أعيش منها حتى الآن.

قالت ماجدة: إن لديك مخزوناً وفيراً من الذكريات، لكن ماذا عن الزيجة الثالثة؟

- ظلت دون زواج لخمس عشرة عاماً، وكانت سنوات طيبة وهادئة حتى تعرفت بزوجي الحالي مجدي زينهم وكان بلا عمل وبلا مأوى، وبدا كأنه كان يبحث عن عجوز أحلامه التي ستسهل عليه المشوار، ولا أدري أي شيطان دفعني للموافقة على الزواج منه؟! لم تكن به أي مزايا! إنه حتى لم يكن يُحسِن الحديث بالألمانية؛ لذا فالتفاهم بيننا كان شبه منعدم.. قالت جيرترود هذا ثم انطلقت في ضحكات واهنة وهي تكمل: وهو الآن بالتأكيد يحلم بالاستيلاء على ميراث زوجي الأول الذي كونه من التجارة المشبوهة مع الرايخ الثالث!
- ألا تفكرين أيتها الماكرة في إعادة النظر بخصوص زوجك المسكين فتوصين له بما يعينه على الحياة؟

ازدادت ضحكات جيرترود وسعلت بشدة وهي تُلوّح بيدها قائلة: أراكِ تشغلين بالكِ كثيراً بمستقبل مجدي، ولو أنك عرفتَه لتغيّر رأيكِ.. وعلى العموم هو ينعم هذه الأيام بإيراد الشقق والمحل ولم يعد يحاسبني كما تعود. إنه يظن أنني غير واعية لما حولي، بينما أتركه بمزاجي يغرف آخر ما تطاله يده.. صدقيني يا ماجدة، هو محترف حياة ولن يُعَدَم وسيلة للبحث عن عجوز أخرى، ولعل الله يوفقه فينجح في نتف صوفها ونحل وبرها!

صحيفة ידיעות أحرونوت 8 يونيو 1981

- انطلقت المقاتلات الإسرائيلية في الرابعة عصراً من قاعدة «عنصبون» العسكرية في طابا بسيناء، وعبرت الحدود السعودية في الخفاء وهي تُحلّق على ارتفاع منخفض،

- ووصلت إلى العراق في الخامسة وثلاثين دقيقة.
- انقطع البث الإذاعي في عموم بغداد واستمر لمدة 15 دقيقة، كانت عملية القصف تتم خلالها بثماني طائرات مقاتلة قاذفة إف 16.
 - صدام حسين في موقع الحدث بعد نصف ساعة ويصاحبه أعضاء مجلس قيادة الثورة العراقية.
 - صدام يأمر بإعدام 14 ضابطًا وجنديًا لتقاعسهم في واجباتهم نحو حماية المفاعل النووي.

عاشراً

(1)

لم تجد نادية صعوبة في إبلاغ راينر صاحب بار «دولفين» الذي تعمل به وزوجته إيفا أنها ستتوقف عن العمل، وللحق فقد كانا متفهمين للقرار ومتوقعين له بعد أن انتفى احتياجها للمال، وقد أتاح لها التفرغ أن تنجح بتفوق وتخرج في الجامعة، ويتم اختيارها لتعمل مساعدة لأستاذ الأنثروبولوجي «رالف جينتشر».

كانت ماجدة متأثرة بوفاة صديقتها جيرترود، وقد صحبتها ابنتها إلى المقابر حيث وريت الثرى وقرأت عليها آيات من القرآن وهي تقف خاشعة أمام قبرها. كان الحضور قليلاً وهم في غالبيتهم من الممرضات اللاتي تناوبن على الفقيدة في شهورها الأخيرة.. والغريب أن زوجها مجدي زينهم لم يكن من ضمنهم.. تُرى هل عرف ما كان من أمر الوصية التي خلا اسمه منها؟ هكذا تساءلت ماجدة وهي تودع صديقتها للمرة الأخيرة، لكن ما بدا واضحاً هو أن مجدي قد غادر بعد أيام من وفاة زوجته الشقة التي كان يقيم فيها معها وذهب إلى حيث لا يعلم أحد.

رحبت تونيا ومادلين بدعوة نادية لهما للاحتفال بتخرجهن جميعاً، وكانت الدعوة بالأساس هي فكرة ماجدة التي أرادت أن تنسى الأحزان، وأن تفتح للفرح باباً فقررت إقامة حفل كبير في أحد الفنادق، لكن تونيا اقترحت أن يذهب جمعهم في رحلة إلى براتيسلافا بالمركب في نهر الدانوب ويتم الاحتفال في أثناء الإبحار. استأذنت تونيا في اصطحاب ماتيوس معها، وأرادت ماجدة من ابنتها أن تدعو عادل ليحتفل معهم.

كانت سعادة ماجدة بتخرج ابنتها تفوق سعادة نادية نفسها، ولقد أحست بأن أمنية زوجها الراحل مصطفى ضرغام قد تحققت، وهاهي ابنته تخطو على درب النجاح وتتغلب على

سيئات وطنها الطائفي، وتعلو فوق إرادة أمراء الحرب الأهلية، وتُفسيح لنفسها سكة لمستقبل واعد.

صارحت ماجدة ابنتها بأن وقفها مع عادل قد طالت دون داعٍ، وأن الشاب لم يفعل ما يُؤاخذ عليه. لم تنكر نادية على أمها شيئاً مما قالته وإن أضافت أنها تجهل سبب التراجع الذي تحسه تجاهه. قالت ماجدة: إن أردت رأيي يابنتي لا تخسري هذا الولد؛ حتى لا يذهب الله بنعمته التي أفاء بها عليك.. لقد أحببته عندما تلاقت أحوالهما المضطربة، لكنك بعد موت هانز أورليش وقرب تخرجك من الجامعة زال الاضطراب من حياتك بينما ظلت حياته على حالها، وربما أن هذا ما أشعرك بافتقار التوازن في العلاقة.

- ياه يا أمي.. من أين أتيت بهذا التعبير «افتقار التوازن في العلاقة»؟
- لأنني لم أريد أن أستعمل تعبيرات أخرى مثل الاستهانة بمن نحب والبطر بالنعمة.. إنني أربأ بك أن تكوني ممن يتخلون عن من يحبون إذا ما أنصفهم الله قبل أن ينصف الطرف الآخر.. لا تكوني من هؤلاء يابنتي.. صحيح أنك حرة في مشاعرك، لكني أعلم أنك تحبينه وكنت أنتظر لفترة التيه التي رافقت حصولنا على الثروة أن تنتهي، لكنها طالت بأكثر مما ينبغي، والولد ما زال ينتظرك.. إنه يزورني ويؤكد تمسكه بك ولا يريد أن يقتحم عليك «وقفتك»، ولذلك لا يحاول الاتصال بك، لكنها في الحقيقة لم تعد وقفة، وإنما تحولت إلى انعطافة حادة.
- لا أدري ماذا أقول.. لعلك على حق ورأيك هو نفس رأي تونيا، أما مادلين فطلبت مني أن أرى لنفسني رقيقاً آخر، ولست أؤيد مادلين في هذا؛ لأنني لا أبحث عن أحد.. حتى عادل لم أبحث عنه، وإنما هبط عليّ من حيث لم أحتسب.
- وهبوطه هذا كان بمثابة إشارة لا يجب أن تتجاهلها؛ حتى لا تتعرضي للعقاب والعياذ بالله يا حبيبتي.
- هل تعرفين يا أمي أنني أراجع موقفي مع ما أسمعته منك.. أنت فعلاً خير صديقة لي.. إنني لم أخبرك عن موقف رديء سبق أن تعرضت له من أحد أصدقاء عادل.. شخص كان عادل يحبه ويظنه مخلصاً أساء إليّ بشدة.. في ذلك الوقت كان حنقي على عادل

- بالغاً، ومع ذلك خشيت أن أغالي في ردة فعلي معه حتى لا أخسره.. كنت ضعيفة وخائفة فتمسكت به وسامحته، فهل يا ثرى أقوم الآن بمحاسبته بأثر رجعي بعد أن اشتد عودي ولم يعد بي ضعف؟
- حدّدي موقفك يا بنيتي ولا تطيلي التفكير، فقد يتسرب الحب منه إذا اعتاد غيابك وتحسنت أحواله، فصلاح الحال ليس منحة يهبها الله لنا وحدنا!
 - أنا أعرف أنني عائدة إليه، لكن متى؟ لا أدري.
 - رحلتنا في المركب العائم فرصة لتجديد اللقاء والود.
 - في هذه الرحلة لن نكون وحدنا، وقد لا يتوفر الجو المناسب للمصارحة وفتح القلوب على اتساعها.
 - هل يعني هذا أنك تراجعين موقفك؟
 - إنني أراجعه طوال الوقت، لكني الآن أقرب لما تريدينه لي يا سيدة نساء بيروت.

(2)

كان عادل يشعر بالحيرة إزاء ما يتوجب فعله لمساعدة محمد أبو الفتوح. بالتأكد موقفه القانوني شديد السوء، ومع ذلك لا بد أن ثمة مساعدة قانونية يمكن تقديمها لمن في مثل حالته. لقد تأثر كثيراً بمبادرة سيد الأستورجي ومعه عزت بالتكافل من أجل إيجاد محامٍ يتولى القضية، لكن مشكلة هؤلاء الرفاق أنه عندما تحدث كارثة لأحدهم فإنه بسبب بعدهم عن العالم الفعلي والحياة الحقيقية في النمسا؛ فإنهم يجدون أنفسهم في ورطة؛ إذ إنهم نجوم الهامش والجانب السفلي من المدينة، لا يعرفون سوى بيع الجرائد والتكدس في أماكن لا تصلح للسكنى، ولا يدرون شيئاً عما يحدث حولهم، فالجهل باللغة يعزلهم عن الصحف وعن التلفزيون فلا يعرفون حتى أخبار وطنهم. واليوم يحس عادل بالمسؤولية التي ألقاها سيد على كاهله. فكر في اللجوء للسفارة حتى تساعدهم في البحث عن محامٍ لمواطن مصري في ورطة، وفكر أن يأخذ معه عزت حتى يخيفهم بعضلاته وسحنته التي نالت منها اللكمات التي لا

ينفك يتلقاها كلما اشتدت حاجته للمال. قال لنفسه إنه ومعه عزت من الممكن أن يثيرا زوبعة في السفارة من أجل الحصول على المساعدة القانونية لأبو الفتوح، غير أنه بعد تفكير تراجع وغيّر رأيه، فأى مساعدة هذه التي يأمل فيها عن طريق الغباوة وقلب السحنة والتظاهر بالجنون؟ فضلاً عن أنه لم ينسَ بعد الانفعال الذي تعرض له عند محاولة شحن جثمان طه وكيف أن أنفه نزف عندما ماطلوه بالسفارة ولم يبدوا التعاون إلا عندما أوشك على الانهيار. اليوم لا يدري ماذا يكون شأنهم معه أو شأنه معهم إذا ذهب إليهم في مصيبة جديدة طالبًا أن يقوموا بواجب يشعر بتأفهم منه.

في ظروف أخرى كان سيلجأ إلى ناديه وأصدقائها؛ فهم جزء من المجتمع النمساوي العلوي ولا يحملون داخلهم خوفًا من البوليس مثله ومثل رفاقه الذين يحرصون على الحياة في الخفاء. بإمكان ناديه وأصدقائها الولوج والتفاهم والنفاذ إلى أصحاب الأمر حتى يأتوا على الأقل بأخبار أبو الفتوح، لكن كيف يفعل هذا الآن؟ إن ناديه لا تعرف شيئًا عن جريمة القتل التي ارتكبتها صاحبهم، وهو من جانبه تركها تطيل من وقفها مع نفسها ولم يتعجلها؛ لأنه كان يدرك بالبداية أن لقاءه بها سيعني أن يخبرها بما فعله أبو الفتوح، وكان بصراحة يخشى من تأثير خبر الجريمة على علاقته بها. لقد لامته على جريمة حسنين؛ رغم أنها كانت جريمة السعد والهنا التي خلّصتها وأمها من الأسر، فماذا يكون موقفها من جنائية أخرى ارتكبتها من كان يعدّه أعز الأصدقاء؟

شد الرحال إلى النادي المصري وكان من حظه أن التقى بالدكتور راتب وهو مهاجر مصري محترم لعب معه الشطرنج أكثر من مرة، وهو طبيب قضى معظم عمره في فيينا يحب لعب الشطرنج، وكان عادل يدخل معه في منازل، لكن كان يلاعبه بنصف رأس حتى لا تكون هزائم الرجل مروعة، وكان الدكتور راتب يفهم هذا ويضحك وهو يقول لعادل: قبل ظهورك هنا كنت سيد الشطرنج في النادي المصري بلا منازع، واليوم تضاءلت وعدت لموقعي الحقيقي. حكى له حكاية محمد أبو

الفتوح وطلب نصيحته فيما يجب عمله، فوعده بأن يتقصى الأمر ويرجع إليه بالنتيجة.

بعد يومين علم عادل بأن صاحبهم تم تحويله للمحكمة، وأن هذه قد عينت له محامياً ومترجماً ولم يعد هناك شيء آخر يمكن عمله. أراد عزت وسيد بعد أن أطلعهما عادل على الموقف أن يذهبا لحضور جلسات المحاكمة، لكن عادل لم يرَ داعياً للذهاب وطلب منهما التريث.

الآن وقد صدر الحكم بسجن محمد أبو الفتوح خمسة عشر عاماً بعد أن اعترف بالجريمة وفشل في تبريرها، وجد عادل أن زيارته واجبة. وبفضل الدكتور راتب عرف أنهم قد أودعوه في سجن «شتاين» الكائن بمدينة كريمس، وقد فسر الدكتور راتب اختيارهم لهذا السجن؛ لكونه مخصصاً للقتلة والجناييين المحكومين بأحكام مطولة، وأتى لهم بأيام الزيارة ومواعيدها، فتأهب عادل ومعه عزت وسيد لزيارة صديقهم. لا يدري عادل هل هو أمر غريب أن مشاعر الغضب والحق نحو أبو الفتوح قد زالت تماماً وأنه الآن يرثي حظه التعس ويدعو الله أن يعينه على أيامه بعد أن ضاعت الجامعة وضاعت الهندسة كما ضاعت من قبلهما أشياء أخرى؟

أخذوا القطار إلى مدينة كريمس على بعد 77 كيلومتراً عن فيينا، فقطع المسافة في نحو ساعة وربع، وهي مدينة صغيرة تقع إلى الجزء الشرقي من نهر الدانوب في مقاطعة النمسا السفلى، ويُعد سجن شتاين ثاني السجون من حيث الحجم في النمسا. على البوابة طُلب منهم ملء استمارة بها اسم السجين، كما طلب منهم ترك تحقيق الشخصية، فتركوا جوازات سفرهم، وعبروا بوابة إلكترونية، فوجدوا أنفسهم في صالة انتظار مربعة الشكل مزودة بمجموعة من المقاعد والمناضد عليها بعض المجلات والجرائد النمساوية، كذلك يوجد بها دورة مياه وجهاز آلي يبيع القهوة.

ظلوا بالصالة إلى أن حضر إليهم شرطي طلب منهم أن يتبعوه، فساروا خلفه عبر باب يفضي إلى فناء مكشوف ومنه إلى مبنى آخر، وهناك وضعوا في معصم كل منهم سوارًا من البلاستيك أُغلق بشكل جيد، وأشاروا لهم إلى باب صالة الزيارة، وكانت الصالة مستطيلة الشكل مساحتها حوالي عشرين مترًا تقسمها بالطول طاولة تمتد من باب دخول الزوار حتى الحائط الآخر القريب من باب دخول المساجين، وكان يقسم الطاولة حاجز طولي يرتفع حوالي ثلاثين سنتيمترًا إلى نصفين طوليين، وكل سجين له مساحة مترين تقريبًا من طول الطاولة، ويقابل كل سجين زواره ويكون في مواجهتهم على الجانب الآخر من الطاولة.

أقبل أبو الفتوح بملابس السجن الزرقاء، فجلس قبالتهم وكانت لحيته كثيفة ووجهه شديد الشحوب، مع هزال في الجسم لم يعهدوه فيه. اندفع عزت وسيد يُحدّثانه في لهفة، ويسألان عن أحواله؛ فاغتصب ابتسامه وطمانئهما بأنه بخير وأن المحامي أخبره بأنه سيستأنف الحكم؛ أملاً في تخفيض العقوبة. ظل عادل صامتًا وكأنه لا يعرف ماذا يقول، فبادره محمد بالقول: لم أعتقد أنك ستأتي لرؤيتي. وهنا انبرى عزت متسائلًا: كيف يا رجل تتصور ذلك وهو أكثر من تحرك فينا بغية مساعدتك.. ربما لم نستطع عمل الكثير، ولكن لولا عادل ما عرفنا مكانك. قال أبو الفتوح: هذا هو عادل عبد العزيز الذي أعرفه.

ظل عادل ينظر إليه وشريط من الذكريات يمر أمام عينيه منذ التقاه للمرة الأولى بمحطة ويست بانهوف، بينما أخذ محمد يثرثر مع عزت وسيد حول الحياة في السجن ونوع المعاملة وعلاقته بالسجانين، وفجأة نطق عادل قائلاً: لماذا؟

وكانما كان محمد ينتظر السؤال؛ إذ نظر إلى صديقه باسمًا: كنت أعرف أنك ستحتار فيما حدث.. لا بأس يا عم عادل، أنا حيرتي تفوق ما لديك، ولو كان عندي سبب لشرحته لجهات التحقيق وللمحكمة التي حاولت عبثًا أن تفهم السبب.. قتلت البنت المسكينة لأنها وقفت في المكان الخطأ وقت العاصفة، ومع هذا أنا أسجل اعتذاري

الذي لن يفيدها.. وأؤكد لك يا صديقي أنني لو قابلتك في حياة أخرى فأعدك بأنني سأكون أفضل مما كنتُ في هذه الحياة التي شارفت على نهايتها.

نظر عادل إليه مفزوعًا فأَمَّن محمد على الكلام: هل ظننت أنني سأقضي كل هذه السنوات بالسجن؟ لا، لن يحدث. لم يفهم سيد ما يقال، لكنه أحس بأن محمد يتفوه بأشياء سيئة، فبادره مشجعًا: من الممكن تخفيف الحكم في الاستئناف وأعرف أيضًا أن حسن السير والسلوك يجعلهم يخفزون المدة.. كل هذه أشياء في صالحك. أمسك محمد لحيته بيده وأخذ يتحسسها قبل أن يقوم واقفًا ويعطيهم ظهره مغادرًا الغرفة.

بعد أيام قليلة قرأ النمساويون خبرًا صغيرًا في صفحة الحوادث يشير إلى انتحار سجين مصري كان يقضي محكوميته بسجن شتاين في مدينة كريمس، وذلك بأن صنع عقدة متينة -مستخدمًا البطاطين- وربطها بالسقف، ثم شنق نفسه!

عرف عادل بالخبر من الدكتور راتب وداهمه شعور جارف بالحزن والحسرة، فترك النادي المصري مسرعًا ولم يستجب لنداء الدكتور راتب وهو يطلب منه البقاء، وانطلق إلى الشارع يبكي بكاءً مريزًا.. يبكي كما لم يبكي من قبل.. لا يستطيع أن يزعم أنه مصدوم، فلقد ألمح محمد إلى هذه النهاية عندما زاروه، لكنه كان يشعر بهوان الدنيا لدرجة أنه تمنى الموت. محمد أبو الفتوح كان ينقصه القليل لينجو، لكنه لم يحصل على هذا القليل.. هذه الدنيا الظالمة قست على الصديق الشاب فعصرته عصرًا؛ لدرجة أنه استسلم للمصير أو أنه سارع إليه يتعجله ويرجوه دنوًا.. إنه لم يقابل من قبل من يطاوله ثقافةً ولماحيةً وخفة دم، ومع ذلك كان تقديره لنفسه محدودًا وثقته بالآخرين منعدمة، ولم يُطق صبرًا على الظروف، مع أن انتصاره عليها لم يكن إلا صبر ساعة.. ساعة واحدة كان سيجد نفسه بعدها قد تخرَّج وأصبح

مهندسًا، ووقتها كان سيجد من الشركات مَنْ تطلب تعيينه ومن الفتيات مَنْ تسعد به، فلماذا نفدت طاقته وخارت قواه في المتر الأخير من السباق؟

كان عادل يكاد يُجن وهو يستعرض الأمر في ذهنه، محاولاً أن يجد له منطقاً.. ازداد نحيبه وهو يفكر أن التقاء محمد به وتعرفه إليه كان من أسباب موته.. لو لم يقابله لظل يبيع الجرائد مع حسنين وعزت، ولقضى معهم أياماً طالت أو قصرت حتى يعود لمصر بقرشين ويعاود دراسته.. لقاؤه به قاده لمعرفة ناديه وصدقائها ولمعرفة إيريانا، ولو لم يكن عادل في حياته لظل مع رفاقه بشقة شارع السلزاخ دون أن يحلم بأكثر من اللقمة والنومة. «لقد ذهبْتُ إليه ليلة قابلت ناديه للمرة الأولى؛ لأنني لم أكن أثق بغيره ولم أكن أحب غيره، ولقد دعوته إلى تولن لنفس السبب وكنْتُ على استعداد لأن أشركه في السكن معي.. إنني لم أقصد أن أتباهى أمامه بأي شيء؛ لأنه لم يكن بدنيّتي البائسة ما يستحق التباهي، وكنْتُ أظنه مثل أصدقائي الفقراء الذين تركتهم بمصر.. نعم، كل أصدقائي بمصر من الفقراء مثلي، لكن يبدو أن الغربة تعزز المشاعر السلبية داخل النفس، خاصةً لدى مَنْ كان حساسًا وهشًّا من الداخل.. الله يرحمك يا أبو الفتوح.. الله يرحمك يا صاحبي».

(3)

كان اليوم مشمسًا، والسفينة تشق النهر في الطريق إلى براتسلافا، وعلى الجانبين تظهر القرى الخضراء والبيوت الصغيرة، أما الركاب فقد اتخذوا أماكنهم على السطح، وكانت المقاعد الوثيرة والطاولات المتراسة في تناسق تدل على ذوق واهتمام، ومن الواضح أن ناديه قد اختارت من المراكب أفخمها، وطلبت في حجز مسبق أن يتم إعداد تورتة كبيرة مع وجبات مخصوصة وطاولة تم تزيينها للاحتفال بالمناسبة السعيدة.

كانت الفتيات الثلاث منطلقات في مرح يليق بمن تخرجن من الجامعة ولم يعدن طالبات، وإن كانت نادية في ارتباطها الأكاديمي بالجامعة ستظل تدرس على الدوام. حضر ماتيوس بصحبة تونيا ولم تشأ مادلين أن تأتي بوالديها كما طلبت منها نادية وأتت وحدها. أحست ماجدة وهي تنظر في المرآة في دورة المياه بالمركب أنها صغرت عشر سنوات، وانعكس شعورها بالسعادة على صفحة وجهها الذي استعاد تألقه ونضارته؛ فبدت جميلة على نحو لافت، وما زاد من حسنها وفتنتها أنها لم تتردد في مشاركة الفتيات الرقص عندما بدأت الفرقة الخاصة بالمركب في عزف الموسيقى والأغنيات الشهيرة. تجمعت الفتيات والشباب من الركاب وسط الحلبة ودارت الأغنيات الحديثة لجلوريا جاينور، وتينا تشارلز، وفريق الآبا، وفريق البوني إم.

كانت نادية تراقص أمها في فرحة عارمة وهي لا تكاد تصدق أن تخرُجها قادر على إزالة اليأس وإخراج طاقة البهجة المدفونة تحت طبقات الحزن الطويل لدى والدتها.

بعد الرقص هدأ الجميع وجلسوا حول طاولتهم يتناولون طعام الغداء، وأبدى ماتيوس ملحوظة حول غياب عادل صديق نادية، فسارعت الأخيرة بالإشارة إلى أنه مشغول في عمل مهم ولم يستطع المجيء. من الواضح أن تونيا لم تخبر صديقها عن الوقفة التعبوية التي تتخذها صاحبته، لكن لم يلبث ماتيوس أن سأل أيضًا عن صديق عادل الذي قابله في العام الماضي (يقصد أبو الفتوح)، وقد أفاض ماتيوس في امتداحه والثناء على ذكائه وثقافته.

في أثناء الغداء لمحت نادية من يُحدِّق فيها من بعيد، ويبدو أن الشمس كانت في عينيه، فرفع يده يتقيها ويواصل التحديق، وعندما تأكد من هوية من يطالعها فقد سار بهدوء متجهًا نحو طاولتهم، ولما اقترب أدركت نادية ومعها تونيا ومادلين أنه أستاذهم بالجامعة البروفيسور عاطف جعفر.

حياتهم فحيوه ودعوه للجلوس معهم، فأخبرهم أنه سيكمل غداءه ثم يعود ليشاركهم الشاي إذا لم يكن في وجوده تطُّل. أكدوا أنها صدفة طيبة وأن وجوده يسعدهم. في انسحابه لمح ماجدة تجلس في آخر الطاولة فحياها بهزة من رأسه ومضى.

لم تكن نادية تشعر نحوه بأي غضاضة؛ بالرغم من عرضه العجيب الذي قدّمه لها في السابق؛ لأنه بعد أن تعرض للرفض القاسي من جانبها لم يكرر المحاولة، والأهم لم يضطهدا أو يجعلها ترسب في مادته.. واليوم بعد أن صارت زميلة له ضمن أعضاء هيئة التدريس تلتقيه على سطح السفينة.

عاد عاطف جعفر فجلس معهم، وقامت البنات بتقديم ماجدة وتقديم ماتيوس إلى الضيف. هنا تلميذاته بالتخرج ودار الحديث حول مشروعات كل منهن للمستقبل. أكدت مادلين أنها في سبيلها لافتتاح مشروعها الخاص، وهو مركز للتجميل تقوم بتجهيزه في لاند ستراشه.

أبدت تونيا حيرتها وهي تنظر نحو ماتيوس الذي هز كتفيه بدوره وهو يقول: أنا ليس لي علاقة بما تختارينه لمستقبلك، ومستعد لمساندتك في أي قرار تتخذه. قالت تونيا: الدراسة التي تخصصنا فيها لا تترك لنا خيارات كثيرة، فمعظم الزملاء قد التحقوا بجماعات بحثية ستنتقل إلى أفريقيا وأمريكا الجنوبية؛ لتدرس على الطبيعة «الإنسان» الذي عاش هناك من آلاف السنين وتربط بين الماضي والحاضر، لكنني شخصياً سأقنع بوظيفة في مكتبة الجامعة لو قبلوا طلبي الذي تقدمتُ به. نظر جعفر نحو نادية التي بادرت قائلة: أظنك تعلم أنني سأكون مساعدة للبروفيسور رالف جينتشر، فقال: نعم أعلم، وأتمنى لكَّ جميعاً التوفيق.

بدأ ماتيوس يتحدث عن التحولات في العالم وتشعب الحديث، فتطرق إلى الثورة الإيرانية فوجدت نادية نفسها تنظر تلقائياً نحو جعفر وهي متأكدة أن حديثاً كهذا سينال اهتمامه، وبالفعل أثنى البروفيسور على ما يحدث في الشرق الأوسط من تغييرات، وإن كان قد تحفّظ على مسألة الرهائن الأمريكيين الذين يحتفظ بهم

الطلبة الإيرانيون في مقر السفارة التي سيطر عليها الطلبة، وأكد أن هذا الحدث سيترك ندوبًا في الروح الأمريكية ولن تصفو أمريكا للإيرانيين بعد ذلك أبدًا. أبدى ماتيوس دهشته من هذا الرأي القاطع؛ لأن السياسة الأمريكية معروفة ببراجماتيتهما وتخليها عن العناد في سبيل المصلحة، لكن جعفر أضاف أن هذا الأمر يختلف، خاصةً وأنه صادر عن سلطة تسمى أمريكا بالشيطان الأكبر، وتؤكد أن العداء للأمريكان هو أساس شرعيتها. ويبدو أن هذه الصدفة قد أسعدت ماتيوس، فانطلق يسأل عن رأي الأستاذ في الرئيس الإيراني أبو الحسن بني صدر، وما إذا كان سيستمر في الرئاسة، خاصةً وأن الدستور الإيراني الجديد يضع الخوميني فوق الرئيس المنتخب ويمنحه سلطة عزله؟ أوضح جعفر أن بني صدر هو أحد تلامذة الخميني، وأنه كان يقود مظاهرات طلاب الجامعة في أوائل الستينيات، وقد رحل إلى فرنسا مع إمامه، وعاد معه بعد انتصار الثورة وهروب الشاه، ومع ذلك فإنه يعتقد أن السبل ستتفرق بينهما في المستقبل، خاصةً وأن بني صدر يميل إلى عدم تصعيد الحرب ضد العراق، على العكس من الإمام الذي يراها جهادًا مقدسًا!

وصلت السفينة إلى براتيسلافا فنزل الركاب ومُنحوا جولة حرة مدتها ثلاث ساعات قبل أن تعاود الإبحار عائدة إلى فيينا عند الرابعة والنصف. انطلقت تونيا ومعها ماتيوس إلى الحي القديم من المدينة، أما نادية فقد لاحظت أن الدكتور جعفر يتودد إلى والدتها، وأن ماجدة تستقبل مودته بارتياح وأن حوارًا بينهما قد بدأ واتصل، فنحّت نفسها جانبًا وتعمدت ومعها مادلين أن تختفي وتُفسح لهما المجال، وركبت الحافلة ومعها صديقتها لتطوف بهما حول المدينة.

تواترت زيارات عادل في الفترة الأخيرة للنادي المصري بفيينا وأصبح وجهًا مألوفًا بالمكان؛ ذلك أنه قرر أن يوسع الدائرة التي كانت قد ضاقت كثيرًا بتشتت شمل فريق

شارع السلزاخ وذهب كُلاً في طريق، بالإضافة إلى نادبة التي أوغلت في التناهي وطل غيابها حتى إن عادل أصبح يستحي من زيارة ماجدة؛ خشية أن تعود ابنتها وهو موجود.. وحتى محرز المغربي أصاب الشرخ علاقته به، حتى إنه أصبح يأخذ الطريق الخلفي الموازي للسكة الحديد بعد أن يخرج من المحطة؛ حتى لا يلتقي به إذا ما سار في الشارع الرئيس بالبلدة حيث يسكن محرز. أصبح الشطرنج يحقق له دخلاً طيباً بعد أن ذاع صيته وزاد جمهوره، لكن هذا ألقى عليه عبئاً تدريبياً أكبر بعدما أصبح يواجه أبطالاً بمعنى الكلمة وليس مجرد هواة.

في النادي المصري توطدت علاقته ببعض الشخصيات ذات الاحترام، على رأسهم الدكتور راتب الذي وجد مشتركات تجمعهم به. ولعل وجود الدكتور راتب بعقليته المتفتحة وخبرته ووعيه السياسي جعل شعور عادل بالغرابة يقل، خاصةً وأن الرجل كان يعارض الخط السياسي الذي ينتهجه السادات، وقد وجد -على العكس من غيره- في الغارة التي شنّها الطيران الإسرائيلي ضد المفاعل النووي العراقي دليلاً على أن السادات لا يعرف جيداً هذا العدو الذي وقّع معه معاهدة صلح غافلاً عن نواياه وأفعاله التي شق بها العرب الذين لم يكونوا بحاجة لمزيد من دواعي التشظي والانقسام. ذكر الدكتور راتب أن مناحم بيجن قد تعمّد قصف المفاعل العراقي بعد اجتماعه بالسادات في بئر سبع؛ ليوحي للجميع بأن الرجل قد شاركه في خطة الاعتداء، أو على الأقل لم يمانع!

في النادي المصري كان عادل يجد الصحف والمجلات المصرية التي كانت تتوافر بعد صدورها بيومين أو ثلاثة، وعندما كان يذهب لشرائها من المكان الوحيد الذي يبيعها بالنمسا، وهو البوتيك الموجود داخل فندق هيلتون في لاند ستراشه ولا يجدها- كان يعرف أن النادي المصري قد اشتراها.

وعلى الرغم من قدرة عادل على الانتقال والسكن في فيينا بعد أن زاد دخله؛ فإنه فضّل البقاء في البلدة الهادئة «تولن»، خاصةً بعد أن زوّد غرفته ببعض الأثاث الجديد

واشترى جهاز تلفزيون.

فوجئ ذات صباح بجرس الباب يدق، فنهض من سريره وفتح ليجد محرز يقف مبتسمًا، وهو يقول: بحثت عنك لعدة أيام، لكن يبدو أنك لا تتواجد كثيرًا هنا.. عندي أخبار لك حتى لا تقول إنني أخبئ أخباري عنك.. أنت صديقي يا عادل؛ لهذا أود أن تكون أول من يعرف أنني عقدت العزم على الزواج.

انفجرت أسارير عادل قائلاً: ألف مبروك يا شقيق، هذا خبر رائع. رد محرز: وأود أيضًا أن أصطحبك إلى البيت عندي لتُسلّم على أمي التي حضرت من المغرب بصحبة أخي الأكبر لحضور ومباركة الزواج. قال عادل مبتهجًا: وهذا خبر أجمل ولو كانت الست الوالدة ستطهو لنا الكسكس المغربي فسأحضر حالًا. بشّره محرز بأن الكسكس موجود بالفعل، وما عليه سوى المجيء معه. قال عادل: سأجيء خلفك بعد أن آخذ حمامًا سريعًا.

جلس عادل يتناول طبقًا كبيرًا من الكسكسي باللحم والخضر والزيتون والبرقوق المجفف أعدته الحاجة والدة محرز التي بدت أمًا عربية تشبه الأمهات على امتداد خريطة العرب، وقد اهتمت بعمل أكثر من صنف احتفالًا بولدها.

قال محرز: أراك لم تسألني عن العروس! أجب: ليس لي أن أسأل، فضلًا عن أنني لا أعرف أحدًا في المغرب حتى أتنبأ أو أتوقع بمن تكون. ضحك محرز مقهقهًا: أي مغرب يا رجل؟ إنني سأتزوج إيريانا.. نعم، إيريانا جارتك التي تزعجك بحوارها الذي لا ينقطع مع نفسها.

شعر عادل بالارتباك ولم يعرف هل يضحك أو يصمت، لكنه قال: على العموم منذ مدة لم يعد صوتها مسموعًا، ويبدو أن حوارها مع نفسها انتهى، ولم يعد هناك ما يقال!

ازداد ضحك محرز ولمعت سنته الذهبية وهو يقول: لقد نجحت في ضبط مسامير مخها، وبعد أن اتزنت لم أجد خيراً منها زوجة.. بارك لي يا صاحبي. قام عادل فعانقه متمنياً له السعادة.

كانت فرحة محرز بادية وضاعف منها حضور والدته من الدار البيضاء، ولهذا أخذ يقدم لصاحبه أصنافاً من الحلوي بعد أن قام بتشغيل أغاني مغربية تراثية خاصة بالأعراس، ومع ذلك لم يشعر عادل برغبة في البقاء لفترة أطول فاستأذن وقام معه محرز يوصله للخارج، ثم أمسك بذراعه وهو يسير إلى جانبه في الطريق قائلاً: أمي كانت رافضة تمامًا لفكرة الزواج بأجنبية.. هي كما ترى امرأة تقليدية من الجيل الذي يعتز بزواج المرء من ديرته، ويرى في الزواج من خارج البلاد شكلاً من أشكال العقوق، ولم ترضخ إلا بعد أن هددها بالأ تزوج إلى الأبد.

قال عادل: المهم أنها رضيت ومنحتك بركاتها. ضحك محرز قائلاً: أشك في موضوع البركات هذا.. لقد جاءت منذ أسبوع بصحبة أخي الذي رفض أن أذهب لانتظارهم بالمطار.. وصلا واستقلا القطار الذي أوصلهم إلى هنا، وسأل أخي عن العنوان وعندما دق الجرس قمت ففتحت لهما وكانت إيريانا معي بالبيت. دُهِشت أمي لرؤية العروس معي بالبيت من قبل الزواج مرتدية قميص نوم، وعزز هذا فكرتها عن الأجانب المنحليين! ضحك عادل قائلاً: الحمد لله أنها لم تسمع من خلف الباب الأصوات التي سمعتها ذات ليلة بينما كنتُ مشتبكاً مع حبيبتي في جولة من الغرام الحميم! وجم محرز للحظات، غير أن عادل عاجله بالسؤال: وماذا فعلت والدتك عندما رأت العروس معك بالبيت؟ رد محرز: تولى أخي إقناعها بأن الدنيا تغيرت وأن الزواج يَجِبُ ما قبله، وهي الآن تخفي امتعاضها وتتظاهر بالسعادة من أجل خاطري.

- المهم أن تكون أنت سعيداً.
- أنا سعيد فعلاً.. لقد خطبت ابنة بلدي فلم تحتل الانتظار وطعنتني، سأخوض التجربة مع إيريانا، ولعلها تكون العوض.

- أظن أنك تعرفها جيداً وقد سبق لك أن رأيت إعراضها عن المعجبين واختبرت صمودها في وجه محاولات الإغواء.. هي فعلاً امرأة طيبة، وجميلة أيضاً.
- سنذهب غداً لإشهار الزواج بالمركز الإسلامي في فيينا؛ من أجل إرضاء أمي، وبعدها نذهب لمكتب التوثيق المحلي لإتمام الوثيقة بشقيها الإسلامي والمدني.. إذا أردت أن تأتي معنا فسيكون هذا من دواعي سرورنا.
- بالتأكيد سأتي معكم.

جريدة الأهرام يوم 6 سبتمبر 1981

- إعلان ثورة العمل الداخلي.
- السادات يعلن قرارات وإجراءات المواجهة الشاملة للقضاء على الفتنة الطائفية.
- إلغاء القرار الجمهوري بتعيين البابا شنودة بطريركاً للأقباط.
- تشكيل لجنة من 5 أساقفة للقيام بالمهام البابوية.
- التحفظ على 1536 شخصاً تُذاع أسماؤهم اليوم وإجراء تحقيق سياسي معهم.
- لجنة عليا برئاسة نائب الرئيس للحفاظ على الوحدة الوطنية ومقاومة التعصب والإلحاد.

حادي عشر

(1)

لاحظ عادل أخبارًا بالتلفزيون النمساوي يتكرر فيها اسم السادات مقروناً بصور من خطبة ألقاها وكان متوتراً في اللقطات التي أُذيعت، كما عرضت برامج الصباح الإخبارية عناوين صحيفة «الكوريير» و«الكرونيك تسايونج»، وبدا فيها اسم وصورة السادات بشكل ملحوظ.

ارتدى ثيابه وأخذ القطار إلى فيينا متجهاً صوب النادي المصري وهو المكان الوحيد الذي سيجد به مَنْ يعلم ماذا حدث بمصر، وما سبب تركيز العالم على أخبار السادات هذا الصباح. لقد انتهت مفاوضاته مع الإسرائيليين منذ أكثر من عامين، وقام بتوقيع الصلح معهم، وبهذا تلاشت أخباره من الميديا العالمية، ولكن يبدو أن إيمانه للأضواء يدفعه إلى المزيد من الأفعال الصادمة؛ حتى يجد لنفسه مكاناً على صفحات الصحف وأخبار التلفزيون.. ثرى ماذا فعل هذه المرة؟ هكذا كان عادل يُحدث نفسه والقطار يمضي في طريقه.

في النادي المصري وجد نقاشاً وهياجاً بين المصريين الموجودين هناك، وبرغم أن الغالبية كانت غاضبة، فإن هناك مَنْ أبدى السعادة لقرارات السادات وعدّها بمثابة ثورة تضع أعداء الوطن عند حدودهم! وسرعان ما عرف عادل أن هذه القرارات كان على رأسها الزج بعدد 1536 شخصاً من السياسيين والحزبيين والإعلاميين والأدباء والمفكرين في السجن الذي قامت أجهزته الأمنية بتدليله وسمته «مكان أمين».

كان الدكتور راتب على رأس المنفعلين، وقد جلس وسط جمع من أصدقائه. عندما لمح عادل دعاه للجلوس معهم، ثم أكمل حديثه: هذا الرجل لا ينوي أن يتوقف عن التهريج الذي

لم يعد يُضحك أحدًا. لقد أدمن ما يسميه بسياسة الصدمات الكهربائية ويظنها سياسة
حكيمة، دون أن يفهم أنها قد تقضي عليه.. لقد سجن مصر بأكملها من اليمين واليسار
والوسط والإسلاميين والمسيحيين.. لم يترك أحدًا ذا قيمة أو حتى نصف قيمة خارج
السجن، ويظن أنه بهذا قد درأ خطر الفتنة الطائفية وثبت كرسى عرشه بمسامير فولاذية،
مع أن هذه الفتنة لم تنشأ إلا برعايته، ولم تخرج إلا من معطفه عندما أفسح المجال
للسعوزة والتطرف والتعصب، وترك رجاله يقومون بشحن من سماهم المجاهدين ليحاربوا
الإلحاد في أفغانستان، وظن أنه بإرضاء الأمريكان والإسرائيليين قد حيد أعداءه من أهل
اليسار، وضمن لنفسه مقعدًا ساميًا عند الغرب.. كل حساباته خطأ ولسوف يدفع الوطن
المزيد من الأثمان المرتفعة نتيجة هذه الحماقات. زاد انفعال الدكتور راتب وهو يرد على
بعض المؤيدين للسادات قائلًا: يا أصدقائي، يا أولاد الحلال، إن ما يفعله هذا الرجل هو أنه
يضع حاجزًا أبدياً بيننا وبين مصر.. إنني شخصيًا لا أحتاج إلى شيء من هناك؛ فأنا
وزوجتي وأبنائي نمساويون، لكن كان عندي أمل أن أعود في يوم من الأيام لأحظى
بالتقاعد في قريتي الصغيرة، ولكن الآن لا أمل في شيء من هذا بعد أن بذر هذا الرجل
بذور الشقاق الذي سيحرق الوطن.

قام عادل مثل القلب وغادر النادي المصري متوجهًا إلى مقهى جرابين؛ حيث كان على
موعد مع مباراة مهمة، وظل طوال الطريق يفكر في كلام الدكتور راتب. إن الرجل وهو من
هو علمًا ومنصبًا ومكانةً يجد أن ما يفعله السادات سيحول بينه وبين العودة للتقاعد في
مصر التي لن تكون كما عرفها.. ماذا يقول عادل عبد العزيز الذي قضى بالغبرة نحو ثلاث
سنوات مترقبًا تغيير الأحوال حتى يعود في الأمان ويلحق ما فاتته؟ إن الأمور تزداد سوءًا
والضوء الذي ظنه بعض المتفائلين موجودًا في نهاية النفق ما هو إلا كشاف القطار المقبل
الذي سيدهس السائرين نحو الضوء!

فاجأه أن وجد عزت ومعه سيد ينتظرانه داخل المقهى. حياهما في توجس قائلًا: خير يا
ولاد الحلال؟ إنني لا أراكم هنا في ظروف طبيعية أبدًا.. ما المصيبة الجديدة التي
تحملانها؟

بادر عزت وقد علت وجهه ابتسامة: قبل الحديث عن المصائب أحببت أن أقول لك خبرًا عن مجدي زينهم.. هل تذكره؟ رد عادل: طبعًا أذكره.. أليس هو السخيف الأعرج الذي كان يهبط عليكم في الشقة كل ليلة ليشجيكم بمقطوعاته الكاذبة عن قصة كفاحه وتحقيقه للثراء والمكانة في الغربية؟

هو بعينه.. أجاب عزت، ثم أضاف: الجديد أنه يسكن معنا الآن في نفس شقة شارع السلزاخ بعد أن ماتت زوجته وأوصت بثروتها وممتلكاتها جميعًا لإحدى جمعيات رعاية مرضى السرطان وحرمته كل شيء؛ فوجد نفسه بلا عمل أو مأوى! صاح عادل: يا إلهي، لقد التقيته قبل فترة وأقسم لي أنه سيشردكم ويطردكم خارج البلاد. قال عزت: لقد عاد إلى بيع الجرائد من جديد، ويقف الآن بجوار سيد في نفس الإشارة.. أليس كذلك يا أبو السيد؟

قال سيد متجهماً: كفى كلامًا عن مجدي زفت.. لقد جئنا اليوم لأمر آخر أردنا أن نستوضحه منك، ولو كان المرحوم أبو الفتوح موجودًا ما كنا أزعجناك؛ لأنه كان سيشرح لنا كل شيء. وجف قلب عادل لدى ذكر أبو الفتوح ولان لسيد فقال يسترضيه: اعتبرني أبو الفتوح وسل ما شئت يا صديقي العزيز. قال سيد: هل علمت بما فعله السادات؟ والله ما جئنا إلا لنفهم منك أصل الموضوع.

ردد عادل النظر بينهما غير مصدق. ما الذي حدث في الدنيا ليهتم سيد الأستورجي وعزت السمكري بما يفعله السادات؟ لقد حضرا معه بالنمسا كل ما حدث في السنوات القليلة الماضية ولم يلمس من أيٍّ منهما اهتمامًا بأي شأن سياسي أو عام.. كانوا وغيرهم موجودين والسادات يفتح أبواب الاستيراد الترفي ويقتل الصناعة ولم يهتموا.. كانوا وغيرهم معه والرجل يمحو القرارات الاجتماعية لسلفه الخاصة بمراعاة حقوق الفقراء ولم يبالوا، وكانوا هنا والسادات يفاوض في كامب ديفيد ويُسلمّ لمناحم بيجن بما كان يمكن الحصول عليه دون أن نضطر لخوض حرب، وكانوا وغيرهم معه والسادات يُوقَّع صلحًا يتيح للإسرائيليين دخول سيناء بالبطاقة الشخصية وكأنها عذبة أبيهم! كل هذا حدث دون أن يثير اهتمامهما أو يلفت انتباههما أو يجدا فيه ما يدفعهما للغضب.. الوحيد الذي كان

يدرك فداحة ما يحدث هو المرحوم أبو الفتوح، وإن كان قد وَّظن نفسه على النظر
بلامبالاة إلى كل الأحداث السالفة باعتبارها لا تخصه!

ما الحكاية يا سيد؟ وما الذي يضايقك اليوم؟ هكذا سأله عادل. قال سيد: يقال إنه أدخل
الناس المهمين كلهم السجن، وإنه سجن الشيوخ والبابا شنودة.. فهل هذا صحيح؟

كان اهتمام سيد وعزت بالأمر مؤشراً على أن هناك خطباً يفرق عن كل ما سبق، والأمر لا
يحتاج إلى دليل.. إن مجرد اهتمام اثنين من الصنایعية من أصحاب الاهتمام المهدوم
بالسياسة بالموضوع يشي بخطورته؛ بصرف النظر عن أي اعتبار آخر.

(2)

عندما عادت ماجدة مع ابنتها من رحلة المركب التي سافرا فيها بصحبة الأصدقاء إلى
مدينة براتيسلافا كانت عيناها تلمعان على نحو غير معتاد. لم تستطع نادية أن تتجاهل
الصورة التي كانت عليها والدتها في ذلك اليوم. لقد ذكَّرتها بماجدة توتونجي البيروتية
الحسنة التي ظلت -رغم الزواج والإنجاب- محتفظة بجمالها ونضارتها قبل أن تُطَبَّق
عليهم الأرض والسماء وتُلْقَى بالأم وابنتها بين يدي ذئب عقور.

في رحلة العودة إلى فيينا بالمركب التأم الجمع من جديد، فعادت تونيا ومعها ماتيوس من
جولتها بالحي القديم، كما انضمت إليهم نادية ومعها مادلين، أما ماجدة والدكتور جعفر
الذان لم يبتعدا كثيراً عن رصيف الماريننا وذهبا إلى مقهى قريب، فقد صعدا للسفينة مع
العائدين عندما أُرِف الوقت ليكملا حديثهما الذي لم ينقطع. لم يغب عن فطنة الأم أن ابنتها
تُفسح لها الطريق لتتعرف إلى أستاذها، وقد كان بإمكان ماجدة لو أن حديث جعفر
يُضجرها أن تنضم إلى ابنتها وتفلت منه، غير أن حديثه طاب لها واهتمامه أسعدها. لقد
مضت سنوات على آخر مرة استمعت إلى كلمة حلوة من رجل، وكان الرجل في السابق هو
زوجها مصطفى ضرغام، أما سنوات هانز أورليش فقد كانت سنوات الجمر.

في البيت سألتها نادية: ما الأخبار مع البروفيسور جعفر الذي التقيناه على غير انتظار؟ ردت ماجدة وقد احمر وجهها: هل كان ضروريًا أن تتركوني جميعًا مع رجل لا أعرفه وتتصرفوا كما فعلتم؟ لكن على أي الأحوال لم تكن صحبتته مملة.. هذا رجل واسع المعرفة والاطلاع.

لم تكن نادية التي تُؤثر الكتمان على البوح قد حكّت لأمها عن العرض الغريب الذي تقدّم به جعفر إليها في السابق، ومع ذلك لم تشعر بنفس النفور من العرض عندما تصوّرت أنه قد يكون عرضه على أمها! صحيح هي تريد لأمها الأفضل والأحسن في كل شيء، لكنها تعلم أن أي عرض مهما بلغت غرابته من عاطف جعفر سيكون أفضل من السنين المرة التي عاشتها مع النمساوي اللعين.

- فيم تحدثتما يا أم نادية طيلة الساعات الثلاث التي تركناكما خلالها؟
- حكى لي عن حياته ورويت له عن حياتي، وأشعر بغرابة وأنا أقول لك إن الوقت معه مضى سريعًا!
- يا سلام عليك يا ماجدة، يبدو أن عينيك قد أسرت الرجل.. يخرب بيت عيونك يا ماجدة شو حلوين!

أحست ماجدة بالخجل كأنها فتاة صغيرة أتاها ابن الحلال وطلب يدها من أسرتها، ومع ذلك قالت: لم يكن في حديثي معه ما تتصورينه.. إنني أرحب به كصديق ليس أكثر، أما موضوع العيون والرموش هذا فلم يكن حاضرًا.

- ربما لم يكن حاضرًا بالنسبة لك، أما من منظوره هو فما أدراك ما فعلت عينك به؟ ربما يكون جالسًا الآن في بيته يغني كما قالت فيروز: يا أمّ نادية لو تدرين ما فعلت عينك بي لتولّى قلبك الوجّل. ردت ماجدة ضاحكة: فيروز قالت: يا أخت زينب ولم تقل يا أمّ نادية! سارعت الابنة بالقول: لكن أم نادية أحلى من أخت زينب.

اختلست ماجدة نظرة سريعة إلى المرأة الموجودة بالغرفة وكأنها تتحقق من فاعلية عينيها التي تزعمها ابنتها المشاغبة، ثم قالت: لقد تحدّثت عن الوحدة التي أصبح يشعر بها بعد أن طلق زوجته المقيمة في العراق، وقال إنه طلب مجيئها وإقامتها معه، لكنها رفضت وطلبت الطلاق.

- واو.. طلق زوجته إذن وأصبح خاليًا؟ أطلقت نادية الصيحة والسؤال.
- اعقلي يا نادية، ولا تتركي نفسك للخيال.
- ألم يطلب أن يتزوجك؟
- لا بد أنك جُننت.. رجل يلقاني للمرة الأولى وتتوقعين أن يطلب مني الزواج؟! لم تشأ نادية أن تقول لها: إن الرجل طلب الاقتران بابنتك من دون أن يكون قد قابلها خارج قاعة الدرس!

أكملت ماجدة كلامها عن البروفيسور، فقالت: لقد مر بظروف صعبة بعد أن عرف أن نظام صدام حسين حاصر زوجته وضغط عليها وهددها بإيذاء الأبناء إذا لم تنفصل عن زوجها الذي أفادت تقارير المخابرات العراقية أنه معروف عنه تأييده للثورة الإيرانية، في الوقت الذي كان الجيش العراقي يخوض حربًا ضد نفس الثورة!

لم تكن توقعات نادية بعيدة عن الحقيقة عندما قام عاطف جعفر بعد يومين بطلب ماجدة في التليفون، وسألها أن تُحدّد ميعادًا ليزورها في البيت، وعندما أتى كان طلبه بالزواج من ماجدة مباشرًا وصريحًا. عندها لم تتحرج نادية أن تسأله عن أي نوع من الزواج يريد! وطبيعي أن الرجل فهم مغزى السؤال، وأكد أنه يريد زواجًا علنيًا في المركز الإسلامي. ماجدة وحدها لم تفهم سؤال ابنتها، ولا مسارعة دكتور جعفر في الإجابة!

جريدة الأهرام في 7 أكتوبر 1981

- السادات شهيدًا في رحاب الله

- رصاصات آثمة يطلقها أربعة من الخونة على القائد في أثناء العرض العسكري أمس
- إصابة الرئيس برصاصتين ونقله في طائرة هليكوبتر إلى مستشفى المعادي لمحاولة إنقاذه
- إرادة الله تسبق كل إرادة ويستشهد قائد أكتوبر في يوم نصره العظيم
- تشييع جنازة الزعيم الراحل يوم السبت ودفنه في ضريح بجوار منصة العرض

جريدة الشرق الأوسط 14 أكتوبر 1981

- الشرق الأوسط تلتقي خال زوجة مبارك البريطاني
- «حسني رجل رائع ولا يتحمل أي كلام فارغ وسوزان ستنجح في مهمتها وتقف وراء رجلها»
- جهود لمنع حرب ليبية- سودانية- مصرية
- نميري: القذافي حيوان ويجب تصفيته بإلقائه من طائرة أو إغراقه في المحيط!

ثاني عشر

ذهب عادل لتلبية دعوة محرز على الغداء في البيت احتفالاً بإتمام زواجه على إيربانا، وكان المسكن يغمص بالحاضرين، وأغلبهم من جيران محرز النمساويين، علاوة على الوفد اليوغوسلافي من أصدقاء العروس، إلى جانب والدته محرز وأخيه اللذين قررا العودة إلى الديار صبيحة اليوم التالي، في نفس الوقت الذي سيسافر فيه محرز مع عروسه لقضاء إجازة في مدينة زغرب على البحر الأدرياتيكي.

بالكاد استطاع عادل أن يجد لنفسه مقعدًا في حديقة البيت الصغيرة، وجلس يتضحك ويتبادل النكات مع العريس وأخيه، كما قام بتلبية أكثر من دعوة للرقص مع بعض المدعوات على الموسيقى السلافية الشعبية التي أداروها، وفاجأه محرز بأن طلب منه أن يرقص مع إيربانا إكرامًا له ولها وتأكيدًا على الأخوة التي تجمعهم بهما. أخذ يراقصها ويدور بها وغلب عليه الحذر من النظر إليها.. لا يدري كنه الشعور الذي أحسه وجعله يظن أن العروس قد تصرخ في وجهه فجأة دون سبب، وربما لم ينس خوفه منها في السابق؛ لذلك سرعان ما قام بإهدائها لمحرز من جديد، واندمج في الرقص مع أكثر من واحدة من المدعوات. بدا له أنه محط أنظار الفتيات، ولم يعرف هل هذا حقيقي أو أنه من تأثير الشراب الذي كان يواليه العريس به طول الوقت، لكن محرز أكد له أنه مطلوب، وهمس في أذنه بأنه إذا أضع هذه الفرصة لاقتناص رفيقة من وسط هذا الجمع فقد لا تسنح فرصة أخرى في هذه البلدة الصغيرة. ابتسم عادل ودارت في ذهنه أفكار كاد يُفصح عنها غير أنه كبحها حتى لا ينكد على محرز في يوم فرحه.. أراد أن يقول له: يا محرز يا صديقي، كيف أقيم علاقة بامرأة وأنا مرتبط بأخرى؟ نفس المبدأ القديم الذي تظاهر محرز باعتناقه بينما كان يقيم علاقة بالفعل مع إيربانا! صحيح أن علاقته بنادية آخذه في الذبول بفعل البعاد والتنائي لدرجة أنه لم يرَها منذ شهور ولم يعد يعرف عنها شيئًا، إلا أنه يعتبر نفسه على سفر، ويتظاهر بأن نادية امرأته وقد تركها بالوطن وسيعود إليها ذات يوم.. لكن التفكير في

إقامة علاقة بأخرى من شأنه أن يدهس نادية الكائنة في ذهنه، وهو لا يريد لذكرها هذا المصير.. لا بأس بأن تذوي في داخله حتى تتلاشى يوماً بعد يوم، ووقتها قد يفكر في أخرى أو في أخريات، أما الآن فهو يريد الحفاظ على ما بقي منها في قلبه لأطول وقت ممكن.

لم يكن لديه ما يُشغله ففضى اليوم بأكمله في الحفل البهيج، ولم يفكر في الانصراف إلا بعد أن دخل الليل وبدأت البرودة تسري في أوصال الجالسين في الحديقة، فقام مودعاً واستأذن في الانصراف.

سار يترنح في الطريق إلى مسكنه وسمع زقزقة الطيور على أغصان الشجر في هدأة الليل فأخذ يضحك على لا شيء! أراد فقط أن يضحك وحدث نفسه بأن من يراه سيظن به الجنون، لكن لحسن حظه فإن البلدة تخلو من السائرين من بعد الغروب، ويندر أن يطل أحد خارج مسكنه. رفع صوته بالغناء فأحس أن الدنيا كلها تنصت إليه وتسمعه، ولاحظ أن بعض الشبابيك تفتتح وقدّر أنه سيتعرّض للتوبيخ من الجيران في الصباح، هذا إذا لم يتصلوا بالبوليس الآن! فكر في أن يذهب إلى شاطئ النهر ويتخذ لنفسه مقعداً، لكنه أحس بأن النهر سيزيده وحشة وسيدفع به إلى التأمل والتذكر واجترار سنواته الماضية، فقرر أن يتوجه لمسكنه ويحاول النوم. عندما اقترب من صف الغرف المتلاصقة حُيّل إليه أن شبّحاً يجلس إلى جوار باب غرفته. فرك عينيه وضحك لاعتناً السكر الذي يلعب بالرأس، لكن عندما ازداد اقتراباً ازداد الشبح وضوحاً، ولما أصبح قاب خطوتين من الباب فوجئ بأن الشبح الجالس بجوار بابه هو نادية تفترش حقيبة يدها وتجلس مستندة إلى الجدار في انتظاره.

ألجمته المفاجأة ونظر إلى الساعة فوجدها العاشرة مساءً. وقف قبالتها ينظر إليها على ضوء مصباح الشارع الخافت. لم يعرف ماذا يقول، فقابلته بابتسامة متسائلة: ألا تنوي أن تقول مرحباً وأن تفتح الباب؟ قال مرتبباً: ولكنك تسدّين الباب. مدت له يدها فجذبها بقوة فقامت مندفعة وارتمت في حضنه، فضمها وأبقاها في صدره طويلاً دون أن يقول شيئاً،

ثم أخذ يُقْبِلُها ناظرًا إلى وجهها كأنما لا يُصدِّق وجودها. قالت: رائحة الخمر تفوح منك وكأنك منقوع في برميل نبيذ. وجد نفسه يتراجع بعيدًا عنها قائلاً: وكأن رائحة الخمر جديدة عليك! امثِّق وجهها كمن تلقى صفة، لكنها تماكنت نفسها قائلة: لا، ليست جديدة، لكني لم أكن أستمتع بها.. كان العمل سيئًا للنجاة، وإذا كنت تريد إيلاي فقد نجحت، والليلة كل شيء لك مغتفر.. هيا قل المزيد حتى تبلغ ثأرك.

شعر بالإحراج من ملحوظته السخيفة، ولام نفسه على قول ما لا يعني، فتقدّم منها وأمسك بيدها معذراً: ثأري ليس معك، لكنه مع الدنيا الخئون التي لا أقوى على مناطحتها. وقفت أمامه ساكنة فتقدّم وفتح الباب بيمناه، ولف يده اليسرى حول خصرها وهو يدفع بها برفق إلى الداخل، ثم أضاء النور فرأى وجهها بوضوح، وشعر بقلبه يرتعش، فاندفع يمسك بها ويضمها من جديد وكأنما يخشى أن تضيع منه. انفلتت منه برفق وخلعت الرداء الثقيل الذي ترتديه فأخذه وعلّقه على المشجب خلف الباب، وجلست مرتدية قميصاً وردياً وبنطلون جينز. سألتها: منذ متى وأنت هنا؟ قالت: منذ أربع ساعات.. ذهبت إليك في مقهى جرايين فأخبروني بأنك لم تحضر، فأخذت القطار إلى هنا، ثم جلست في الظلام أنتظرك. مرت لحظات صمت قبل أن يقول: غيبتك طالت. قالت وهي تنظر في الأرض: أعلم.

قال: انتظرتك حتى كدت أياس. ردت: وأنا لحقت بك قبل أن يصيبك اليأس.

قام إلى الحمام وترك بابه مفتوحاً فشاهدته يغسل وجهه عدة مرات ثم يضع رأسه تحت الحنفية؛ حتى يتخلص من آثار السكر. خرج فوجدها تمسك بالفوطة الملقاة على السرير لتنشف رأسه وتمنح الرأس قبلة ثم تعيد تنشيفه. قال وهو يهز رأسه بقوة كجرو ينفض الماء عن نفسه: لم أكن أريد أن ألقاك وأنا مخمور؛ لأنني في العادة لا أحب الشرب، بالعكس، فهو يقلب معدتي ويصيبني بالصداع، وكنت أود أن أراك وأنا مستفيق تمامًا؛ حتى أستطيع أن أسألك الأسئلة الواجبة.. الآن أشعر أن الأسئلة تاهت، وأني سأكتفي بحضورك دون أن أفهم سر احتجابك.

قالت: يمكنني أن أجيب عن الأسئلة التي لم تسألها دون أن تتكبد عناء السؤال، فأنا أفهمك وأعرف ما يُحيرك.

قال: قبل الأسئلة والأجوبة فيما يتعلق بنا، أود أن أفهم لماذا جازفتِ بالحضور في هذا الموعد المتأخر ولم تحضري في الصباح حيث النور والأمان؟

قالت: كلامك هذا يشي بأنك لم تعرف الخبر! هذا ما كنت أتصوره.

قال مستغرباً: أي خبر؟

- ما حدث اليوم عند الظهرية.
- ماذا حدث اليوم عند الظهرية؟
- إنني أتحدث عما حدث في مصر.
- بالله عليكِ تحدثي بوضوح.
- السادات مات.. أو بالأحرى قُتِل.

ظل ساكناً لثوانٍ وكان ما قالته لم يدخل عقله، ثم أخذ يعيد كلامها دون أن يفهمه. السادات قُتِل؟! أين؟! وكيف؟! وهل يمكن أن يحدث هذا دون أن أعرف؟!

- أين كنتَ قبل قليل؟
- قضيت اليوم كله عند صديقي المغربي أحتفل مع أسرته بزواجه ولم أخرج من عنده، كما لم يفتح أحد التلفزيون، وبالتالي لم نطلع على أي أخبار.. لكن قولي لي كل ما تعرفينه عن الموضوع.

قالت: افتح التلفزيون فربما يذيعون المزيد من التفاصيل.

قام إلى التلفزيون ففتحه وقلّب في القنوات حتى رأى مشاهد الحدث الجلل الذي وقع عند المنصة، وتبيّن له أن الخبر حقيقي لا مرأى فيه. كان يطالع التلفزيون منفعلًا

وهو يكاد لا يصدق ما يرى. ظل يروح ويجيء في الغرفة كمن به مس وهو يُرَدَّد:
أمعقول هذا؟ لقد كنت أظن أن أمام هذا الرجل في الحكم ثلاثين عامًا أخرى.. لا
أعرف هل أفرح للخلاص منه أو أحزن على مصر التي لن تفلت مما فعله بها؟! إن
مشاعري غير مستقرة وأحس كأن زلزالاً ضرب الأرض التي أقف عليها.

- أول ما فكرت فيه بعد أن سمعتُ الخبر هو أن آتي إليك، ليس لأُزف إليك خبرًا
سعيديًا، فأخبار الجريمة والقتل دائمًا مروعة، لكنني خشيت أن تكون قد علمت بالخبر
واتخذت قرارًا بالعودة الفورية.. خفت أن أفقدك، في الأيام القليلة الماضية كنت قد
اتفقت مع أمي أن أزورك، لكنني لم أحدد لذلك موعدًا.. طوال الوقت وأنا أتصرف على
أساس أن ما بيني وبينك دائمٌ وأبدي وأزلي وسرمدي ولن يُغيَّرَ شيء، وعلى الدوام
يقيني أنك تعلم هذا؛ لذلك لم أكن خائفة من أن أفقدك.. فقط كنت أقوم بترتيب
حياتي على ضوء المتغيرات الجديدة التي اعترتها، وكنت عائدة إليك في كل
الأحوال، لكن هذا الحدث الذي وقع اليوم أشعرنى بأن كابوس حياتك قد زال، وربما
تدفع للسفر قبل أن ألقاك.

أغلق التلفزيون ونظر إلى نادبة معاتبًا: هل احتجتِ لستة شهور حتى تقومي بترتيب
حياتك؟ ستة شهور قمتُ خلالها بزيارتكم في البيت أربع مرات، ولا بد أن ماجدة
أخبرتكم، ومع ذلك لم تفكري أن تترفقي بي وتكلميني؟ أنتِ صخرية القلب يا نادبة..
لقد جعلتني أشعر أنني عورة أو لطخة تُلوّث ثوب حياتك الجديد.

- أنا آسفة ونادمة، ولا أريد منك أن تقهرني، لكنني أحتاج إلى كرمك وصفحك لجهلي
وغبائي وسوء تقديري.
- أنا أقهرك؟ انظري إليّ.. ألا تزين أنني أرتجف بينما أتحدث إليك.. إنني لا أريد أن أفرج
عن دموعي حتى لا أسقط منهارًا، وهذا ما يزيد من رجفتي.. إن عودتك مع خبر
مقتل السادات يشكلان داخلي إعصارًا من المشاعر لا أعرف كيف أوقفه!

قامت إليه فضمته إلى حضنها، فتشبث بها، ثم انهمرت دموعه ودفن رأسه في صدرها. وجدت نفسها ترتعش وكأن رجفته قد مستها وانتقلت إليها. جسدان ملتصقان يرتعشان وقد سرت فيهما شحنة من المشاعر الكاسحة. أمسكت برأسه ورفعته إليها فنظر في عينيها قائلاً وقد ازداد نشيجه: ربنا يسامحك. طفرت الدموع من عينيها تأثراً؛ لأن قوله ربنا يسامحك خرج مُحملاً بالانكسار الذي لم تحتمله.

قبّلت شفّتيه فقال محذراً: رائحة الخمر تفوح مني. قالت: أنا موافقة. غاب معها في قبلة طويلة وأخذ يتحسس شعرها ووجهها واختلطت دموعها بدموعه، ثم ارتفعت حرارة اللقاء فأخذ يفك قميصها، ويمشي بأصابعه على جسدها فثارت أنوثتها وتلوّت متأوهة بين يديه. تذكّر عادل أنه لطالما منع نفسه من أن تمضي مع نادية لما يشتهي، وكان محاذراً أن يصل بالعاطفة بينهما إلى الاشتعال؛ خشية أن يكون مُستغلاً لهشاشتها وهي التي رأت من الحياة جانبها المرعب، لكنه الآن لا يحتمل ابتعادها عنه ولا يقدر على القيام بدور الشريك العاقل. بدأ بعد ذلك ينزع ثيابها، فلم تتمالك نفسها وأدهشها صوت أنينها يشق الليل الساكن وهي تسمعه للمرة الأولى. دخلت معه تحت الغطاء دون ثياب ومضيا في رحلة استكشاف، أدواتها الشفاه والأنامل ونبضات القلب، لم يشعرا بالوقت وغابا داخل الزمن وكل منهما يعتصر رفيقه في لهفة، ولم يعرفا هل هما في حلمٍ أو أنهما الحلم الخالص؟! وفي كلّ خشيا من الانتباه؛ فازداد تشبُّث كلّ منهما بصاحبه ولم يعودا يدركان أيهما يشعل جسد الآخر وأيهما يطفئه، أيهما الجمر وأيهما الماء؟ حتى إذا علت الحمى واشتعل الوطيس، وكاد البركان يرمي بحممه توقفت نادية قائلةً بأنفاس لاهثة وصوت مبحوح لا يكاد يُسمَع: نحتاج إلى واقٍ حتى لا تتعقد الأمور.

تبّهته كلماتها فهدأ قليلاً: ومن أين لي بهذا؟ فكرت لثوانٍ ثم افترّ وجهها عن ابتسامه رائقة: لا يهم.. وليكن ما يكون يا أخ عفركوش.

سألها وهو يُغْرِقُها بقبلاته عاجزًا عن ترك شفيتها: هل أنتِ متأكدة؟ حضر صوتها
وكانه آتٍ من خلف الغمام: نعم يا أخ عفركوش!

مع تباشير الفجر وأسفل السماء الرمادية التي ظللت نهر الدانوب، جلس عادل إلى
جوار نادية على المقعد الخشبي، ويده ملتفة حولها وهو يمسح بيده الأخرى على
رأسها الملقى على كتفه، بينما يصدح الكاسيت الذي أحضره معه بأغنية: آه لو تدري
بحالي.. ارتفع صوت عادل بالغناء وهو يحتوي نادية التي لم تتردد في مشاركته
الغنوة التي صارت عنوانًا للمحبة التي جمعت بين قلبيهما.

قال: تُزَي ماذا يحمل الغد؟

قالت وهي تتعلّق به وتدفن رأسها في صدره: أشعر أنني امتلكت الدنيا وما فيها،
وأحمد الله على أنك كنت عند حسن ظني، فلم تتسرع وتغضب وتيأس مني. قال: لا
تكرريها أرجوك، ولا تراهني على هذا كثيرًا؛ لأن بقائي محبًا لك رغم نايتك واحتجابك
هي مصادفة غير مضمونة. قالت: أحس أن لديك الآن بعد مصرع رئيسكم نفس
المشاعر التي انتابتني عندما وصلني خبر مقتل هانز أورليش - اضطرابًا وعدم يقين
وقدرًا من الحزن، مع أن الناس تتصور أن أخبارًا من هذا النوع تكون جالبة للفرحة
العارمة للمظلومين.

تطلّع عادل ببصره إلى السماء والنهار ينبلج، وأجاب: لم يكن بيني وبين الرئيس
الراحل أي خلاف شخصي، فلا أنا أعرفه ولا هو يعرفني، ومَن كانوا يبحثون عني
لاعتقالي هم معاونوه الصغار الذين يُقدّمون الأبرياء قربانًا للإله الذي يُطعمهم
ويسقيهم، وهذا يختلف عن حالة أورليش بالنسبة لك، لكني أتفهم ما تعنيه وأنتِ
تتحدثين عن زوال العائق.. لقد كنت أحلم بتغيّر الوضع في مصر على نحو يسمح لي

بالعودة، لكنني لم أتصوره أبدًا دراماتيكيًا بهذا الشكل، وعندما وقع لا أجدني شاعرًا بالسعادة.

- هل تظن الأمور ستسير في مصر على نفس الوتيرة، خاصةً والسجون تمتلئ الآن بالضحايا الذين اعتقلتهم السلطة الشهر الماضي؟
- في ظروف كهذه عادةً ما تقوم السلطة الجديدة بإزالة الاحتقان ومصالحة الناس، خاصةً وأنها لا مصلحة لها في أن تترث أحقادًا لا داعي لها وغضبًا لم تشارك في صنعه، وأظن أنه لن تمر أيام حتى يتم الإفراج عن المعتقلين، لكن ما يشغلني الآن هو ماذا سأفعل بعد أن أعود؟ لقد فصلتني الجامعة وليس عندي عمل، والشطرنج الذي يؤمن حياتي هنا لا نفع له هناك، وفي الوقت نفسه لا أتصور أن أقضي عمري هنا.. هذا لم يكن في حساباني أبدًا. إنني حتى لا أمتلك جواز سفر صالحًا.
- أنا لا أستطيع أن أقدم حلولًا، لكن أي قرار تتخذه يجب أن يأخذ في الحسبان أنني أصبحت لك.. أصبحت لك إلى الأبد؟
- هل تحبين أن نذهب اليوم لإتمام إجراءات الزواج؟
- ليس هذا ما قصدت.. طبيعي أن هذا يسعدني، لكنه ليس ذا أولوية.. ما بيني وبينك هو ثقة لا يعتريها شك.. سأتزوجك يوم ترسي على بر؛ لأنني لا أريد أن أضع على كاهلك أحمالًا تزيدك ارتباكًا، أما الآن فأنا مضطرة كما أخبرتك أن أسافر إلى أفريقيا برفقة فريق بحثي للعمل هناك لمدة ثلاثة شهور، وعندما تنتهي البعثة سأحضر إليك إن في مصر أو هنا في النمسا، والأمر يرجع لك.
- لا أدري أين سأكون وقتها، لكنني أرجو من «الغد» أن يترفق بنا وأن يفتح لنا كوة يأتي منها النور والهواء.
- ظني أنه سيكون بنا رقيقًا؛ لأننا أخذنا نصيبنا من القسوة والألم.

أراد أن يُغيّر الموضوع، فقال: لكن هل تعرفين يا نادية؟ إن موضوع زواج ماجدة هو أجمل خبر سمعته.. لقد توقفت عن زيارتها منذ فترة؛ لذا فلم أعرف بهذه التطورات إلا الآن.. لا بد أن أزورها وأقدم لها التهنئة.

- سنزورها معًا؛ لأنني لم أعد أسكن معها.. لقد فضلتُ أن أتركها تعيش مع الدكتور جعفر في بيته؛ رغم أنهما طلبا مني أن أعيش معهما.. لم أرَ هذا مناسبًا؛ رغم أنني بصراحة أفقدتها بشدة.

نهض واقفًا واقترب من النهر عند مرور قارب شراعي يضم شابًا وفتاةً ممن يستيقظون قبل غيرهم ليأخذوا باكورة الدانوب ونسماته الخريفية المنعشة، ثم رفع يده لهم محيياً ردًا على تحيتهم التي لَوَّحوا بها. التفت إلى نادبة قائلاً: هذا المقعد الذي نتخذه الآن، جلسنا عليه من قبل أنت وأنا.. أتذكرين؟ هزت رأسها: نعم أذكر. قال: وأنا كثيرًا ما جلست عليه وحدي أفكر فيك وفي الدنيا وما تفعله بنا. قال هذا وأتبعه بتنهيدة حارة قبل أن يضيف: وجلستُ هنا أيضًا مع صديقٍ باح لي بأشياء لم أكن أتمنى أن أطلع عليها.. هل تعرفين ثقل أن يلقي أحدهم بجبل من الهموم فوق ظهرك ويمضي؟ هذا ما فعله صديقي. لم تعرف نادبة عم يتحدث لكنها أدركت من صفحة وجهه أن أحزانًا تتناوشه وتُمسِكُ به، فأثرت أن تصمت وتتركه لأفكاره.

عاد إلى المقعد فجلس إلى جوارها من جديد وبان عليه التردد، فشجعتة قائلة: هات ما عندك أيها الحبيب.

- عندي حزمة من الأخبار الخاصة برفاقي الذين عشت معهم في السابق، وكلها للأسف أخبار حزينة ما زلت أقا سي ويلاتها، فهل تحبين أن تسمعيها أو أعفيك منها على اعتبار أنها لا تعنيك؟

- شوف يا سيدي، لا شيء يشغلك ويملاً نفسك لا يعنيني.. أمامي أسبوعان قبل السفر، وطبيعي أنني سأراك يوميًا؛ لذا يمكنك أن تروي لي طرفًا منها كل يوم بحيث لا تكون الجرعة مفرطة.

- كثيرًا ما فكرت في هذا الأمر في أثناء فترة غيابك، وكنت أقول لنفسي مُتردِّدًا: إنها يمكن أن تتخذ من هذه الأخبار ذخيرة تُطلقها عليك لتؤكد لنفسها أن قرارها بالابتعاد عنك كان في محله تمامًا!

• لستُ بهذا السوء يا حبيبي، لي أخطائي، لكن بُعدي عنك جعلني أراك جيدًا.. أنت الغريب القريب ذو الصوت الحلو الذي يغني لنفسه في الشارع والذي لم يخفق قلبي لسواه، ولقد قلتُ لك من قبل إنني لا أريد سوى أن تصفو لي وأصفو لك.. لن ألومك على شيء مهما كان ما أسمعته منك، فكلنا غلابة يا أخ عفركوش.

ضغط على يدها هامسًا: نعم، كلنا غلابة يا أخ عفركوش.

1. الغلاف

2. آه لو تدرې بحالي

3. إهداء

4. أولاً

5. ثانياً

6. ثالثاً

7. رابعاً

8. خامساً

9. سادساً

10. سابعاً

11. ثامناً

12. تاسعاً

13. عاشراً

14. حادي عشر

15. ثاني عشر